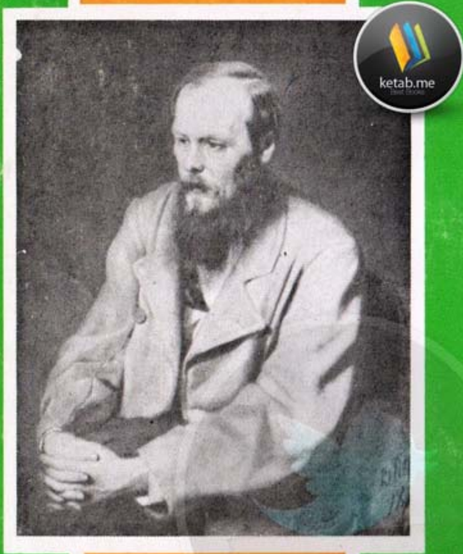
دستويفسكي
في مذكرات زوجته



تأليف
آنا غريغوريفنا
زوجة دستويفسكي

دستويفسكي في مذكرات زوجته

ترجمه

الدكتور هاشم حمادي

دستويفسكي
في مذكرات زوجته

الطبعة الأولى
١٩٨٩

عنوان الكتاب باللغة الروسية

А. Г. ДОСТОЕВСКАЯ

ВОСПОМИНАНИЯ

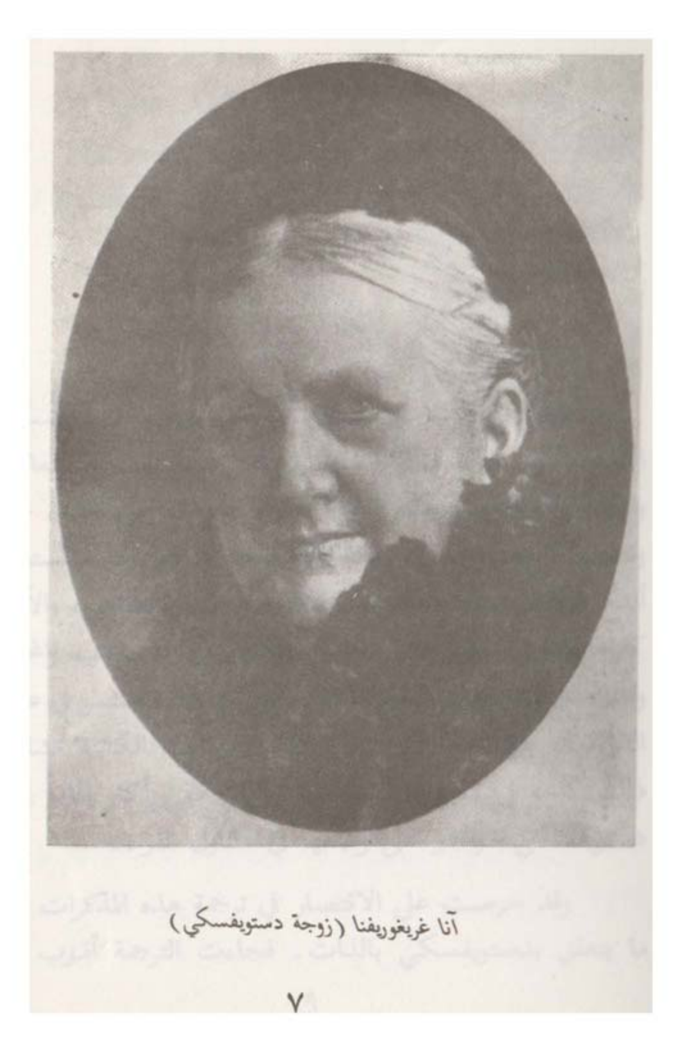
دستويفسكي في مذكرات زوجته = Воспоминания / تأليف آنا دستويفسكايا؛ ترجمة هاشم حمادة. ــ ط. ١. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩. ــ ٣٤٤ص.؛ ١٨ سم.

١ ــ ٩٢٠: دستويفسكايا، آنا ٢ ــ العنوان
٣ ــ دستويفسكايا ٤ ــ حمادة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٩/٦/٨٣٣

رقم الإصدار ٤٤٠



آنا غريغوريفنا (زوجة دستويفسكي)

في هذا الكتاب تسلط آنا غريغوريفنا دستويفسكيا الأضواء على حياة فيدور ميخائيلوفيتش دستويفسكي العادية والإبداعية، وترصد هذه الحياة بحلوها ومرها، على مدى عقد ونصف من الزمن، في مرحلة غنية بالعطاء. ففي هذه السنوات أبدع الكاتب رواياته المعروفة (الأبله، والجريمة والعقاب، والأخوة كارامازوف). وفيها عانى وقاسى الكثير من المصاعب والمحن. وقلب له القدر ظهر المِجَنِّ أكثر من مرة، ولكنه استمر في عمله الدؤوب، ونضاله حتى الرمق الأخير. وكانت الكاتبة تشاطره ذلك كله، ورفيقة دربه الشائك، وبالتالي فهي أكثر إلماماً بحياة دستويفسكي، وأقدر على وضعها في متناول القراء.

وقد حرصت على الاقتصار في ترجمة هذه المذكرات على ما يتعلق بدستويفسكي بالذات. فجاءت الترجمة أقرب إلى

التعريب . أو (الترجمة باختصار) . وكلي أمل أن أكون قد وفقت في الاختيار ، وقدمت للقارىء العربي ما يهمه فعلاً ، ويرفد مخزونه الثقافي . ويغني معارفه ، سواء أكان عن دستويفسكي أم عن الحياة الأدبية والاجتماعية في روسيا في سبعينيات القرن التاسع عشر .

في هذه المذكرات يطالعنا دستويفسكي الكاتب الروائي ، والعاشق والزوج المحب ، والأب العطوف ، والمقامر المتهور ، والمثقل بالديون ، والمصاب بالصرع . كما يطالعنا في نشاطه الصحفي والاجتماعي . كل هذه اللقطات تمر أمام أعيننا وكأنها شريط سينمائي وثائقي ، لا يزال ينبض ويمور بالحياة ، على الرغم من مرور أكثر من قرن من الزمن على هذه الوقائع .

المترجم

توطئــة

لم يخطر ببالي قط أنني سأكتب مذكراتي ، سيما وأنني كنت أعي افتقاري التام إلى الموهبة الأدبية، ثم إنني أمضيت جل حياتي غارقة في إصدار مؤلفات زوجي الخالد الذكر ، لدرجة أن الوقت كان يكاد ألّا يكفي للاهتمام بالشؤون الأخرى المرتبطة بذكراه .

وحينما اضطررت في عام ١٩١٠ ، بسبب وضعي الصحي ، إلى التخلي للآخرين عن مشروع إصدار أعمال زوجي ، الذي كان شغلي الشاغل ، وكان علي ، بناء على توجيه الأطباء، أن أعيش بعيداً عن العاصمة، شعرت بثغرة هائلة في حياتي ، كان علي أن أسدها بعمل ما يلقى اهتمامي ، وإلا ، وهذا ما كنت أشعر به ، فإنني لن أعيش طويلاً .

وهكذا رحت ، وأنا أعيش في عزلة تامة، وأكاد ألّا أشارك في الأحداث الجارية، أغرق روحاً وفكراً في لجة الماضي، البالغ السعادة بالنسبة لي ، وهذا ما ساعدني في نسيان فراغ حياتي الحالية وعقمها .

وكنت، وأنا أقرأ يوميات زوجي ويومياتي، أكتشف فيها التفاصيل الممتعة، لدرجة أنني شعرت برغبة عارمة في أن أعيد كتابتها، ليس بشكل مختزل، كما هي مكتوبة، بل بلغة في متناول الجميع، سيما وأنني كنت على يقين من أنها ستلقى اهتمام أبنائي وأحفادي. ومن يدري فقد تلقى اهتمام بعض عشاق موهبة زوجي الخالد الذكر، الراغبين في معرفة شخصية فيدور مخائيلوفيتش في جوه الأُسَري.

جاءت الذكريات، التي سجلت في أوقات مختلفة خلال فصول الشتاء الخمسة الأخيرة (١٩١١ ــ ١٩١٦) في عدة دفاتر، حاولت أن أنظمها قدر الإمكان.

وإذا كنت غير واثقة من مدى المتعة في قراءة مذكراتي، فإنني على ثقة من أنها صحيحة صادقة، وخالية من التحيز في رسم سلوك بعض الشخصيات. وقد استقيت هذه المذكرات من اليوميات بشكل أساسي، ودعمتها بالاستشهاد بالرسائل والمقالات في الصحف والمجلات.

وأعترف بصراحة أن ثمة الكثير من العيوب الأدبية في مذكراتي، منها: الإطالة، عدم التوازن في حجم الفصول، والأسلوب القديم.. إلخ. ولكن من الصعب تعلم الجديد لمن كان في سن السبعين، ولذا فليغفر لي القراء هذه العيوب لرغبتي النزيهة والقلبية في أن أقدم لهم دستويفسكي

بكل إيجابياته وسلبياته، بالشكل الذي كان عليه في حياته العائلية والشخصية.

الـفـصـــل الأول

التعرف على دستويفسكي والزواج

في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٦، وكانت الساعة تقارب السابعة مساء، وصلت، كالعادة، مدرسة الذكور رقم ٦، حيث كان ب. م. أولخين مدرس الاختزال، يلقي إحدى محاضراته. لم تكن المحاضرة قد بدأت بعد، بانتظار المتأخرين، جلست في مكاني المعهود، ولم أكد أهمُّ بفتح دفاتري حتى اقترب أولخين مني، وقال، وهو يجلس بجواري على المقعد:

ـــ آنا غريغوريفنا، هل ترغبين في الحصول على عمل اختزالي؟ لقد طلب مني العثور على مختزل، وخطر لي أنك قد توافقين على أخذ الأمر على عاتقك.

وكان جوابي: أود ذلك من كل قلبي فمنذ زمن بعيد وأنا أحلم بالحصول على عمل، ولكني أخشى أن يكون إلمامي بالاختزال غير كاف للقيام بمثل هذه المسؤولية.

ولكن أولخين طمأنني، فهو يعتقد أن العمل المطلوب لن يتطلب سرعة في الكتابة أكبر من تلك التي أجيدها.

وسألته مستفهمة: عند من سأعمل؟

ـــ لدى الكاتب دستويفسكي، إنه الآن بصدد كتابة رواية جديدة، وينوي الاعتماد على الاختزال في كتابتها. ويعتقد دستويفسكي أن الرواية ستكون بحجم سبع ملازم من القطع الكبير، وسيدفع لك خمسين روبلاً لقاء ذلك.

وافقت على الفور. فاسم دستويفسكي كان معروفاً لديّ منذ طفولتي، فقد كان كاتب والدي المحبوب. وكنت نفسي معجبة بمؤلفاته، وكم ذرفت من دموع وأنا أقرأ (ذكريات من بيت الموتى). كانت فكرة، التعرف على الكاتب الموهوب، ومساعدته في عمله قد أثارتني، وأبهجتني إلى حد كبير.

أعطاني أولخين ورقة صغيرة مطوية كتب عليها: جادة ستوليارني، زقاق م. ميشانسكيا. دار ألونكين، الشقة رقم ١٣. اسألي عن دستويفسكي،

وأوصاني أولخين : أرجوك أن تذهبي إلى دستويفسكي غداً في منتصف الثانية عشرة ، « لا قبل ولا بعد » . كما حدد لي اليوم .

وللحال أعرب أولخين عن رأيه بدستويفسكي ، وهذا ما سأشير إليه في سياق الحديث . نظر أولخين إلى ساعته ، ثم ارتقى المنبر . وأعترف أنني لم أفهم من تلك المحاضرة شيئاً ، فقد كنت في غاية الاضطراب ، ونهباً للمشاعر السارة . لقد تحققت أمنيتي المنشودة ، أخيراً حصلت على عمل ، فإذا كان أولخين ، المعروف بصرامته وشدته ، يرى أنني ملمة بالاختزال بما فيه الكفاية ، وأجيد الكتابة بسرعة كافية ، فهذا يعني ذلك فعلاً ، وإلا لما كان عرض علي العمل ، وهذا ما أثار بهجتي ، ورفع من قيمتي في عيني . كنت أشعر أنني خرجت إلى الطريق الجديد ، وأن بوسعي أن أجني النقود بعرقي ، وأنني أصبحت مستقلة . وقد كانت فكرة الاستقلال بالنسبة لي ، باعتباري من فتيات الستينيات ، من أغلى الأفكار وأحبها ، ولكن الأكثر بهجة وأهمية من العمل المقترح هو إمكانية العمل لدى دستويفسكي ، والتعرف على هذا الكاتب شخصياً .

لدى عودتي إلى البيت حدثت والدتي عن كل شيء بالتفصيل ، وقد شاطرتني فرحتي بهذا النجاح ، ولشدة فرحي واضطرابي لم يغمض لي جفن تقريباً ، وكنت لا أكف عن تصور دستويفسكي . ولما كنت أحسب أنه من جيل أبي ، فقد اعتقدت أنه كهل عجوز ، تارة كنت أراه عجوزاً سميناً ، أصلع الرأس ، وأخرى طويل القامة نحيفها ، وفي الحالتين ذا ملامح قاسية ومكفهرة ، كما وصفه أولخين . وكان أشد ما يثير قلقي كيف سأتحدث إليه . فقد كان

دستويفسكي يبدو لي عالماً ذكياً لدرجة أنني كنت أرتجف مسبقاً لكل كلمة سأقولها. ومما أثار ارتباكي أيضاً أنني لا أذكر جيداً أسماء أبطال رواياته. وكنت على ثقة من أنه سيتحدث عنهم بكل تأكيد. ولما لم يكن قد سبق لي أن التقيت في محيطي بأدباء بارزين، فقد كنت أتصورهم كائنات متميزة، يجب أن يجري الحديث إليهم بأسلوب خاص، إنني حين أتذكر تلك اللحظات، أرى كم كنت طفلة صغيرة، على الرغم من سنواتي العشرين.

في الرابع من تشرين الأول (أكتوبر)، يوم اللقاء الأول بزوج المستقبل، استيقظت مرحة وقد تملكتني البهجة، فاليوم يتحقق حلمي المنشود، الذي طالما راودني: التحول من تلميذة مدرسة، أو طالبة في دورة، إلى إنسانة مستقلة، تعمل في المجال الذي اختارته.

خرجت من المنزل مبكرة، كي أعرج في طريقي على غوستيني دفور (بهو الضيافة، وهو مخزن كبير في مدينة بطرسبورغ ــ لينينغراد حالياً. المترجم) لشراءِ كمية إضافية من الأقلام، ومحفظة صغيرة، من شأنها، كما اعتقدت، أن تعطي قوامي الشاب طابعاً أكثر جدية. أنجزت مشترياتي في الحادية عشرة. ولكي لا أصل إلى دستويفسكي «لا قبل ولا بعد» الموعد المضروب، رحت أسير بخطوات متثاقلة عبر شارع بولشايا ميشانسكيا وجادة ستوليارني، وأنا لا أكف أنظر إلى ساعتي. وفي الحادية عشرة والنصف إلا خمس دقائق اقتربت من منزل ألونكين، وسألت الكناس، الواقف تحت البوابة، أين تقع الشقة رقم ١٣، فأشار ناحية اليمين، حيث كان ثمة مدخل إلى السلم تحت البوابة. كان البيت كبيراً يضم العديد من الشقق الصغيرة،

يقطنها التجار والحرفيون. وللحال قفزت إلى ذهني صورة ذلك المنزل في رواية (الجريمة والعقاب)، حيث كان يعيش راسكولنيكوف، بطل الرواية.

كانت الشقة رقم ١٣ في الطابق الثاني. ولم أكد أرن الجرس حتى فتحت لي الباب خادمة متقدمة في العمر. تضع منديلاً أخضر مخططاً على كتفيها. ولما لم يكن قد مضى وقت طويل على قراءتي (الجريمة)، فقد تساءلت عما إذا كان هذا المنديل نموذج ذلك المنديل، الذي لعب دوراً كبيراً في حياة آل مرميلادوف. وعلى سؤال الخادمة عمن أبحث أجبت أنني قادمة من طرف أولخين، وأن سيدها قد أحيط علماً بزيارتي.

ولم أكد أخلع قلنسوتي حتى فتح باب الممر، وعلى خلفية الغرفة، الغارقة في الضوء، بدا شاب أشقر اللون ذو شعر أشعث، وقميص مفتوح على الصدر، ينتعل حذاء. ولم يكد يراني أنا الغريبة، حتى أطلق صيحة، واختفى للحال في باب جانبي.

دعتني الخادمة إلى غرفة تبين أنها غرفة المائدة. كانت ذات أثاث متواضع جداً: في محاذاة الجدران كان ثمة صندوقان كبيران تتدلى من فوقهما سجادتان كبيرتان. وبالقرب من النافذة كانت ثمة خزانة مزدانة بغطاء أبيض، وبمحاذاة الجدار الآخر كانت ثمة أريكة، علقت فوقها ساعة جدارية. وبكل ارتياح لاحظت أن عقربيها كانا يشيران إلى منتصف الثانية عشرة تماماً.

دعتني الخادمة للجلوس، وقالت إن السيد سيأتي حالاً. وبالفعل،

فبعد حوالي دقيقتين ظهر فيدور ميخائيلوفيتش، ودعاني إلى مكتبة، أما هو فذهب، للإيعاز بتقديم الشاي. كما تبين فيما بعد.

كان مكتب فيدور ميخائيلوفيتش عبارة عن غرفة كبيرة ذات نافذتين، وكانت في ذلك اليوم المشمس بهيجة جداً، أما في وقت آخر فكانت تولد انطباعاً ثقيلاً: فقد كانت في منتهى الظلمة والصمت، فتشعر بنوع من الانقباض جراء هذه الظلمة والصمت المطبق.

وفي عمق الغرفة كانت ثمة أريكة وثيرة، مغطاة بقماش بنيّ اللون، عتيق، وأمامها طاولة دائرية عليها غطاء أحمر من الجوخ، وعلى الطاولة فانوس وألبومان ــ ثلاثة، وعلى جوانب الغرفة كراسٍ ومقاعد وثيرة، وفوق الأريكة تدلت، في إطار من خشب الجوز، صورة امرأة هزيلة جداً، ترتدي ثوباً أسود، وتضع قلنسوة سوداء أيضاً. ولما كنت لا أعرف وضع دستويفسكي العائلي فقد خطر لي أنها زوجته.

وبين النافذتين كانت تقوم مرآة كبيرة في إطار أسود، ولما كان الجدار أكثر عرضاً من المرآة، فقد كانت الأخيرة أقرب إلى النافذة اليمنى، فكان المنظر قبيحاً جداً. أما النافذتان فكانتا مزدانتين بآنيتين صينيتين لهما شكل غاية في الروعة. وفي محاذاة الجدار كانت تقوم أريكة كبيرة من (السختيان) الأخضر، وإلى جوارها طاولة صغيرة عليها إبريق ماء. وفي الجهة المقابلة المكتب الذي أصبحت أجلس خلفه فيما بعد، حينما كان فيدور

ميخائيلوفيتش يملي علي. كان أثاث غرفة المكتب أكثر سذاجة من أي نوع من الأثاث الذي سبق لي أن رأيته في بيوت الأسر غير الموسرة.

جلست، ورحت أصيخ السمع. وخيل إلي أنني لن ألبث أن أسمع صراخ الأطفال، أو قرع طبول الصغار، أو أن يفتح الباب، وتدخل المكتب تلك المرأة النحيلة، التي رأيت رسْمها منذ لحظات.

ولكن ها هو فيدور ميخائيلوفيتش يدخل، ويسألني، بعد أن اعتذر عن تأخره:

ـــ هل تمارسين الاختزال منذ عهد قريب؟

ـــ منذ نصف عام فقط.

ـــ هل لدى مَعلمكم الكثير من التلاميذ؟

ـــ في البداية سجل أكثر من مئة وخمسين راغباً، ولكن لم يبق الآن إلا نحو خمسة وعشرين.

ـــ وأين الباقي؟

ـــ الكثيرون كانوا يعتقدون أن تعلم الاختزال في غاية السهولة، وحين اكتشفوا أن عدة أيام لا تفيد شيئاً تركوا الدراسة.

وقال فيدور ميخائيلوفيتش: هذا يحدث عندنا في كل عمل جديد، في

البداية يندفعون بحرارة، ولكنهم لا يلبثون أن تفتر هممهم ويتخلوا عن ذلك، فهم يرون أن ذلك يتطلب العمل، ومن يشعر الآن بالرغبة في العمل؟

للوهلة الأولى بدا لي دستويفسكي كهلاً، ولكن لم يكد يبدأ الحديث حتى أصبح أقل عمراً، وخيل إلي أن عمره لا يزيد عن خمسة وثلاثين إلى سبعة وثلاثين عاماً، كان متوسط القامة مستقيمها، وكان شعره الكستنائي الفاتح، لا بل والمائل إلى الشقرة، معطراً بشكل قوي، ومصففاً بكل عناية. ولكن ما أثار دهشتي هو عيناه، فقد كانتا مختلفتين، إحداهما بلون بني فاتح، بينما البؤبؤ في الأخرى يتسع فيشمل العين كلها، فلا تظهر القزحية.

وقد أعطت هذه الازدواجية العينية نظرة دستويفسكي تعبيراً غامضاً، وبدا لي وجهه الكئيب المريض مألوفاً جداً. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه سبق لي أن رأيت رسمَ دستويفسكي، كان يرتدي سترة من الجوخ ذات لون أزرق، قديمة، ولكن القبة والأكمام في بياض الثلج.

بعد خمس دقائق دخلت الخادمة تحمل كأسين من الشاي الثقيل، الأسود تقريباً، وعلى الصينية كان ثمة رغيفان من الخبز. أخذت الكأس، لم أكن أرغب في تناول الشاي، سيما والجو في الغرفة حار، ولكي لا أبدو رسمية بدأت أرتشف الشاي. كنت جالسة لدى الجدار في مواجهة طاولة صغيرة، أما دستويفسكي فكان تارة يجلس وراء مكتبة، وأخرى يتمشى في الغرفة وهو يدخِّن، وغالباً ما كان يطفىء سيجارة ويدخِّن أخرى، حتى إنه قدم لي واحدة، ولكنني رفضت.

ــ لعلك ترفضين تأدباً؟ سألني.

فأسرعت أؤكد له أن الأمر لا يقتصر على أنني لا أدخن، بل ولا أحب أن أرى النساء يدخنَّ.

كان الحديث متقطعاً، وكان دستويفسكي لا يكف ينتقل من موضوع إلى آخر، كان شكله محطماً ومريضاً، ومنذ الجمل الأولى تقريباً أخبرني أنه يعاني من الصرع، وأنه أصيب بنوبة منذ أيام، وقد أثارت هذه الصراحة دهشتي. وعن العمل المقبل كان حديث دستويفسكي غير محدد:

ــ سنرى كيف نقوم بذلك، سنجرب، سنرى، هل هذا ممكن؟

بدأت ثقتي بإمكانية العمل مع دستويفسكي تتزعزع، حتى لقد خيل إلي أنه غير واثق بإمكانية مثل هذا الأسلوب في العمل وجدواه، وأنه قد يكون عازماً على الرفض. فقلت له لأسهل عليه اتخاذ القرار:

ــ حسن، سنجرب، ولكن إذا كان العمل معي غير مريح فقل لي ذلك بصراحة، وكن على ثقة بأنني لن أعترض إذا ألغي العمل.

أراد دستويفسكي أن يملي علي مقتطفات من (البشير الروسي) وطلب مني ترجمة الاختزال إلى الكتابة العادية، بدأ بسرعة فائقة، ولكنني أوقفته، وطلبت منه الإملاء بسرعة لا تتجاوز سرعة الحديث العادي.

•

ومن ثم بدأت ترجمة الكتابة المختزلة إلى العادية، وقد أنجزت ذلك بسرعة

كبيرة ، ولكن دستويفسكي ظل يستعجلني ، ويعرب عن استيائه من كتابتي البطيئة .

فقلت له مطمئنة : سأعيد كتابة ما تمليه في البيت ، وليس هنا ، أليس سيان عندك كم من الوقت يستغرق عملي؟

بعد تصفح ما نسخت اكتشف أنني نسيت نقطة وكتبت حرف التثقيل بشكل غير واضح ، فوجه لي ملاحظة حادة . على الأرجح أنه كان مضطرباً ، وعاجزاً عن جمع أفكاره . فتارة كان يسألني عن اسمي ، وللحال ينسى ، وتارة يقطع الغرفة جيئة وذهاباً . أمضى فترة طويلة في التطواف ، وكأنه نسي وجودي . أما أنا فكنت جالسة لا أقوم بأدنى حركة ، مخافة أن أقطع حبل تفكيره .

أخيراً أعلن دستويفسكي أنه غير قادر الآن على الإملاء إطلاقاً ، وسأل عما إذا كنت قادرة على القدوم إليه في الثامنة من مساء اليوم نفسه ، حيث سيبدأ إملاء روايته ، كان قدومي للمرة الثانية غير مناسب لي ، ولما كنت غير راغبة في تأجيل العمل ، فقد وافقت .

وقال دستويفسكي مودعاً :

ــ لقد سرني أن أولخين اقترح علي إرسال فتاة ، وليس شاباً ، هل تعرفين السبب؟

ــ ما هو ؟

ــ لأن الرجل كان سيشرب على الأرجح، أما أنت فآمل أنك لن تشربي.

شعرت برغبة عارمة في الضحك، ولكنني كتمت ابتسامتي، وأجبته بلهجة جدية:

ــ بالنسبة لي لن أشرب على الأرجح، بوسعك أن تثق بكلامي هذا.

خرجت من لدن دستويفسكي وأنا في غاية الكآبة. فلم يحظ بإعجابي، وترك لديّ انطباعاً ثقيلاً. ورحت أفكر باستحالة الانسجام في العمل معه، وأصبحت آمالي وأحلامي حول الاستقلال مهددة بأن تذروها الرياح... ومما زاد في ألمي أن والدتي الطيبة كانت البارحة في منتهى الابتهاج ببدء نشاطي الجديد.

كانت الساعة تقارب الثانية حين غادرت دستويفسكي. كانت المسافة إلى البيت بعيدة جداً: فقد كنت أقطن غير بعيد عن سمولني، في شارع كوسترومسكيا، في منزل والدتي آنا نيقولايفنا سنيتكينا، فقررت الذهاب إلى بعض أقاربنا، في جادة فاناريني، حيث أتناول طعام الغداء لديهم، وفي المساء أعود إلى دستويفسكي.

أولى أقربائي اهتماماً كبيراً بدستويفسكي، وراحوا يسألونني عنه بالتفصيل. مر الوقت سريعاً وفي الثامنة مساء وصلت منزل ألونكين، وسألت الخادمة، التي فتحت لي الباب، عن اسم سيدها، فمن خلال مؤلفاته كنت أعرف أن اسمه فيدور، أما اسم أبيه فلم أكن أعرفه. ومن جديد طلبت مني

فيدوسيا (اسم الخادمة) أن أنتظر في غرفة المائدة. ثم ذهبت تعلن عن قدومي. ولم تلبث أن عادت، ودعتني إلى غرفة المكتب. ألقيت التحية على فيدور ميخائيلوفيتش، وجلست في مكاني المعهود قرب الطاولة الصغيرة. ولكن ذلك لم يعجب فيدور ميخائيلوفيتش وعرض علي أن أجلس خلف طاولة مكتبه. مؤكداً أن الكتابة عليه ستكون مريحة. وأعترف أن اقتراحه بالجلوس إلى المكتب، الذي كُتبتْ عليه منذ عهد غير بعيد روايته الرائعة (الجريمة والعقاب) أثار غروري.

انتقلت إلى هناك، بينما جلس فيدور ميخائيلوفيتش مكاني، ومن جديد عاد يسألني عن اسمي وكنيتي، وعما إذا كنت أمت بصلة القربى للكاتب الموهوب سنيتكين، الذي توفي منذ عهد قريب، وهو في ربيع عمره. فأجبته بأن لا قرابة بيننا، وكل ما في الأمر أن كنيتنا واحدة. ثم راح يستفسر عن أفراد أسرتي، وأين تعلمت، وما الذي دفعني إلى تعلم الاختزال؟ وغير ذلك من الأسئلة.

كنت أجيب على كل الأسئلة ببساطة وجدية وما يُقارب الصرامة، كما أكد لي فيدور ميخائيلوفيتش فيما بعد. منذ عهد بعيد كنت قد قررت، إذا ما اضطررت للاختزال في البيوت الخاصة، أن تكون علاقتي منذ البداية مع الأشخاص، الذين لا أعرفهم إلا قليلاً، علاقة عمل، متجنبة رفع الكلفة، كي لا يجرؤ أحد على أن يقول لي كلمة زائدة، أو يتحدث معي بدون كلفة. حتى إنني ـــ على ما أعتقد ـــ لم أبتسم مرة واحدة، وأنا أتحدث مع فيدور ميخائيلوفيتش. وقد نالت جديتي إعجابه، حيث اعترف لي فيما بعد أن

قدرتي على ضبط نفسي أثارت دهشته ، فقد اعتاد مصادفة العدميات في المجتمع ، ورؤية أسلوبهن في التعامل ، الذي كان يثير استياءه . ومما زاد في فرحه أنه صادف فيَّ مجمل التناقض لذلك الطراز من الفتيات ، الذي كان سائداً آنذاك .

وفي ذلك الوقت كانت فيدوسيا تعد الشاي في غرفة المائدة ، ثم أحضرت لنا كأسين ورغيفين وليموناً . ومن جديد عرض فيدور ميخائيلوفيتش التدخين ، وراح يقدم لي الأجاص .

وعلى مائدة الشاي اتخذ حديثنا طابعاً أكثر صراحة وودّاً ، وفجأة خيل إلي أنني أعرف دستويفسكي منذ عهد بعيد ، فشعرت بالراحة والبهجة .

ولسبب ما دار الحديث حول جمعية بيتراشيفتسي والإعدام . وحلق فيدور ميخائيلوفيتش على جناح الذكرى ، فقال :

ــ أذكر أنني كنت أقف في ساحة سيميونوف بين رفاقي المحكوم عليهم ، وكانت الإجراءات قائمة على قدم وساق ، وعرفت أنه لم يبق من حياتي سوى خمس دقائق . ولكن هذه الدقائق كانت بالنسبة لي سنوات ، عشرات السنين ، وهكذا خيل إلي أنني سأعيش طويلاً . ألبسونا قمصان الموت ، ووزعونا على صفوف ، في كل صف ثلاثة ، كان ترتيبي الثامن ، في الصف الثالث . وربطوا الثلاثة الأوائل إلى الأعمدة ، وبعد دقيقتين ــ ثلاث ينتهي الأمر بالنسبة للصفين ، ويأتي دورنا ، كم أردت أن أعيش يا إلهي ، كم شعرت بأن الحياة غالية . وتصورت مدى الأشياء الخيرة والجيدة ، التي كان يمكن أن أقوم

بها . تذكرت كل ماضيّ ، واستخدامه بالشكل غير الجيد تماماً ، وشعرت برغبة عارمة في أن أمتحن من جديد ، وأعيش طويلاً طويلاً ... وفجأة تردد صوت بوق التراجع ، فتشجّعتُ . حُلَّ وثاق رفاقي ، وأعيدوا إلى أماكنهم ، وتُلي القرار الجديد : حكم علي بأربع سنوات أشغال شاقة . كان ذلك اليوم أسعد يوم في حياتي ، فرحت أطوف زنزانتي في سجن الكسيفسكي ، وأنا أغني ، أغني بصوت عالٍ ، فقد كنت في منتهى السعادة ، لما وهبت من حياة ، ثم سمحوا لأخي بوداعي قبيل الفراق . وعشية أعياد ميلاد السيد المسيح أرسلونا في الطريق البعيد ، ولا زلت أحتفظ بالرسالة ، التي كتبتها للمرحوم أخي في يوم تلاوة الحكم ، فمنذ عهد قريب أعادها لي ابن أخي .

تركت قصة فيدور ميخائيلوفيتش انطباعاً مرعباً ، فقد اقشعر بدني . ولكن ما أثار دهشتي أيضاً ، أنه بمثل هذه الصراحة معي ، أنا الفتاة الصغيرة ، التي يراها اليوم لأول مرة في حياته . إن هذا الإنسان ، الذي يبدو كتيماً صارماً ، قد حدثني عن حياته السابقة بكل تفصيل ، بمنتهى الصراحة والود ، مما أثار دهشتي . وفيما بعد ، وبعد التعرف على وضعه العائلي ، أدركت سبب هذه الثقة والصراحة : ففي ذلك الوقت كان فيدور ميخائيلوفيتش وحيداً تماماً ، ومحاطاً بأشخاص لا يكنّون له إلا العداء والكراهية . كان يشعر بحاجة ماسة إلى أن يفتح صدره للناس ، الذين كان يرى أنهم يكنُّون له كل شعور طيب واهتمام .

كانت تلك الصراحة في اليوم الأول من تعارفنا قد أعجبتني جداً ، وتركت لدي انطباعاً رائعاً . كان حديثنا ينتقل من موضوع إلى آخر ، ولم نكن

قد بدأنا العمل بعد. وهذا ما أثار قلقي: فالوقت متأخر، وطريق العودة طويل، وكنت قد وعدت والدتي بالعودة إلى البيت من عند دستويفسكي مباشرة، وخفت أن يثير تأخري قلقها. كان يبدو لي أنه من غير اللائق أن أذكر فيدور ميخائيلوفيتش بالهدف من قدومي إليه. وكم كانت فرحتي كبيرة حين تذكره بنفسه، وعرض علي أن يبدأ إملاءه. فتحفزت للكتابة، بينما راح يقطع الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات سريعة، منحرفاً من الباب إلى المدفأة. وفي كل مرة يصل المدفأة كان ينقر عليها مرتين، وكان لا يكف عن التدخين. وغالباً ما يرمي السجائر قبل أن يأتي عليها. كان يرميها في المنفضة القائمة في طرف طاولة المكتب.

وبعد فترة وجيزة من الإملاء طلب فيدور ميخائيلوفيتش أن أتلو عليه ما كتبت، ولكنه أوقفني منذ الكلمات الأولى:

ــ تقولين (عادت من روليتينبورغ)؟ فهل تحدثت عن روليتينبورغ؟

ــ نعم يا فيدور ميخائيلوفيتش، لقد أمليت علي هذه الكلمة.

ــ مستحيل.

ــ عفواً، هل ثمة في روايتك مدينة بهذا الاسم؟

ــ نعم إن الأحداث تدور في مدينة المقامرة، وقد أطلقت عليها اسم روليتينبورغ.

ــ إذا كان كذلك فإنك قد أمليت علي هذه الكلمة دون ريب ، وإلا فمن أين لي بها ؟

ــ أنت على حق ــ اعترف فيدور ميخائيلوفيتش ــ لقد اختلط علي الأمر .

شعرت بالبهجة لأن سوء التفاهم قد انجلى . وأعتقد أن فيدور ميخائيلوفيتش كان غارقاً في أفكاره ، أو قد يكون مرهقاً ، فجاءت هذه الهفوة . والواقع أنه شعر بذلك بنفسه ، حيث قال إنه ليس قادراً على استئناف الإملاء ، ورجاني إحضار ما أملاه غداً في الثانية عشرة فوعدت بتنفيذ رغبته .

دقت الحادية عشرة فهممت بالخروج . وحين عرف أنني أعيش في (بيسكي) أخبرني أنه لم يسبق له أن زار هذا القسم من المدينة ، وليس لديه تصور عن المكان ، الذي تقع فيه بيسكي . وإذا كان ذلك بعيداً فإن بوسعه إرسال خادمته لمرافقتي . وقد رفضت بالطبع . رافقني فيدور ميخائيلوفيتش حتى الباب ، وأوعز لفيدوسيا أن تنير لي السلم .

في البيت حدثت والدتي بكل حماسة كيف كان دستويفسكي صريحاً وطيباً معي ، ولكي لا أثير حزنها كتمت ذلك الانطباع الثقيل ، الذي لم يسبق لي أن مررت به ، والذي تركه لدي هذا اليوم البالغ المتعة . كان هذا الانطباع ثقيلاً حقاً : فلأول مرة في حياتي رأيت إنساناً ذكياً ، طيباً ، ولكنه بائس ، لكأن الجميع لفظوه ، وتملكني شعور من التعاطف والشفقة .

كنت مرهقة جداً ، فآويت إلى فراشي في الحال ، بعد أن رجوت والدتي

إيقاظي باكراً، كي أتمكن من نسخ ما كتبت، وحمله إلى فيدور ميخائيلوفيتش في الوقت المحدد.

في اليوم التالي نهضت باكراً، وانكببت على العمل فوراً. لم يكن ما أملي كثيراً نسبياً، ولكنني كنت أريد أن يكون النسخ جميلاً وواضحاً. وهذا ما استغرق الكثير من الوقت، وعلى الرغم من عجلتي فقد تأخرت نصف ساعة كاملة.

وجدت فيدور ميخائيلوفيتش في غاية القلق، وقال وهو يسلم علي:

ــ بدأت أفكر أن العمل لديَّ بدا لك ثقيلاً، وأنك لن تأتي بعد الآن، علماً بأنني لم أسجل عنوانك، وقد خاطرت بضياع ما أمليته البارحة.

ــ إنني خجلة لتأخري ــ رحت أعتذر ــ ولكنني أؤكد لك أنني لو اضطررت لرفض العمل، إذن لأطلعتك على ذلك، ولأحضرت لك النسخة الأصلية.

وأوضح فيدور ميخائيلوفيتش: إن سبب قلقي يعود إلى ضرورة إنجاز هذه الرواية في الأول من تشرين الثاني، في الوقت الذي لم أضع بعد الخطوط العريضة للرواية الجديدة. كل ما أعرفه أنها يجب أن تكون لا أقل من سبع ملازم من إصدار ستيللوفسكي.

رحت أسأل عن التفاصيل، فروى لي فيدور ميخائيلوفيتش قصة المصيدة المخزية، التي اصطادوه فيها.

فعند وفاة أخيه الأكبر ميخائيل، أخذ فيدور ميخائيلوفيتش على عاتقه كل ديون مجلة (فريميا) التي كان يصدرها أخوه. كانت الديون في كمبيالات، وراح الدائنون يثيرون قلق فيدور ميخائيلوفيتش مهددين بوضع الحجز على أملاكه، وزجه في قسم الديون. وفي تلك الآونة كان ذلك ممكناً.

كانت الديون المستحقة تقارب الثلاثة آلاف، وراح فيدور ميخائيلوفيتش يبحث عن النقود في كل مكان، ولكن عبثاً. وحينما فشلت جميع المحاولات في إرضاء الدائنين، ووصل فيدور ميخائيلوفيتش مرحلة اليأس، زاره على حين فجأة الناشر ف. ت. ستيللوفسكي يحمل عرضاً بشراء حقوق نشر أعماله الكاملة في ثلاثة مجلدات، لقاء ثلاثة آلاف، والأكثر من ذلك إلزام فيدور ميخائيلوفيتش بكتابة رواية جديدة ضمن المبلغ المذكور.

كان وضع فيدور ميخائيلوفيتش حرجاً فوافق على كل شروط العقد، المهم أن يتخلص من خطر سلبه حريته.

تم عقد الاتفاق صيف عام ١٨٦٦.

وأودع ستيللوفسكي المبلغ المتفق عليه لدى الكاتب بالعدل. وفي اليوم التالي دفعت هذه النقود للدائنين. وهكذا فإن فيدور ميخائيلوفيتش لم يحصل على شيء، والأكثر ألماً أن كل هذه النقود عادت بعد عدة أيام إلى ستيللوفسكي، حيث تبين أنه قام بشراء كل كمبيالات فيدور ميخائيلوفيتش لقاء ثمن بخس وكلّف اثنين بالمطالبة بتحصيل النقود. كان ستيللوفسكي ثعلباً

ماهراً في استغلال أدبائنا وموسيقينا (بيسيمسكي، كريستوفسكي، وغلينكا).

فقد كان ماهراً في التربص للناس في اللحظات العويصة، واصطيادهم في شباكه. فمبلغ الثلاثة آلاف، لقاء حقوق النشر، كان زهيداً جداً، نظراً للنجاح الذي حققته روايات دستويفسكي. ولكن أكثر شروط العقد قسوة كان الالتزام بتسليم رواية جديدة حتى الأول من تشرين الثاني ١٨٦٦، وإذا لم يتم ذلك في الوقت المحدد دفع فيدور ميخائيلوفيتش غرامة كبيرة، أما إذا لم يسلم الرواية حتى الأول من كانون الأول من العام نفسه، فإنه يفقد حقوقه في مؤلفاته، التي كان من شأنها أن تصبح ملكاً دائماً لستيللوفسكي. وبالطبع فإن هذا ما كان يأمل به ذلك الوحش.

في عام ١٨٦٦ كان فيدور ميخائيلوفيتش منكباً على رواية (الجريمة والعقاب). وكان يريد انجازها فنياً، فكيف بوسعه، وهو الإنسان المريض، أن يكتب مثل هذا العدد من الملازم من المؤلف الجديد؟

بعد عودته من موسكو في الخريف أصيب فيدور ميخائيلوفيتش باليأس لاستحالة تنفيذ شروط العقد الموقع مع ستيللوفسكي خلال شهر ونصف ــ شهرين. وبغية انقاذه من محنته اقترح عليه أصدقاؤه ــ أ. ن. مايكوف، أ. ب. ميليوكوف، أ. غ. دولفوموستيف وغيرهم، وضع خطة الرواية. على أن يقوم كل منهم بكتابة جزء من الرواية. وسيكون بوسعهم، ثلاثتهم ــ أو أربعتهم إنجاز العمل في الوقت المحدد. بينما لا يبقى على فيدور

ميخائيلوفيتش سوى تحرير الرواية، وتسوية الخشونة الحتمية في مثل هذه الحالة. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش رفض هذا الاقتراح: فقد قرر أنه من الأفضل دفع الغرامة، أو فقدان الحقوق الأدبية على أن يضع اسمه على مؤلف غريب. وحينذاك راح أصدقاؤه ينصحونه بالاعتماد على مختزل. وقد تذكر أ. ب ميليوكوف أنه يعرف ب. م. أولخين، مدرس الاختزال، فذهب إليه، وطلب منه أن يزور فيدور ميخائيلوفيتش، الذي وافق على اللجوء إلى مساعدة المختزل، نظراً لاقتراب الموعد، على الرغم من أنه كان يشك بنجاح مثل هذا العمل.

على الرغم من قلة معرفتي بالناس آنذاك فإن تصرف ستيللوفسكي أساءني إلى حد كبير. قدم لنا الشاي، وبدأ فيدور ميخائيلوفيتش يملي علي. ويبدو أنه كان يجد صعوبة في العمل: فكان غالباً ما يتوقف، ويفكر، ويطلب قراءة ما أملي. وبعد ساعة أعلن أنه مرهق، ويريد أن يرتاح.

وكما البارحة انخرطنا في الحديث. كان فيدور ميخائيلوفيتش مضطرباً، وكان لا يكف عن التنقل من موضوع إلى آخر. ومن جديد سألني عن اسمي، بعد دقيقة، وعرض علي السيجارة مرتين، على الرغم من معرفته أنني لا أدخن.

بدأت أسأله عن كُتّابنا، فانتعش. وبدا، وهو يجيب على أسئلتي، وكأنه انصرف عن أفكاره الثقيلة. كان يتحدث بهدوء، لا بل وبمرح، ولا زلت أذكر بعض ما دار في حديثنا آنذاك.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يعتبر نيكراسوف شاعر شبابه ، ويقوّم موهبته الشعرية عالياً . وكان يحب مايكوف ، ليس كشاعرٍ موهوب فقط ، بل وكأكثر الناس ذكاء وروعة . وكان رأيه بتورغينيف أنه ذو موهبة من الدرجة الأولى ، ولكن حياته لفترة طويلة في الخارج جعلته أقل فهماً لروسيا وللروس .

استأنفنا العمل بعد استراحة قصيرة ، ومن جديد عاد فيدور ميخائيلوفيتش إلى اضطرابه ومخاوفه : كان يبدو أنه لا يستطيع العمل ، وأعتقد أن السبب في ذلك هو عدم تعوده على إملاء مؤلفه على شخص لا يعرفه إلا قليلاً .

في حوالي الرابعة هممت بالخروج ، على أن أعود غداً في الثانية عشرة ، وأجلب ما أملي علي . وقد ودعني فيدور ميخائيلوفيتش وهو يسلمني رزمة من ورق الكتابة المخطط ، الذي كان قد اعتاد الكتابة عليه ، وأشار إلى نوع الهوامش ، التي يجب أن أتركها .

هكذا بدأ عملنا واستمر . كنت أجيء إلى فيدور ميخائيلوفيتش في الثانية عشرة ، وأبقى حتى الرابعة . وخلال هذا الوقت كان يملي عليّ ثلاث مرات فأكثر ، كان يتخللها شرب الشاي ، وتبادل الحديث . ولاحظت ، بكل فرح ، أن فيدور ميخائيلوفيتش بدأ يعتاد أسلوب العمل الجديد ، ففي كل مرة كنت أجده أكثر اطمئناناً من المرة السابقة . وقد أصبح ذلك واضحاً بشكل خاص منذ أن حسبت كم تعادل صفحة ستيللوفسكي من صفحاتي ، حيث استطعت أن أحدد بدقة كمية العمل المنجز . وكانت الصفحات ، المتزايدة

باطراد، تثير الفرح والبهجة لدى فيدور ميخائيلوفيتش. فكان غالباً ما يسألني: «كم كتبنا البارحة من صفحات؟ كم أنجزنا حتى الآن؟ ما رأيك هل سننتهي في الموعد المحدد؟».

من خلال أحاديثه الودية معي كان فيدور ميخائيلوفيتش يكشف لي يومياً صوراً محزنة من حياته. فكانت الشفقة تعتصر فؤادي، وهو يحدثني عن الظروف العصيبة، التي يبدو أنه لم يتخلص منها أبداً. والتي لم يستطع التخلص منها.

في البداية بدا لي غريباً أنني لم أر أحداً من ذويه. ولم أكن أعرف ممن تتكون أسرته، وأين هي الآن. لم أصادف إلا فرداً واحداً منها، في المرة الرابعة من قدومي على ما أعتقد. فبعد إنجاز العمل، وبينما كنت أهم بالخروج من البوابة، أوقفني شاب، تعرفت فيه على ذلك الفتى، الذي رأيته في المدخل لدى زيارتي الأولى لفيدور ميخائيلوفيتش. وقد بدا لي عن قرب أكثر قبحاً منه عن بعد. فقد كان وجهه أسمر اللون، يكاد يكون أصفر، وكانت عيناه سوداوين، حتى بياضهما كان أصفر، وكانت أسنانه صفراء هي الأخرى بسبب التدخين.

ـــ ألم تعرفيني؟ ـــ سأل الشاب بوقاحة ـــ لقد رأيتك عند بُابًا، لا أرغب في الدخول وأنتما تعملان، ولكنني أشعر بالفضول لمعرفة هذا الاختزال، سيما وأنني سأبدأ تعلمه بعد أيام.

وبكل وقاحة أخذ الحقيبة من يدي، وفتحها وراح، ونحن في الشارع،

يتمعن في الأوراق المكتوبة . ولقد أربكتني هذه الوقاحة ، لدرجة أنني لم أجد للاحتجاج سبيلاً .

وقال ، وهو يعيد الحقيبة : شيء ظريف .

وخطر لي : هل يعقل أن يكون لإنسان حبيب وطيب مثل فيدور ميخائيلوفيتش مثل هذا الولد غير المهذب !

كانت معاملة فيدور ميخائيلوفيتش لي تزداد وداً وطيبة يوماً بعد يوم . وغالباً ما كان يناديني بـ « عزيزتي » (أحب الصفات لديه) و(آنا غريغوريفنا الطيبة) ، فكنت أعتبر كلماته هذه نابعة من تسامحه نحوي ، باعتباري فتاة شابة ، تكاد تكون صغيرة . وكنت أشعر بالمتعة في أن أسهل عمله ، وأرى كيف أن تأكيداتي بالعمل يجري بنجاح ، وأن الرواية ستنجز في الوقت المناسب ، تثير فرحه ، وترفع معنوياته . وكنت بيني وبين نفسي أشعر بالاعتزاز لأنني لا أكتفي بمساعدة كاتبي المحبوب في عمله ، بل وأؤثر بشكل ناجع على مزاجه . كل ذلك زاد من قيمتي في نظري .

ولم أكن أخاف (الكاتب المشهور) ، فكنت أتكلم معه بحرية وصراحة ، كما أتكلم مع قريب ، أو مع صديق قديم . وكنت أسأل فيدور ميخائيلوفيتش عن الأحداث المختلفة في حياته ، فكان يشبع فضولي بكل طيبة خاطر . فقد حدثني بالتفصيل عن أشهر السجن الثمانية ، التي أمضاها في قلعة بطرس وبولس ، وكيف كان يتبادل الحديث مع السجناء الآخرين عن طريق النقر على الجدران . كما تحدث عن حياته في سجن الأشغال الشاقة ، وعن

المجرمين ، الذين كانوا معه هناك . وراح يتذكر حياته في الخارج ، ويتحدث عن رحلاته ولقاءاته ، وعن أقربائه الموسكوفيين ، والذين كان يكن لهم كل الحب . وذات مرة أخبرني أنه كان متزوجاً ، وأن زوجته توفيت لثلاث سنوات خلون ، وأراني رسمها ، فلم تحظ بإعجابي ، وأوضح دستويفسكي أن صورة المرحومة تعود إلى فترة مرضها ، قبل عام من وفاتها ، حيث كان منظرها يكاد يكون لا حياة فيه . وحينذاك اكتشفت ، بكل ارتياح ، أن ذلك الشاب الوقح ، الذي لم ينل إعجابي ، لم يكن ابن فيدور ميخائيلوفيتش ، بل ربيبه ، ابن زوجته من زوجها الأول بالكسندر ايفانوفيتش إيسايف . وغالباً ما كان فيدور ميخائيلوفيتش يشكو من ديونه ، وإفلاسه ووضعه المادي القاسي . وفيما بعد قدر لي أن أكون شاهد عيان على مصاعبه المالية .

كانت كل قصص فيدور ميخائيلوفيتش ذات طابع كئيب ، لدرجة أنني سألت ذات مرة :

ــ لماذا لا تتذكر يا فيدور ميخائيلوفيتش سوى المصائب وحدها ؟ من الأفضل أن تحدثني عن سعادتك .

ــ سعادتي حتى الآن لا أعرف لها طعماً ، على الأقل لتلك السعادة التي أحلم بها دائماً ، إنني أنتظرها . منذ أيام كتبت لصديقي البارون فرانغيل أنني ، على الرغم من كل المصائب التي حلت بي ، ما زلت أحلم ببدء حياة سعيدة جديدة .

كان يصعب علي سماع هذا ، وكان يبدو من الغرابة بمكان أن مثل هذا

الإنسان الذكي والطيب، والذي كان في مرحلة متقدمة من العمر، لم يعثر بعد على السعادة التي ينشد، وأنه ما زال يحلم بها.

وذات مرة حدثني فيدور ميخائيلوفيتش بالتفصيل كيف خطب آنا فاسيليفنا كزرفين ـ كروكوفسكيا، وكم كان مسروراً حين وافقت هذه الفتاة الذكية، الطيبة والموهوبة على ذلك، وكم كان حزيناً حين حلها من وعدها، بعد أن أدرك أن سعادتهما مستحيلة في ظل قناعاتهما المتناقضة.

وفي ذات مرة كان فيدور ميخائيلوفيتش في مزاج قلق جداً، فأخبرني أنه الآن يقف في مفترق ثلاثة طرق: إما أن يسافر إلى الشرق، إلى القسطنطينية أو القدس، حيث قد يبقى هناك، وإما أن يسافر إلى الخارج للمقامرة بالروليت، ويغرق بكل كيانه في هذه اللعبة، التي تستحوذ عليه، وإما ـ أخيراً ـ أن يتزوج للمرة الثانية، ويبحث عن السعادة والسرور في الأسرة. وكان حل هذه المسائل، الذي كان من شأنه أن يحدث تغييراً جذرياً في حياته الصعبة، الشغل الشاغل لفيدور ميخائيلوفيتش. وإذ رأى موقفي الودي منه سألني النصيحة.

وأعترف بأن سؤاله، البالغ الثقة، أثار حيرتي، لأن رغبته في السفر إلى الشرق، ورغبته في أن يصبح مقامراً بدتا لي غير واضحتين، وكأنهما خياليتان. ولما كنت أعرف أن ثمة أسراً سعيدة بين معارفي وأقربائي، فقد نصحته بالزواج ثانية، والعثور على السعادة في جو الأسرة.

وسأل فيدور ميخائيلوفيتش: إذن أنت ترين أن بإمكاني الزواج بعد؟

وأن ثمة من يمكن أن توافق على الزواج مني ؟ ولكن أية زوجة تختارين لي : ذكية أم طيبة ؟

ــ ذكية طبعاً .

ــ كلا ، إذا كان هناك خيار فسأتزوج الطيبة ، كي تشفق علي وتحبني .

وفي سياق الحديث عن زواجه المنتظر سألني فيدور ميخائيلوفيتش ، لماذا لا أتزوج ؟ فأجبته بأن شابين يتوددان إليّ ، وأنهما كليهما رائعان ، وأكنُّ لهما كل الاحترام . ولكنني لا أشعر نحوهما بالحب ، وأنني راغبة في أن أتزوج عن حب .

وأيدني فيدور ميخائيلوفيتش بحرارة : عن حب من كل بد ، فالاحترام وحده غير كاف للزواج السعيد .

مع مرور الوقت كان فيدور ميخائيلوفيتش يزداد انجذاباً إلى العمل ، ولم يعد يملي عليّ ارتجالاً ، بل كان يعمل ليلاً ، ويملي علي من المخطوط . وفي بعض الأحيان كان يكتب كثيراً لدرجة أنني كنت أضطر للبقاء إلى ما بعد منتصف الليل بكثير وأنا منكبة ، على نسخ ما أملى ، ولكن بأية مهابة كنت أعلن في الصباح عدد الصفحات المنسوخة ، وكم كنت أشعر بالبهجة ، وأنا أرى فيدور ميخائيلوفيتش يبتسم بسعادة جواباً على تأكيداتي بأن العمل على ما يرام ، وليس ثمة شك في أنه سينجز في الوقت المحدد .

استحوذت علينا كلينا حياة أبطال الرواية الجديدة، وظهر لديَّ، كما ظهر لدى فيدور ميخائيلوفيتش، أحبة وخصوم، وقد نالت إعجابي الجدة، التي خسرت ثروتها، ومستر أستلي، واحتقرت بولينا، وبطل الرواية نفسه، الذي لم أستطع أن أغفر له تخاذله وتعلقه بالمقامرة. أما فيدور ميخائيلوفيتش فكان من أنصار (المقامر)، وذكر لي أنه عانى بنفسه الكثير من مشاعره وانطباعاته، وراح يؤكد أن بالإمكان أن يتمتع الإنسان بشخصية قوية، والبرهان على ذلك في الواقع، ومع ذلك يبقى عاجزاً عن التغلب على التعلق بالمقامرة على الروليت.

وكنت أشعر بالدهشة من جرأتي في التعبير عن رأيي بالرواية. وكانت دهشتي أكبر من ذلك التسامح، الذي كان يبديه هذا الكاتب الموهوب في الإصغاء لملاحظاتي ومحاكاتي وأنا أكاد أكون مراهقة. وخلال هذه الأسابيع الثلاثة من العمل معاً تراجعت كل اهتماماتي السابقة إلى الدرجة الثانية. وبموافقة أولخين لم أعد أتردد على محاضرات الاختزال، ونادراً ما كنت أرى معارفي، وتمحورت بكل كياني في العمل، وفي تلك الأحاديث البالغة الأهمية، التي كنا نتبادلها في فترات الاستراحة الفاصلة بين أوقات الإملاء. وبشكل لا إرادي كنت أقارن بين فيدور ميخائيلوفيتش وأولئك الشبّان، الذين كنت أصادفهم في محيطي، وكم بدت لي أحاديثهم فارغة وتافهة بالمقارنة مع الأفكار الأصيلة والجديدة دائماً لدى كاتبي المحبوب.

وكنت حين أغادره، وأنا تحت انطباع الأفكار الجديدة، الجديدة بالنسبة لي، أشعر بالسأم في البيت، وأعيش على أمل اللقاء به غداً، وبكل

أسى لاحظت أن العمل يقترب من النهاية، وأن تعارفنا سيتوقف، وكم كانت دهشتي وفرحتي كبيرتين حين عبر فيدور ميخائيلوفيتش عن هذه الفكرة التي تقض مضجعي بقوله:

ـــ هل تعرفين يا آنا غريغوريفنا بماذا أفكر؟ لقد انسجمنا معاً، وفي كل يوم نُلتقي بمودة، وقد اعتدنا الحديث بحماسة، فهل يعقل أن ينتهي ذلك كله بإنجاز الرواية؟ شيء مؤسف حقاً، ستتركين فراغاً كبيراً في حياتي. فأين يمكن أن أراك؟

فأجبت بارتباك: يقول المثل (جبل وجبل لا يلتقيان، ولكن الناس تتلاق).

ـــ ومع ذلك أين؟

ـــ في مكان ما في المجتمع، في المسرح، في حفلة...

ـــ أنت تعرفين أنني لا أذهب إلى المسارح إلا نادراً، ثم ما هذا اللقاء في مكان يصعب تبادل الحديث فيه، فلماذا لا تدعينني لزيارة أسرتك؟

ـــ أهلاً وسهلاً، سنكون في غاية السعادة، ولكنني أخشى أن نكون أنا وأمي محدثتين مملتين.

ـــ متى أستطيع القدوم؟

ـــ سنتفق على ذلك بعد إنجاز العمل، فالمهم بالنسبة لنا الآن هو إنجاز الرواية.

كان الأول من تشرين الثاني يقترب ، وهو الموعد المضروب لتسليم الرواية لستيللوفسكي . ولكن الخوف استبد بفيدور ميخائيلوفيتش من أن يرفض ستيللوفسكي استلام المخطوط بذريعة ما ، بهدف الحصول على الغرامة . ولكنني طمأنت فيدور ميخائيلوفيتش ما استطعت ، ووعدت بالسؤال عما يجب أن يفعل في حال حدوث ما لا تحمد عقباه . وفي المساء نفسه طلبت من أمي أن تذهب إلى محام نعرفه . وقد نصح المحامي بتسليم المخطوط إما إلى الكاتب بالعدل ، أو إلى مختار المحلة ، التي يقطنها ستيللوفسكي على أن يكون التسليم بتوقيع أحد المسؤولين ، وبالشيء نفسه نصحه القاضي العام فريمان (أخو زميله في المدرسة) ، الذي استشاره فيدور ميخائيلوفيتش في الموضوع .

في التاسع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) جرى آخر إملاء لنا ، لقد أنجزت رواية (المقامر) . وهكذا ففي الفترة ما بين الرابع والتاسع والعشرين من تشرين الأول كتب فيدور ميخائيلوفيتش رواية من سبع ملازم على عمودين ، من الحجم الكبير ، أي ما يعادل عشر ملازم عادية . وكان فيدور ميخائيلوفيتش في غاية السرور . وقد أخبرني أنه ، بعد أن يسلم المخطوط لستيللوفسكي بنجاح ، ينوي إقامة حفلة في المطعم ، يدعو إليها أصدقاءه (مايكوف ، ميليوكوف وغيرهما) ، وأنه يدعوني مسبقاً للمشاركة في هذه الحفلة .

وقد سألني : هل سبق لك أن ذهبت إلى المطعم؟

ــ أبداً .

ـــ هل ستأتين إلى حفلتي ؟ بودي أن أشرب بصحة مساعدتي العزيزة ، فلولا مساعدتك لما تمكنت من إنجاز الرواية في الوقت المحدد . إذن ستأتين ؟

وكان جوابي أنني سأسأل والدتي رأيها . ولكنني قررت بيني وبين نفسي أن لا أذهب ، حيث أن طبيعتي الخجول من شأنها أن تترك ظلاً من الملل على بهجة الجميع .

وفي اليوم التالي ، الثلاثين من تشرين الأول ، أحضرت لفيدور ميخائيلوفيتش ما أملاه علي البارحة . وقد استقبلني بترحيب خاص ، حتى إن الحمرة علت وجهه لدى دخولي . وكما هي العادة بدأنا إحصاء الأوراق المنسوخة ، وكم كانت فرحتنا كبيرة حين تبين أن عددها كبير ، أكبر بكثير مما كنا نتوقع . وقد أخبرني فيدور ميخائيلوفيتش أنه سيعيد قراءة الرواية اليوم ، وسيعدل فيها قليلاً ، وغداً يحملها إلى ستيللوفسكي . وللحال سلمني الخمسين روبلاً ، الأجرة المقررة ، وشد على يدي بقوة ، ثم شكرني بحرارة على تعاوني معه ..

كنت أعرف أن الثلاثين من تشرين الأول يصادف عيد ميلاد فيدور ميخائيلوفيتش ، ولذا فقد قررت التخلي عن ثوب الجوخ الأسود العادي ، وارتداء ثوب حرير ليلكي اللون ، وقد سر فيدور ميخائيلوفيتش ، الذي اعتاد رؤيتي في ثوب الحداد ، بهذه اللفتة ، وأخبرني أن اللون الليلكي يناسبني جداً ، وأنني أبدو في الثوب الطويل أطول ، وأكثر رشاقة .

كنت سعيدة بسماع إطرائه ، ولكن سعادتي تلاشت بدخول أرملة

أخيه إيميليا فيدورفنا، التي جاءت تهنئه بعيد ميلاده. وقد قدمنا فيدور ميخائيلوفيتش لبعضنا، وأوضح لزوجة أخيه أن الفضل في إنجاز الرواية في الوقت المحدد يعود لي. وبذلك فقد تلافى المصيبة، التي كادت تحدث. وعلى الرغم من هذه الكلمات فقد كانت إيميليا فيدورفنا تعاملني بجفاف واستعلاء، مما أثار دهشتي وحنقي. وقد تضايق فيدور ميخائيلوفيتش من لهجة أرملة أخيه غير الودية، فازداد طيبة مني، واحتفاء بي. ثم عرض علي مشاهدة كتاب صدر حديثاً، بينما انتحى بإيميليا فيدورفنا، جانباً، وراح يطلعها على بعض الأوراق.

دخل أبولون نيقولايفتش مايكوف، وانحنى لي محيياً، ولكن من الواضح أنه لم يتعرف علي، وقد وجه كلامه إلى فيدور ميخائيلوفيتش، فسأله عن الرواية. ويبدو أن فيدور ميخائيلوفيتش، المشغول بالحديث مع أرملة أخيه، لم يسمع السؤال، فلم يجبه بشيء، وهنا قررت أن أجاوب عنه، فأخبرته أن الرواية أنجزت منذ البارحة، وأنني أحضرت الفصل الأخير المنسوخ للتوّ، اقترب مايكوف مني بسرعة، مادّاً يده، وهو يعتذر لأنه لم يتعرف عليّ في البداية، وأوضح أن سبب ذلك يعود إلى قصر بصره، وإلى أنني كنت أبدو في الثوب الأسود أقصر قامة.

راح يسألني عن الرواية، وعن رأيي بها، فرحت أتحدث بكل سرور عن هذه الرواية العزيزة على قلبي. وقلت له إن فيها عدداً من الشخصيات الحية والناجحة (الجدة، مستر أستلي، والجنرال العاشق). تحدثنا نحو عشرين دقيقة. وقد وجدت سهولة في الحديث مع هذا الإنسان الطيب والمحبوب،

ولكن إيميليا فيدورفنا أصيبت بالدهشة ، لا بل وصدمت إلى حد ما باهتمام مايكوف بي ، ولكنها لم تغير جفاف لهجتها ، إذ كانت تعتبر ــ على ما يبدو ــ أنه لا يليق بها أن تولي اهتماماً لـ ... مختزلة .

لم يلبث مايكوف أن غادرنا ، وقد حذوت حذوه ، فلم أكن أرغب في تحمل المعاملة الصلفة من جانب إيميليا فيدورفنا . ولكن فيدور ميخائيلوفيتش راح يستميلني للبقاء ، ويحاول وسعه تخفيف وقاحة أرملة أخيه . ثم ودعني حتى الباب ، وذكرني بوعدي في دعوته لزيارتنا ، فأكدت الدعوة .

ــ متى أستطيع القدوم ؟ غداً ؟

ــ كلا ، فغداً لن أكون في البيت ، فأنا مدعوة لزيارة صديقتي .

ــ بعد غد ؟

ــ بعد غد عندي محاضرة في الاختزال ؟

ــ إذن في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ؟

ــ يوم الأربعاء ، الثاني من الشهر عندي مسرح .

ــ يا إلهي ، كل الأيام مشغولة ، هل تعرفين يا آنا غريغوريفنا ، أعتقد أنك تقولين ذلك قصداً ، بكل بساطة أنت لا ترغبين في قدومي ، قولي الحقيقة .

ــ أبداً أؤكد لك . سنكون في غاية السرور أن نراك بيننا ، تفضل في الثالث من تشرين الثاني ، يوم الخميس ، في نحو الساعة السابعة مساء .

ــ حتى الخميس؟ كم هو بعيد ، سأعاني من الملل دونك .

وبالطبع فقد أخذت هذا القول على محمل المزاح البريء .

وهكذا مرت تلك الفترة البهيجة ، وحلت الأيام الكئيبة . فخلال هذا الشهر كنت قد اعتدت الإسراع بمرح للوصول إلى العمل في الوقت المحدد ، وللقاء فيدور ميخائيلوفيتش ، وتبادل الحديث معه بحيوية ، لدرجة أن ذلك أصبح حاجة بالنسبة لي . وفقدت كل المشاغل العادية السابقة أهميتها عندي ، وبدت لي جوفاء عقيمة . حتى زيارة فيدور ميخائيلوفيتش الموعودة لم تقتصر على أنها لم تسرني ، بل كانت تعذبني . فقد كنت أدرك أنه ليس بوسع أمي الطيبة ، ولا بوسعي أنا أن نكون محدثتين لبقتين لمثل هذا الإنسان الذكي والموهوب . وإذا كانت أحاديثي حتى الآن مع فيدور ميخائيلوفيتش حيوية ونشيطة فإن السبب (كما كنت أعتقد) يكمن في أن هذه الأحاديث كانت تدور حول موضوع يهمنا كلينا . أما الآن فإنه سيأتي إلينا بصفة ضيف يجب (تسليته) . ورحت أبتكر مواضيع لأحاديثنا القادمة . وكم عانيت من فكرة أن يمحو انطباع الرحلة المرهقة إلى حينا البعيد ، والأمسية المملة من ذاكرة فيدور ميخائيلوفيتش ، وهو الإنسان المرهف الحساسية ، ذكرياته عن لقاءاتنا السابقة ، فيندم على اندفاعه وراء هذا التعارف الممل . وهكذا ففي الوقت

الذي كنت أحلم فيه برؤية فيدور ميخائيلوفيتش كنت على استعداد لأن آمل أن ينسى وعده بزيارتنا.

يوم الخميس الثالث من تشرين الثاني بدأت منذ الصباح أستعد لاستقبال فيدور ميخائيلوفيتش. ذهبت لشراء ذلك النوع من الأجاص الذي يحب، وغير ذلك من المأكولات، التي كان يقدمها لي. وطوال النهار كنت أشعر بالقلق. ولم تكد عقارب الساعة تقارب السابعة حتى وصل اضطرابي ذروته. ولكن دقت الساعة منتصف الثامنة، فالثامنة ولم يصل بعد. وبدأت أعتقد أنه عدل عن القدوم، أو أنه نسي وعده. وفي منتصف التاسعة تردد رنين الجرس المنتظر، فهرعت لاستقبال فيدور ميخائيلوفيتش وسألته:

ـ كيف تمكنت من العثور عليّ يا فيدور ميخائيلوفيتش؟

ـ حسن ـ أجاب بلهجة ودية ـ تقولين ذلك، وكأنك غير راضية لأنني عثرت عليك، علماً بأنني أبحث عنك منذ السابعة، لقد طفت الجوار، وسألت الجميع. الكل يعرف أن شارع كوستروم في المنطقة، ولكن لا أحد يعرف كيف يمكن العبور إليه، ولحسن الحظ أننا التقينا إنساناً طيباً جلس إلى جانب الحوذي، ودله على الطريق.

دخلت والدتي فسارعت إلى تقديم فيدور ميخائيلوفيتش لها، وقد قبل يدها بلباقة، وقال إنه مدين لي كثيراً لمساعدتي في العمل. أخذت والدتي تصب الشاي، بينما راح فيدور ميخائيلوفيتش يحدثني عن المخاوف التي حفّت بتسليم المخطوط لستيللوفسكي. كان توقعنا في محله، فقد حاول ستيللوفسكي

اللجوء إلى الحيلة : حيث سافر إلى الريف ، وأعلن للخادم أنه لا يعرف متى يعود ، وحينذاك ذهب فيدور ميخائيلوفيتش إلى مكتب منشورات ستيللوفسكي ، وحاول تسليم المخطوط لمدير المكتب ، ولكن هذا رفض استلامه رفضاً قاطعاً ، بحجة أن سيده لم يفوضه بذلك. وقد تأخر فيدور ميخائيلوفيتش في الوصول إلى الكاتب بالعدل ، أما في إدارة الحي فلم يكن ثمة أحد من المسؤولين في النهار ، وطلبوا منه العودة مساء ، أمضى النهار بكامله نهباً للقلق ، وفي نحو العاشرة مساء تمكن من تسليم المخطوط إلى مكتب الحي ، والحصول على وصل الاستلام من المسؤول .

بدأنا نشرب الشاي ونتجاذب أطراف الحديث بكل مرح وعفوية ، كما في الأيام الغابرة ، واضطررت إلى وضع المواضيع التي ابتكرتها جانباً . فقد ظهر الكثير من المواضيع الجديدة والمسلية ، وقد سحرت أمي بفيدور ميخائيلوفيتش ، وهي التي ارتبكت في البداية من زيارة الكاتب (المشهور) كان فيدور ميخائيلوفيتش قادراً على أن يكون جذّاباً ، وغالباً ما لاحظت ، فيما بعد ، أن الناس ، حتى ذوي الأحكام المسبقة ضده ، كانوا يقعون في شباك سحره .

أخبرني فيدور ميخائيلوفيتش أنه ينوي أن يخلد للراحة أسبوعاً ، ومن ثم ينكب على الجزء الأخير من (الجريمة والعقاب) .

ـــ أريد أن أطلب معونتك يا آنا غريغوريفنا الطيبة . كنت أشعر

بسهولة كبيرة في العمل معك، ولما كنت عازماً على الإملاء في المستقبل فأرجو أن لا ترفضي التعاون معي.

ــ بكل طيبة خاطر، غير أنني لا أعرف رأي أولخين بذلك، فقد يكون خصص عملك الجديد هذا لتلميذ آخر من تلاميذه أو لتلميذة.

ــ ولكنني اعتدت أسلوبك في العمل، وأنا راضٍ عنه تمام الرضى. وسيكون غريباً أن يرسل أولخين مختزلاً آخر، قد لا أنسجم معه. على كل حال قد تكونين أنت لا ترغبين في متابعة العمل معي؟ في هذه الحالة لن أصر طبعاً...

كان يبدو أنه غير راضٍ، فرحت أحاول طمأنته، مشيرة إلى أن أولخين لن يرفض هذا العمل الجديد. ومع ذلك فإن علي أن أسأله.

في حوالي الساعة الحادية عشرة. هم فيدور ميخائيلوفيتش بالخروج، بعد أن وعدته أن أسأل أولخين في أول محاضرة، والكتابة إليه. افترقنا بمنتهى الود، وعدت إلى غرفة المائدة وأنا في غاية السرور من حديثنا البالغ الحيوية. ولكن لم تمض عشر دقائق حتى دخلت الخادمة، وأخبرتني أن أحدهم سرق الوسادة من عربة الحوذي، الذي كان بانتظار فيدور ميخائيلوفيتش، ولم يهدأ للحوذي المسكين بال إلا بعد أن وعده فيدور ميخائيلوفيتش بأن يجزل له العطاء تعويضاً عن الوسادة المسروقة.

ولما كنت لا أزال شابة فإن هذه الحادثة أثارت قلقي إلى حد كبير: فقد تصورت أن مثل هذه الحادثة يمكن أن تؤثر على علاقة فيدور

ميخائيلوفيتش بنا، وأنه لن يرغب في زيارة مثل هذه المناطق النائية، حيث يمكن أن يتعرض للسرقة، كما سرقوا حوذيه، وقد شعرت بالأسى والحزن حين رأيت الانطباع عن هذه الأمسية السعيدة يتداعى تحت وقع مثل هذه الحادثة العادية.

وفي اليوم التالي، الذي أعقب زيارة فيدور ميخائيلوفيتش، ذهبت لزيارة أختي ماريا، وحدثتها وزوجها عن عملي لدى دستويفسكي. ولما كنت أعمل نهاراً مع فيدور ميخائيلوفيتش، وفي المساء أنكب على نسخ ما كتبت نهاراً، ولا أرى أختى إلا لماماً، فقد تراكم لدي الكثير من القصص. كانت أختي تصغي باهتمام، ولا تكف تقاطعني وتسألني عن كل شيء بالتفصيل، وقالت لي، وهي تودعني:

ـ عبثاً تتولعين بدستويفسكي هكذا، فأحلامك لا يمكن أن تتحول إلى واقع، والحمد لله أنها لا يمكن أن تتحول، ما دام أنه مريض، ومثقل بأسرته وديونه.

وبكل حرارة أنكرت أن أكون (مولعة) بدستويفسكي، وأن أكون (أحلم) بأي شيء، وكل ما في الأمر أنني كنت سعيدة بالحديث مع مثل هذا الإنسان العالم والموهوب، وأنني ممتنة له طيبته الدائمة معي واهتمامه بي.

بيد أن كلمات أختي حيرتني، فلم أكد أعود إلى البيت حتى رحت أتساءل:

هل يعقل أن تكون أختي على حق، وأنني (مولعة) بفيدور

ميخائيلوفيتش فعلاً؟ هل هذه حقاً بداية الحب الذي كنت أجهله حتى اليوم؟ يا له من حلم مجنون. فهل هذا معقول؟ وإذا كانت بداية الحب فعلاً فماذا أفعل؟ هل أرفض العمل المقترح بذريعة، ولا أراه بعد الآن، ولا أفكر به، وأحاول أن أنساه شيئاً فشيئاً، وأنكبُّ على عمل ما لاستعادة هدوئي الروحي السابق، الذي كنت أعتز به دائماً؟ ولكن قد تكون أختي على خطأ، وليس ثمة من خطر يتهدد قلبي. وبالتالي فلماذا أحرم نفسي عملَ الاختزال، الذي طالما علقت عليه آمالي، ومن تلك الأحاديث الودية والممتعة التي يقترن بها هذا العمل؟

أضف إلى ذلك أنني كنت أشعر بالأسف أن أترك فيدور ميخائيلوفيتش دون مساعدة في الاختزال ما دام أنه تكيف معها، سيما وأنني لم أكن أعرف بين تلاميذ أولخين (باستثناء اثنين يعملان بشكل دائم) من يمكن أن يحل محلي تماماً. سواء من حيث السرعة في الكتابة، أو العناية بالنسخ؟

كل هذه الأفكار خطرت في رأسي فتملكني الخوف.

وحل يوم الأحد السادس من تشرين الثاني. وفي ذلك اليوم قررت زيارة والدتي بالعماد لأهنئها بعيد شفيعها. ولم تكن صلتنا حميمة، فكانت زياراتي لها تقتصر على المناسبات. وكان من المنتظر أن يكون ضيوفها اليوم كثيرين، واعتقدت أن ذلك سيضع حداً للمزاج الثقيل الذي لم يفارقني منذ أيام، كانت تعيش في مكان بعيد، بالقرب من جسر ألارتشين، فقررت أن أذهب إليها قبل حلول الظلام. أرسلت في طلب الحوذي، ثم جلست أعزف على

البيانو، فلم أسمع جرس الباب. ولفت انتباهي وقع خطاً، فالتفت، وكم كانت دهشتي وفرحتي كبيرتين حين رأيت أن الداخل هو فيدور ميخائيلوفيتش. كانت تبدو عليه علائم الارتباك والخجل، فنهضت لاستقباله.

وقال فيدور ميخائيلوفيتش، وهو يشد على يدي بقوة:

ــ هل تعرفين ماذا فعلت يا آنا غريغوريفنا؟ كل الأيام السابقة عانيت من الشوق، واليوم استبدت بي منذ الصباح فكرة زيارتكم، ورحت أفكر: هل سيكون ذلك لائقاً؟ ألن تبدو لك ولأمك غريبة هذه الزيارة العاجلة؟ الخميس كان هنا، وها هو يعود يوم الأحد، فقررت أن لا أزوركم مطلقاً، ولكن ها أنا جئت كما ترين.

ــ أبداً يا فيدور ميخائيلوفيتش سأكون وأمي سعيدتين دائماً أن نراك في منزلنا.

وعلى الرغم من تأكيداتي فإن حديثنا لم ينسجم، ولم أستطع التغلب على مزاجي القلق. واقتصرت على الإجابة عن أسئلة فيدور ميخائيلوفيتش دون أن أسأله شيئاً تقريباً. وكان ثمة سبب خارجي لارتباكي. فلم نكن بعد قد دفأنا القاعة الكبيرة، التي كنت جالسة فيها، وكانت باردة جداً، وقد لاحظ ذلك فيدور ميخائيلوفيتش:

ــ يا للبرد عندكم، ولم أنت باردة اليوم؟ وإذ رآني في ثوبي الحريري الرمادي الفاتح سألني عن وجهتي، ولم يكد يعرف أنني أنوي الذهاب إلى والدتي بالعماد حتى أعلن أنه لا ينوي تأخيري، وعرض علي أن أشاطره عربته،

لأن طريقنا واحد. وافقت وانطلقنا. وفي أحد المنعطفات حاول فيدور ميخائيلوفيتش إسنادي من خصري، ولكنني كنت، كأية فتاة من جيل الستينيات، لا أحب كل علائم الاهتمام من نوع تقبيل الأيدي، وإسناد النساء من خصورهن وغير ذلك، فقلت له:

ـــ لا تقلق من فضلك، فلن أقع.

وأعتقد أن فيدور ميخائيلوفيتش غضب وقال:

ـــ كم أتمنى لو وقعت من العربة الآن.

وذاب الجليد بيننا، وأمضينا بقية الطريق في الثرثرة المرحة وتلاشى مزاجي الحزين. وعند الوداع شد فيدور ميخائيلوفيتش على يدي بقوة، وأخذ مني وعداً بزيارته بعد يوم، للاتفاق على العمل في (الجريمة والعقاب).

كان الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) واحداً من أكثر الأيام روعة في حياتي: ففي ذلك اليوم قال لي فيدور ميخائيلوفيتش إنه يحبني، وطلب مني أن أكون زوجته. وعلى الرغم من مرور نصف قرن على ذلك اليوم فإن تفاصيله لا تزال ماثلة في ذاكرتي كأنها حدثت البارحة.

كان يوماً صقيعياً مشرقاً، وقد ذهبت إلى فيدور ميخائيلوفيتش سيراً على قدميّ، فتأخرت نصف ساعة عن الموعد المضروب. وكان يبدو أن فيدور ميخائيلوفيتش ينتظرني منذ فترة طويلة، إذ لم يكد يسمع صوتي حتى خرج إلى المدخل.

ـــ أخيراً أتيتِ، قال بفرح، وراح يساعدني في حل القلنسوة ونزع المعطف، ودخلنا غرفة المكتب سوية، وفي هذه المرة كانت الغرفة مشرقة، ولدهشتي لاحظت أن ثمة ما يثير قلق فيدور ميخائيلوفيتش.

كان تعبير وجهه متوتراً ويكاد يكون مبتهجاً مما جعله فتياً جداً.

ـــ كم أنا سعيد بقدومك، كم خفت أن تنسي وعدك.

ـــ ولماذا خطر لك ذلك؟ ما دمت قد أعطيت كلمة فسألتزم بها.

ـــ عفواً، إنني أعرف أنك مخلصة دائماً لوعدك، إنني سعيد أن أراك من جديد.

ـــ وأنا مسرورة برؤيتك يا فيدور ميخائيلوفيتش خاصة وأنك في هذا المزاج المرح. فهل حدث ما أثار سرورك؟

ـــ نعم ففي هذه الليلة رأيت حلماً رائعاً.

ـــ هل هذا كل شيء؟ ثم ضحكت.

ـــ لا تضحكي من فضلك. فأنا أولي الأحلام أهمية كبيرة. وأحلامي صادقة دائماً، فحينما أرى المرحوم أخي ميشا، وخاصة حينما أرى والدي في الحلم، أعرف أن ثمة مصيبة في الأبواب.

ـــ ارو لي حلمك إذن.

ـــ هل ترين هذا الدرج الكبير المصنوع من خشب الورد؟ إنه هدية

من صديقي السيبيري تشوكان واليخانوف، وهو غال علي جداً. ففيه أحفظ مخطوطاتي ورسائلي والأشياء العزيزة على ذاكرتي، رأيت فيما يرى النائم أنني جالس أمام هذا الدرج أقلب في الأوراق، وفجأة لمع بينها نجم ساطع، وبينما بقيت أقلب الأوراق ظل هذا النجم يظهر تارة، ويختفي أخرى، مما أثار اهتمامي، فرحت أرتب الأوراق ببطء، فعثرت بينها على قطعة صغيرة من الماس، ولكنها ذات بريق ساطع.

ـــ ماذا فعلت بها؟

ـــ المصيبة أنني لا أذكر، فقد رأيت أحلاماً أخرى، ولا أعرف ماذا حل بالماسة، ولكنه كان حلماً جيداً.

ـــ أعتقد أن الأحلام تعطي تفسيراً معكوساً، وللحال ندمت على كلامي، فقد تغير وجه فيدور ميخائيلوفيتش بسرعة، وأصبح كئيباً: إذن أنت تعتقدين أنه لن يحدث أي شيء سعيد في حياتي؟ وأن ذلك مجرد أمل عقيم ـــ تساءل بأسى.

فأجبته: إنني لا أجيد تفسير الأحلام، ثم إنني لا أصدقها بتاتاً.

شعرت بالأسف على فيدور ميخائيلوفيتش لفقدانه مزاجه الرائق، فرحت أحاول أن أعيده إلى مرحه. وبصدد سؤاله حول الأحلام، التي أراها رحت أرويها في قالب فكاهي.

ـــ غالباً ما أرى في الحلم مديرة المدرسة، التي كانت لا تكف عن

تقريعي لسبب ما ، كما أرى القط الأشقر ، الذي قفز ناحيتي من على سياج حديقتنا ، مما أثار هلعي .

ــ آه يا صغيرتي ، يا صغيرتي ــ كرر فيدور ميخائيلوفيتش وهـو يضحك وينظر إلي بحنان ، يا لها من أحلام : حسن ، وهل استمتعت بالوقت في عيد أملك بالعماد ؟

ــ جداً ، فبعد الغداء جلس الكبار يلعبون الورق ، أما نحن الشبيبة فقد اجتمعنا في مكتب رب البيت ، وأمضينا الأمسية كلها في الأحاديث المرحة ، وكان هناك طالبان ظريفان مرحان .

ومن جديد علت الكآبة وجه فيدور ميخائيلوفيتش ، وقد أدهشتني السرعة الفائقة ، التي تغير بها مزاج فيدور ميخائيلوفيتش هذه المرة . ولما كنت أجهل أعراض الصرع فقد تساءلت عما إذا كان هذا التغيير في المزاج نذير شؤم بقرب حدوث النوبة ، فأسقط في يدي ...

جرت العادة ، حينما كنت أجيء للاختـزال ، أن يحدثنـي فيـدور ميخائيلوفيتش عمّا فعل ، وأين كان في تلك الساعات التي لم نكن نرى بعضنا فيها ، وهكذا فقد سارعت أسأله عما كان يشغله في الأيام الأخيرة .

فأجاب : أبتكر رواية جديدة .

ــ ماذا تقول ؟ وهل هي ممتعة ؟

ــ بالنسبة لي ممتعة جداً ، ولكنني لا أستطيع وضع خاتمة لها . فقد

أعاقتني نفسية فتاة شابة، ولو كنت في موسكو إذن لسألت ابنة أختي سونيتشكا، ولكنني أطلب المعونة منك.

وبكل اعتزاز تهيأت لـ (مساعدة) الكاتب الموهوب.

ــ من هو بطل روايتك.

ــ فنان، إنسان لم يعد شاباً، وبعبارة مختصرة في مثل عمري.

فرجوته، وقد شدتني الرواية الجديدة: حدثني، حدثني من فضلك.

ونزولاً عند رغبتي سرد علي ما ابتكر ببراعة. ولم يصدف أن سمعت قبل ذلك أو بعده من فيدور ميخائيلوفيتش مثل هذه القصة الملهمة. وكلما تمادى في سرده ازددت قناعة أن فيدور ميخائيلوفيتش يروي قصة حياته، بأسماء وظروف أخرى. وقد تضمنت كل ما سبق أن ذكره لي لماماً وتلميحاً، أما الآن فقد كشفت لي هذه القصة المفصلة الكثير مما خفي علي في علاقاته مع زوجته وذويه.

كانت الرواية الجديدة تتضمن الطفولة القاسية، ووفاة الأب المحبوب في وقت مبكر، وبعض الظروف المفجعة (المرض العضال)، التي أجبرت الفنان على الانفصال عن الحياة وفنه المحبوب، على مدى عشر سنوات، كما تضمنت العودة إلى الحياة (شفاء الفنان) واللقاء بامرأة أحبها: العذاب الذي جره عليه هذا الحب، وموت زوجته والمقربين منه (أخته المحبوبة) الفقر والديون...

كانت حالة البطل الروحية، وحدته، خيبة أمله في المقربين منه،

التعطش للحياة الجديدة، الحاجة إلى الحب، والرغبة الجامحة في العثور على السعادة من جديد، كل ذلك رسم بحيوية وموهبة، مما يوحي بأن الكاتب مرَّ بها، ولم تكن من بنات أفكاره.

وفي رسم بطله لم يضن فيدور ميخائيلوفيتش بالألوان الداكنة. فهو إنسان شاخ قبل الأوان، مصاب بمرض لا أمل من شفائه (يده مصابة بالشلل)، كئيب، كثير الشك، صحيح أنه ذو قلب حنون، ولكنه لا يجيد التعبير عن أحاسيسه.

قد يكون هذا الفنان موهوباً، ولكنه غير محظوظ، حيث لم يتمكن مرة واحدة في حياته من تجسيد أفكاره في تلك الأشكال التي كان يحلم بها، وهذا ما كان يعذبه باستمرار.

وإذ تعرفت في بطل الرواية على فيدور ميخائيلوفيتش نفسه لم أستطع كبح مقاطعتي له:

ـــ ولكن لماذا تجنيت على بطلك هكذا؟

ـــ أرى أنه لا يعجبك.

ـــ على العكس، إنه في غاية اللطف، فلديه قلب رائع، فَكِّرْ كم لقي من المآسي، وكيف تحملها دون تأفف. لو أن إنساناً آخر عانى من ذلك كله في حياته إذن لأصبح قاسي القلب، بينما بطلك لا يزال يحب الناس ويندفع لمساعدتهم، إنك غير عادل بالنسبة له مطلقاً.

ــ نعم موافق أن له قلباً طيباً ومحباً فعلاً ، وكم أنا سعيد أنك تفهمينه .

وتابع فيدور ميخائيلوفيتش قصته :

ــ وفي هذه المرحلة الحاسمة من حياته يلتقي الفنان في طريقه بفتاة شابة في عمرك ، أو أكبر بعام أو اثنين ، ولنسمها آنا ، فهذا الاسم جميل ..

رسخت هذه الكلمات قناعتي بأنه يقصد آنا فاسيليفنا كورفين ــ كروكوفسكيا ، خطيبته السابقة ، وفي تلك اللحظة نسيت تماماً أن اسمي آنا ، فلم أكن أعتقد أن هذه القصة تمت لي بصلة . وخيل إلي أن موضوع الرواية ظهر لدى فيدور ميخائيلوفيتش عقب استلامه رسالة من آنا فاسيليفنا منذ عهد قريب من الخارج ، وكان قد ذكر لي ذلك منذ أيام .

وكانت صورة البطلة مرسومة بألوان أخرى ، غير الألوان التي رسمت بها صورة البطل ، حيث تبدو وديعة ، ذكية ، طيبة ، مرحة ، وذات ذوق رفيع في التعامل مع الناس . ولما كنت في تلك السنوات أولي اهتماماً كبيراً للجمال النسائي فلم أتمالك نفسي عن السؤال :

ــ وهل بطلتك جميلة ؟

ــ صحيح أنها ليست ملكة جمال ، ولكنها ليست بالقبيحة ، إنني أحب وجهها . وخيل إلي أن فيدور ميخائيلوفيتش ارتكب زلة لسان ، فانقبض فؤادي ، وسيطر علي شعور قبيح تجاه كورفين ــ كروكوفسكيا ، فقلت له :

ــ لكنك يا فيدور ميخائيلوفيتش تبالغ في مثالية (آنا) فهل هي كذلك فعلاً؟

ــ هكذا تماماً. لقد درستها جيداً، كان الفنان يلتقيها في الجمعيات الفنية، وكلما ازدادت رؤيته لها ازداد إعجابه بها، وترسخت قناعته بأنه يمكن أن يعثر وإياها على السعادة. ولكن هذا الحلم بدا له شبه مستحيل، وبالفعل فماذا يستطيع، وهو الإنسان العجوز والمريض، المثقل بالديون، أن يعطي لهذه الفتاة المعافاة، الشابة والمرحة؟ ألن يكون حبها للفنان تضحية مخيفة من جانب هذه الفتاة الشابة؟ ألن تعضَّ أصابعها ندماً لأنها ربطت مصيرها به؟ وبشكل عام هل يعقل أن تقع مثل هذه الفتاة في غرام فنَّاني هذا على الرغم من مثل هذا الفارق في الشخصية والسن؟

ألن يكون ذلك خطأً نفسياً؟ هذا بالذات ما أردت أن أعرف رأيك بصدده يا آنا غريغوريفنا.

ــ ولماذا تعتبر ذلك مستحيلاً؟ فإذا لم تكن آنَاك، كما تقول، دلوعة جوفاء، بل ذات قلب جيد وعطوف، فما يمنعها أن تحب فنانك؟ وماذا في كونه مريضاً وفقيراً؟ فهل يعقل أن يكون الحب فقط من أجل المظهر والثروة؟ وأي تضحية من جانبها؟ فإذا كانت تحبه فإنها ستكون سعيدة، ولن تعرف الندم أبداً.

كنت أتحدث بحرارة، وكان فيدور ميخائيلوفيتش ينظر إلي بقلق.

ــ وهل أنت واثقة من أنها يمكن أن تحبه مدى الحياة؟

وسكت وكأنه متردد، ثم قال بصوت مرتجف:

ــ تصوري نفسك ــ للحظة ــ في مكانها، تصوري أن هذا الفنان هو أنا، وأنني كاشفتك بحبي، وطلبت أن تكوني زوجتي، فماذا كان من شأنك أن تجيبي؟

كان وجه فيدور ميخائيلوفيتش ينضح بالحياء، ويمور بالعذاب لدرجة أنني أدركت أخيراً أن ما يدور ليس حديثاً أدبياً عادياً، وأن جواب التهرب يمكن أن يوجه ضربة رهيبة لعزة نفسه وكرامته. نظرت إلى وجهه المضطرب والغالي عليّ وقلت:

ــ إذن لأجبتك بأنني أحبك وسأحبك مدى حياتي.

لن أنقل تلك الكلمات المفعمة بالحب، التي قالها لي فيدور ميخائيلوفيتش في تلك اللحظات التي لا تنسى: فهي مقدسة بالنسبة لي..

كنت في منتهى الدهشة، وأكاد أنوء تحت ثقل هذه السعادة الهائلة، وبقيت فترة طويلة عاجزة عن تصديقها. وأذكر أنه حينما راح فيدور ميخائيلوفيتش بعد ساعة يحدثني بمشاريع مستقبلنا، ويسألني رأيي، كان جوابي له:

ــ وهل أستطيع الآن مناقشة شيء؟ فأنا في ذروة السعادة.

ولما كنا لا نعرف كيف ستتطور الأمور، ومتى يمكن أن نتزوج فقد قررنا الاحتفاظ بذلك سراً، إلا عن والدتي. وقد وعد فيدور ميخائيلوفيتش

بزيارتنا غداً، حيث سيبقى المساء بكامله، وقال أنه سينتظر لقاءنا بفارغ الصبر.

ودعني حتى المدخل ثم ربط قلنسوتي بكل عناية، وكنت على وشك الخروج حين استوقفني فيدور ميخائيلوفيتش بقوله:

ــ آنا غريغوريفنا، إنني أعرف الآن مكان الماسة.

ــ هل يعقل أنك تذكرت الحلم؟

ــ كلا لم أتذكر الحلم، ولكنني عثرت عليها أخيراً وأنوي الحفاظ عليها مدى الحياة.

وقلت ضاحكة: أنت مخطىء يا فيدور ميخائيلوفيتش، فلم تعثر على ماسة، بل على حجر عادي.

ــ كلا، إنني على ثقة تامة بأنني لست على خطأ هذه المرة. قال لي فيدور ميخائيلوفيتش جاداً، وهو يودعني.

في طريق عودتي من عند فيدور ميخائيلوفيتش كنت في منتهى السعادة. وأذكر أنني كنت لا أكف أتساءل بصوت عال متجاهلة المارة:

ــ يا إلهي ما هذه السعادة! هل يعقل أن هذا حقيقة؟ أو ليس حلماً؟ هل يعقل أن يصبح زوجي؟

أعادتني ضجة الشارع إلى الواقع قليلاً. وتذكرت أنني مدعوة لتناول الغداء عند أقربائي بمناسبة عيد ميلاد ابن عمي، فعرجت على الفرن لشراء

كعكة الميلاد. وكانت نفسي مفعمة بالحبور والبهجة، فقد كان كل شيء يبدو جميلاً ورائعاً. وكنت أود أن أقول للجميع أي شيء مفرح، ولم أتمالك نفسي فقلت لبائعة الكعك وهي فتاة ألمانية: يا لوجهك كم هو جميل، ويا لتسريحة شعرك كم هي رائعة!

كان بيت أقربائي عامراً بالضيوف، ولكن أمي لم تكن موجودة، على الرغم من وعدها بالقدوم، وقد أثار ذلك حزني، فقد كنت أشعر برغبة عارمة في أن أزف لها هذا النبأ السار بأسرع ما يمكن.

كان جو المرح يخيم على الجميع، ولكن سلوكي كان في منتهى الغرابة: تارة أضحك لكل شيء، وتارة أستغرق في التفكير، ولا أسمع ما يقال لي، وأخرى أجاوب كيفما اتفق، حتى إنني خاطبت أحد الأسياد باسم فيدور ميخائيلوفيتش، وقد راحوا يهزؤون مني.

أخيراً وصلت والدتي الطيبة. فاندفعت لاستقبالها في المدخل، وعانقتها وهمست في أذنها:

ـ هنئيني فأنا عروس.

ولم أستطع أن أضيف شيئاً، لأن أصحاب البيت جاؤوا لاستقبال أمي. وأذكر أن أمي ظلت طيلة الأمسية تلتفت ناحيتي متفحصة. دون أن تدري على من وقع اختياري زوجاً من بين الحاضرين. وفي طريق العودة إلى البيت فقط تمكنت من أن أوضح لها أنني سأكون زوجة دستويفسكي. ولست أدري ما إذا كانت قد سرت بهذا النبأ. وأعتقد أنها لم تكن مسرورة،

لقد استطاعت ، وهي المرأة المحنكة ، التي عركتها الحياة طويلاً ، أن ترى مسبقاً أنني سأعاني الكثير من المحن والمصائب في هذا الزواج ، سواء بسبب المرض الرهيب ، الذي يعاني منه زوج المستقبل ، أو بسبب ضيق ذات اليد . ولكنها لم تحاول صرفي عن ذلك (كما حاول البعض فيما بعد) . وأنا ممتنة لها على ذلك . ثم من كان يستطيع ثنيي عن عزمي وإقناعي برفض هذه السعادة العظيمة التي تبين فيما بعد ، على الرغم من الجوانب العديدة القاسية في حياتنا المشتركة ، (مرض زوجي والديون) أنها سعادة حقيقية فعلية بالنسبة لنا كلينا .

تطاول اليوم التالي ، التاسع من تشرين الثاني ، حتى حسبته ليس بمنتهٍ ، ولم أستطع أن أشغل نفسي بشيء . ورحت أتذكر تفاصيل حديثنا البارحة ، حتى إنني سجلتها في دفتر الاختزال .

جاء فيدور ميخائيلوفيتش في منتصف السابعة ، وبدأ بالاعتذار لقدومه قبل نصف ساعة من الموعد المضروب :

ــ لم أستطع التحمل أكثر ، كنت أشعر برغبة لا تقاوم في أن أراك بأسرع ما يمكن .

أجبته وأنا أبتسم : لم أفعل شيئاً طوال اليوم ، كنت لا أكفُّ عن التفكير بك ، وأنا في غاية السعادة بقدومك .

وللحال لاحظ فيدور ميخائيلوفيتش أنني أرتدي ثوباً فاتحاً .

ــ طيلة الطريق إليك كان يلح علي السؤال : هل ستنزعين الحداد ، أم ستظلين ترتدين الثوب الأسود . وها أنت ترتدين الثوب الوردي .

ــ وهل يمكن أن يكون إلا هكذا ؟ إن روحي مفعمة بالبهجة ، طبعاً سأبقى أرتدي الحداد أمام الناس إلى أن نعلن خطبتنا . أما في البيت فسأرتدي الوردي من أجلك .

ــ اللون الوردي يناسبك جداً ، فهو يزيدك فتوة ، حتى إنك تبدين فتاة صغيرة .

كان يبدو أن فتوتي تربك فيدور ميخائيلوفيتش ، فرحت أؤكد له ، وأنا أبتسم ، أنني سأشيخ بسرعة . صحيح أن هذا الوعد كان مزحة ، ولكنه تحقق في حياتي بفضل العديد من الظروف ، أو على الأصح أنني لم أصبح عجوزاً ، بل كنت أحاول أن أكون جدية ، سواء في لباسي ، أو في أحاديثي ، لدرجة أن الفرق بالسنوات بيني وبين زوجي لم يلبث أن أصبح غير ملحوظ تقريباً .

دخلت والدتي فقبل فيدور ميخائيلوفيتش يدها وقال :

ــ تعرفين طبعاً أنني طلبت يد ابنتك ، وقد وافقت أن تكون زوجتي ، وأنا في منتهى السعادة ، ولكن بودي أن تباركي اختيارها .

لقد امتدحتك آنا غريغوريفنا كثيراً ، فبدأت أكن لك كل الاحترام . أعدك أنني سأبذل قصارى جهدي من أجل أن تكون سعيدة ، وسأكون لك أكثر الأقرباء إخلاصاً ومودة .

ويجب إنصاف فيدور ميخائيلوفيتش، فخلال حياتنا المشتركة، على مدى أربعة عشر عاماً، ظل يكن لها كل احترام وتقدير، ويحبها ويجلّها بكل صدق وإخلاص.

ألقى فيدور ميخائيلوفيتش كلمته بمهابة، ولكن بشكل متقطع، وهذا ما أشار إليه لاحقاً، وقد تأثرت والدتي كثيراً، فاحتضنت فيدور ميخائيلوفيتش، ورجته أن يحبني ويصونني، حتى إنها راحت تبكي.

وقد سارعت فقطعت هذا المشهد، الذي قد يكون ثقيلاً على فيدور ميخائيلوفيتش، بقولي:

ـــ أميمتي الحبيبة: هاتي لنا الشاي بسرعة، ففيدور ميخائيلوفيتش يكاد يتجمد من البرد.

جلسنا نتناول الشاي على أرائك قديمة وثيرة، ورحنا نتحدث في جو نشيط.

لم يستمر سر خطبتنا، الذي قررنا إخفاءه عن الأقرباء والأصدقاء، أكثر من أسبوع، فقد افتضح على حين غرة.

كان فيدور ميخائيلوفيتش حين يأتي لزيارتنا يستأجر حوذياً من السابعة حتى العاشرة. وفي أثناء الطريق الطويل جيئة وذهاباً كان فيدور ميخائيلوفيتش يتحدث معه على عادته في الاختلاط ببسطاء الناس. ولما كان يشعر بحاجة ملحة لأن يشاطره أحد سعادته فقد حدثه عن الزواج المرتقب. وفي ذات مساء لم يجد فيدور ميخائيلوفيتش في جيبه (فراطة) فقال للحوذي إنه سيرسل له

النقود تواً. وأحضرت الخادمة النقود، ولما لم تكن تعرف لأي حوذي من الثلاثة الذين ينتظرون عند البوابة، يجب أن تدفع. سألت مع من جاء (السيد الشيخ).

ــ تقصدين الخطيب؟ لقد جاء معي.

ــ عن أي خطيب تتحدث؟ سيدنا ليس خطيباً.

ــ إنه خطيب، لقد أخبرني بنفسه، ثم إنني رأيت خطيبته حين فتح الباب وخرجت لوداعه، كانت في غاية المرح، ولا تكف عن الضحك.

ــ من أين نقلت السيد؟

ــ من ضواحي سمولني.

ولما كانت فيدوسيا تعرف عنواني فقد أدركت هوية خطيبة سيدها، وسارعت تنقل هذا النبأ إلى بافل الكسندروفيتش.

وفي اليوم التالي وصف لي فيدور ميخائيلوفيتش هذا المشهد بشكل مفصل وتصويري لدرجة أنه بقي في ذاكرتي إلى الأبد.

وحينما سألت عن الانطباع الذي تركه نبأ خطبتنا على ربيبه جاوب فيدور ميخائيلوفيتش بشكل مبهم، وكان يبدو أنه لا يريد الاستمرار في هذا الحديث. ولكنني أصررت على أن يحدثني بالتفصيل. فقهقه فيدور ميخائيلوفيتش وروى لي كيف دخل عليه باشا صباح اليوم إلى غرفة مكتبه، يرتدي ثوباً استعراضياً ويغطي عينيه بنظارة زرقاء، لم يكن يستعملها إلا في

المناسبات المهيبة. وقد أعلن لفيدور ميخائيلوفيتش أنه عرف نبأ زواجنا المرتقب، وأنه في غاية الدهشة. والحيرة والاستياء، وأنه لم يخطر لفيدور ميخائيلوفيتش لدى تقرير مصيره أن يسأل النصيحة والموافقة من (ابنه)، الذي يمسه هذا القرار إلى حد كبير. وطلب من (أبيه) أن يتذكر أنه أصبح (عجوزاً)، وأنه لم يعد قادراً، لا من حيث عمره، ولا من حيث قواه، على بدء حياة جديدة. وذكره أن لديه التزامات أخرى، وغير ذلك.

وكما ذكر لي فيدور ميخائيلوفيتش فإن بافل الكسندروفيتش كان يتحدث متبختراً مزهواً وواعظاً، وقد أثارت لهجته حنق فيدور ميخائيلوفيتش، حتى إنه لم يستطع تمالك نفسه فصرخ في وجهه، وطرده من مكتبه.

حين أتيتُ فيدور ميخائيلوفيتش بعد يومين (بعد أن عرفت أنه أصيب بنوبة) فإن ربيبه لم يقابلني، كان ينقل شيئاً ما في غرفة المائدة، ويوبخ الخادمة بغضب، كي يشعرني أنه في البيت. وفي المرة التالية (بعد أسبوع) دخل بافل الكسندروفيتش، بإيعاز من فيدور ميخائيلوفيتش على الأرجح، غرفة المكتب وحياني بجفاف وبلهجة رسمية، وجلس صامتاً ما يقارب العشر دقائق. وكان ذا وجه حانق وغاضب. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان في ذلك اليوم في مزاج رائع، وكنت مرحة بدوري، وكنا كلانا سعيدين، فلم نول اهتماماً للهجة بافل الكسندروفيتش الصارمة والمتكلفة.

وفيما بعد، وحينما لاحظ أن شكله الصارم لا يؤثر علينا، بل يغضب

فيدور ميخائيلوفيتش، انتقل من الغضب إلى الوداعة، وأصبح مهذباً ومؤدباً في معاملته لي، ولكنه لم يكن يفوت الفرصة المناسبة ليقول لي كلمة لاذعة.

مرت أيام الخطوبة السعيدة بسرعة هائلة. فمن الناحية الشكلية كانت الأيام تمر بوتيرة واحدة، فبحجة دروس الاختزال المكثفة لم أزر أحداً ولم أدعُ أحداً، ولم أتردد على المسرح والحفلات. باستثناء حضور عرض دراما الكسي تولستوي (موت يوحنا الرهيب).

كان فيدور ميخائيلوفيتش يثمن هذه الدراما عالياً. وقد رغب في أن نشاهدها سوية. فحجز (بلكوناً) ودعا إميليا فيدورفنا وابنتها وولديها، بالإضافة إلى بافل الكسندروفيتش. وعلى الرغم من رغبتي الكبيرة في تبادل الانطباعات مع فيدور ميخائيلوفيتش فإن حضور الناس، الذين لا يكنون لي الود، كان يثقل علي، وبكل صراحة أعربت إميليا فيدورفنا عن سوء نيتها، مما جعلني في النهاية في غاية الكآبة. وقد لاحظ فيدور ميخائيلوفيتش ذلك حالاً، فراح يسألني عما جرى، فتذرعت بوجع الرأس.

وبشكل عام فإن هذه الأمسية غير البهيجة لم تستطع هدم مزاجي السعيد، فقد كان يسود روحي عيد أبدي. وكنت، وأنا التي اعتدت العثور على ما أشغل به نفسي، لا أعمل شيئاً بتاتاً، بل كنت أمضي الأيام أفكر بفيدور ميخائيلوفيتش، وأسترجع أحاديث البارحة معه، وأنتظر قدومه بفارغ الصبر. كان عادة يأتي في السابعة، وفي منتصف الثامنة أحياناً، وكان السماور يغلي دائماً بانتظار وصوله، ومع حلول فصل الشتاء بدأت أخاف أن

يصاب بالزكام في طريقه الطويل إلينا ، وحال دخوله الغرفة كنت أقدم له كأساً من الشاي الساخن .

وكنت أعتبر زياراته اليومية لنا تضحية كبيرة من جانبه ، فرحت ، شفقة عليه ، أحاول إقناعه بالانقطاع عن القدوم في بعض الأمسيات ، وإن كنت في قرارة نفسي لا أريد ذلك ، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان يؤكد لي أنه يجد متعة كبيرة في زيارتنا ، وأنه ينتعش ويطمئن ، إذ يكون عندي ، وأنه لن يمتنع عن زياراته اليومية إلا حينما أقول له إنها عبء ثقيل علي . كان يقول ذلك مازحاً ، لأنه كان يرى مدى سعادتي به .

بعد الشاي كنا نجلس على الأرائك القديمة . وعلى الطاولة الصغيرة ، الفاصلة بيننا كانت توضع الضيافات المتنوعة . ففي كل مساء كان فيدور ميخائيلوفيتش يجلب معه السكاكر من مخزن الحلويات المفضل لديه ، ولما كنت أعرف ظروفه المادية الصعبة فقد كنت أحاول إقناعه بعدم جلب السكاكر ، ولكنه كان يعتبر أن هدايا الخطيب لخطيبته عادة عريقة لا يجوز الإخلال بها .

وبدوري فقد كان لدي دائماً ما يحب من الأجاص والزبيب والتمور والفالوذج وغيرها من الحلويات ، بكميات قليلة ، ولكنها طازجة ولذيذة ، وكنت أذهب إلى المخازن بنفسي بحثاً عن شيء خاص أدلل فيدور ميخائيلوفيتش به .

فكان يعرب عن دهشته ويؤكد أن من يعثر على مثل هذه الأشياء

اللذيذة هو المحب للطيبات. ولكنني رحت أؤكد أنه هو محب الطيبات. وهكذا فلم نستطع أن نتفق من منا أكثر ذنباً.

مع حلول الساعة العاشرة كنت أبدأ باستعجال فيدور ميخائيلوفيتش بالعودة إلى البيت. ولما كان المكان الذي يقع فيه منزل والدتي مهجوراً فقد كنت أخاف من حدوث ما لا تحمد عقباه. وفي الأمسيات الأولى اقترحت عليه أن يذهب كناسنا برفقته، ولكنه لم يرغب حتى في سماع ذلك، وراح يؤكد أنه لا يخاف شيئاً، وأنه قادر على التغلب على من يعتدي عليه. ولكن تأكيداته لم تطمئنني إلا قليلاً، وأوعزت للكناس أن يتبعه خفية حتى شارع سلونوفيا المزدحم، على أن يبقى على مسافة ١٥ ـــ ٢٠ خطوة منه.

وكان يحدث أن فيدور ميخائيلوفيتش لا يتمكن من زيارتنا، حين كان يقرأ في الأمسيات الأدبية، أو يكون مدعوا لحفلة غداء. وفي هذه الحالات كنا نتفق مسبقاً على أن أزور فيدور ميخائيلوفيتش في الساعة الواحدة وأبقى عنده حتى الخامسة، وبكل رقة أذكر كيف كان يحاول إقناعي بالبقاء «عشر دقائق أخرى، ربع ساعة أيضاً» وهو يقول شاكياً:

ـــ فكري يا آنا، لن أراك يوماً بكامله.

وكان يحدث أن يتملص في الأمسية نفسها من ضيوفه، أو ينجز فقرته، ويعرج علينا في التاسعة أو في منتصف العاشرة وهو يعلن بمهابة:

ـــ لقد هربت كما يهرب تلميذ المدرسة، بودي أن نجلس معاً ولو نصف ساعة.

وكنت في غاية الفرح ــ طبعاً ــ أن أراه للمرة الثانية في ذلك اليوم.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يزورنا وهو في مزاج رائق، مرح وفرح، وغالباً ما كنت أستغرب من أين جاءت تلك الخرافة التي تزعم أنه ذو شخصية كئيبة مكفهرة، هذه الخرافة التي كنت أقرؤها وأسمعها من معارفي، وأذكر بهذه المناسبة الحادثة التالية: في ذات مرة سألني فيدور ميخائيلوفيتش عن أولخين، مدرس الاختزال، ثم قال:

ــ يا له من إنسان كئيب.

فضحكت وقلت له: تصور أن أولخين قال لي حين عرض علي العمل لديك: «أعرض عليك العمل لدى الكاتب دستويفسكي، ولكن لست أدري كيف ستتفقين معه، فقد بدا لي إنساناً في منتهى الكآبة والتجهم»، وها أنت الآن تبدي الرأي نفسه به، والواقع أنكما كليكما لستما بالكئيبين، كل ما في الأمر أنكما تبدوان كذلك.

وسأل فيدور ميخائيلوفيتش بفضول: وماذا كان جوابك له؟

ــ قلت له: وما حاجتي للاتفاق مع دستويفسكي؟ سأحاول القيام بالعمل لديه على أحسن وجه، أما دستويفسكي نفسه فأحترمه لدرجة الخوف منه.

ــ وها نحن، على الرغم من تنبؤ أولخين، قد اتفقنا، اتفقنا إلى الأبد،

أليس كذلك يا عزيزتي آنيتشكا؟ ــ سأل فيدور ميخائيلوفيتش وهو ينظر إلي بحنان.

خلال أشهر الخطبة السعيدة الثلاثة تحدثنا عن كل شيء، ورحت أسأل فيدور ميخائيلوفيتش عن كل صغيرة وكبيرة في طفولته وشبابه ودراسته، وعن نشاطه السياسي، ونفيه إلى سيبيريا، وعودته...

وكنت أقول له: بودي أن أعرف كل شيء عنك، أن أرى ماضيك بوضوح وشفافية، وأفهم نفسك.

وبكل طيبة خاطر كان فيدور ميخائيلوفيتش يتذكر طفولته السعيدة الهادئة، ويتحدث بكل حب عن أمه[1]. وكان يحب أكثر ما يحب أخاه الأكبر ميشا[2]، وأخته الكبرى فارينكا[3]. ولم يترك أخوته وأخواته الأصغر منه انطباعاً قوياً لديه. وحين سألت فيدور ميخائيلوفيتش عن غرامياته، بدا لي غريباً أنه لم يعرف في شبابه الحب الجارف لامرأة ما. وأعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى أنه بدأ حياته الذهنية في مرحلة مبكرة. كان الإبداع قد تملكه،

---

(١) من الواضح أن طفولة دستويفسكي لم تكن سعيدة كما تكتب زوجته، وذلك بسبب معاملة أبيه القاسية، يقول دستويفسكي في رسالته إلى صديقه فرانغل تاريخ ٩ آذار ١٨٥٧ يقول: «إن أكثر ما يثير قلقي عليك يا صديقي هو علاقتك بأبيك، فأنا أعرف، أعرف جيداً (بالتجربة) أن مثل هذه المعاناة لا تطاق...».

(٢) صيغة التدليل من اسم ميخائيل.

(٣) صيغة التدليل من اسم فارفارا.

ولذا فقد تراجعت حياته الشخصية إلى المرتبة الثانية، ومن ثم انخرط بكل أفكاره في تلك القصة السياسية التي دفع ثمنها غالياً[٤].

حاولت سؤاله عن زوجته المتوفاة، ولكنه لم يكن يحب أن يتذكرها، والغريب أن فيدور ميخائيلوفيتش لم يتحدث معي عن ماريا دميتريفنا في السنوات اللاحقة، إلا مرة واحدة، حينما كنا في جنيف، وهذا ما سأتناوله في وقته[٥].

وفي الوقت نفسه لم يكن يضن باسترجاع ذكرياته عن خطيبته أ. ف. كورفين ــ كروكوفسكيا، وكان جوابه عن سؤالي عن السبب في فشل زواجهما:

ــ آنا فاسيليفنا واحدة من أفضل النساء، اللواتي صادفتهن في حياتي، فهي في منتهى الذكاء والتطور والثقافة الأدبية، ولها قلب في منتهى الروعة والطيبة. إنها فتاة ذات صفات أخلاقية رفيعة، ولكن قناعاتها تتعارض وتتناقض مع قناعاتي، وليست قادرة على التنازل عنها. فهي في غاية الاستقامة، ولذا فقد كان من المستبعد أن يكون زواجنا سعيداً. وهكذا جعلتها في حل من وعدها، ومن كل قلبي أتمنى لها أن تلتقي الإنسان الذي يشاطرها أفكارها وتعيش معه سعيدة.

---

(٤) تقصد آنا غريغوريفنا اشتراك دستويفسكي في جمعية بيتراشيفسكي وهي جمعية شبيبية تأسست في بطرسبورغ في عام ١٨٤٤ واستمرت حتى عام ١٨٤٩، وحكم على عدد كبير من أعضائها بمن فيهم دستويفسكي بالإعدام، ثم استبدل بالأشغال الشاقة.

(٥) جاءت مذكرات دستويفسكيا خالية من هذا الحديث.

ظل فيدور ميخائيلوفيتش طيلة حياته يكن لآنا فاسيليفنا كل ود واحترام، ويعتبرها صديقه المخلص. وحينما تعرفت عليها بعد ست سنوات من زواجنا أصبحنا صديقتين، وأحبت كل منا الأخرى بنزاهة. وقد تبين لي أن فيدور ميخائيلوفيتش كان على حق حين وصفها بالذكاء والطيبة والأخلاق الرفيعة. كما تبين لي أنه كان على حق أيضاً في قناعته بأنهما لو تزوجا لكانا غير سعيدين، فقد كانت آنا فاسيليفنا تفتقر إلى ذلك التنازل، الضروري في كل زواج موفق، وخاصة في الزواج من مثل هذا الإنسان المريض والعصبي، كما أصبح فيدور ميخائيلوفيتش فيما بعد نتيجة مرضه، أضف إلى ذلك أنها كانت آنذاك في منتهى الاهتمام بصراع الأحزاب السياسية، بحيث إنها لم تكن قادرة على أن تولي الأسرة الكثير من الاهتمام. ومع مرور الأعوام تغيرت، ولا زلت أذكرها امرأة رائعة وأماً رؤوماً.

ولكن حياتها كانت مؤسفة جداً، فبعد الانفصال عن فيدور ميخائيلوفيتش مباشرة سافرت إلى الخارج، والتقت السيد جاكلار، وهو فرنسي، تجمعهما وحدة القناعات السياسية، فأحبته وتزوجت به، وفي أثناء (كومونة) باريس حكم على جاكلار كأحد (الكوموناريين) المتحمسين بالإعدام، وقد سجن في إحدى القلاع القريبة من الحدود الألمانية. وقد دفع والد آنا فاسيليفنا مبلغ عشرين ألف فرنك رشوة لمن يهمهم الأمر، لقاء تسهيل هروبه إلى ألمانيا(٦). ومن ثم عادت جاكلار ــ كورفين إلى بطرسبورغ

(٦) في الواقع أن جاكلار كان في سجن شانتيه في فرساي، ومن هناك فرَّ إلى جنيف في ٧ تشرين الأول ١٨٧١.

وراحت تدرّس الأدب الفرنسي في المدارس النسائية . كان جاكلار يعيش مع زوجته في جو يسوده التفاهم التام ، ولكنه كان دائم الحنين إلى وطنه ، وهذا ما أثار قلق آنا فاسيليفنا ، ولم يلبث وضعهما المادي أن تغير نحو الأسوأ ، فقد عمد إلى تشغيل مهر آنا فاسيليفنا ، ولكن الحظ لم يحالفه . وبعد عدة سنوات لم يبق لديهما سوى منزلهما الذي يقطنانه ، وهو مرهون لقاء مبلغ طائل . وفي تلك الآونة منح زوجها حق العودة إلى الوطن ، فحملها معه إلى باريس ، وكانت طبيعة أعمالهما تتطلب منهما التردد على بطرسبورغ . وفي أثناء مرضها الأخير ، تمكنت من تقديم خدمة لها ، فقد أنذر زوجها بمغادرة البلاد خلال يومين باعتباره غير مرغوب به سياسياً ، ولكنني تمكنت من تمديد هذه المهلة عدة أسابيع من أجل تسوية أوضاعه ومرافقة زوجته المريضة وابنه الصغير إلى الخارج ، توفيت آنا فاسيليفنا في باريس في عام ١٨٨٧ .

في إحدى جلساتنا المسائية سألني فيدور ميخائيلوفيتش :

ــ قولي لي يا آنا هل تذكرين ذلك اليوم ، الذي أدركت فيه لأول مرة أنك تحبينني ؟

فأجبته : هل تعرف يا عزيزي أن اسم دستويفسكي معروف لدي منذ الطفولة : فقد كنت مغرمة بك ، أو على الأصح بأحد أبطالك منذ أن كنت في الخامسة عشرة .

ضحك فيدور ميخائيلوفيتش ظناً منه أنني أمزح .

فتابعت : إنني جادة في ما أقول ، فقد كان والدي مغرماً بالمطالعة ،

وحينما كان الحديث يدور حول الأدب المعاصر كان يقول دائماً : «أي كتاب لدينا الآن؟ ففي زماني كان بوشكين، غوغول وجوكوفسكي، ومن بين الروائيين كان دستويفسكي مؤلف (المساكين) يا للموهبة الفعلية، وللأسف أنه تورط في قصة سياسية فنفي إلى سيبيريا حيث انقطعت أخباره».

ولكن كم كانت فرحة أبي كبيرة حين عرف أن الأخوين دستويفسكي ينويان إصدار مجلة جديدة (فريميا)، فراح يزف إلينا هذه البشرى بسعادة: لقد عاد دستويفسكي، حمداً لله على أن هذا الإنسان لم ينته».

ولا زلت أذكر صيف ١٨٦١ الذي أمضيناه في بيتروغوف[٧] . وفي كل مرة كانت أمي تذهب إلى المدينة لشراء الحاجيات كنا وأختي نتوسل إليها أن تمر على مكتبة تشيركاسوف، لشراء جديد (فريميا). ولما كان النظام في منزلنا أبوياً فقد كانت المجلة تذهب أول ما تذهب إلى أبي، ولكن صحة المسكين كانت سيئة، فكان غالباً ما يغفو في الأريكة بعد الغداء وبيده كتاب أو صحيفة، فكنت أتسلل نحوه، وبكل حذر كنت آخذ الكتاب أو الصحيفة وأندفع إلى الحديقة، أجلس في أجمة كي لا يضايقني أحد في التلذذ بمطالعة روايتك. وللأسف أن حيلتي لم تكن تنجح، فقد كانت أختي ماشا، باعتبارها أكبر مني، تأخذ الكتاب الجديد، وعلى الرغم من توسلي إليها أن تسمح لي بالانتهاء من فصل (مذلون ومهانون)[٨] .

---

(٧) قصر بطرس في ضواحي مدينة بطرسبورغ (لينينغراد حالياً).

(٨) المقصود رواية دستويفسكي (المذلون والمهانون).

ولما كنت فتاة حالمة فإن أبطال الرواية شخصيات حية بالنسبة لي، فكنت أكره الأمير فالكوفسكي، وأحتقر اليوشا بسبب ضعف إرادته، وأتعاطف مع ايخينيف، ومن كل قلبي أشفق على نيللي المسكينة. ولم أكن أحب ناتاشا[٩] ... هل ترى أنني أحتفظ في ذاكرتي بأسماء أبطالك.

ــ لست أذكرهم، وبشكل عام لا أذكر مضمون الرواية إلا بشكل ضبابي.

فسألته وقد تملكتني الدهشة: هل يعقل أنك نسيتهم؟ كم هو مؤسف. فقد كنت مغرمة بايفان بيتروفيتش الذي يقوم بدور الراوي، ولم أفهم كيف استطاعت ناتاشا أن تفضل اليوشا التافه على هذا الإنسان الحبيب، وقد نالت العقاب على ذلك، والغريب أنني اعتبرت ايفان بيتروفيتش ودستويفسكي شخصاً واحداً، فقد خيل إلي أن دستويفسكي نفسه كان يروي قصة حبه الفاشل المحزنة.. إذا كنتَ قد نسيتَ فيجب أن تقرأ هذه الرواية من كل بد.

اهتم فيدور ميخائيلوفيتش بقصتي ووعد بقراءة (المذلون) في أول فرصة سانحة. ــ بالمناسبة ــ تابعت حديثي: هل تذكر أنك سألتني ذات مرة في بداية تعارفنا عما إذا كنت قد أحببت أحداً، فأجبت: لم يسبقي لي أن أحبب كائناً حياً، ولكنني منذ سن الخامسة عشرة وقعت في غرام بطل إحدى الروايات، وسألتني: أية رواية؟ فسارعت إلى تغيير مجرى الحديث، فقد

---

(٩) صيغة التدليل من اسم ناتاليا.

اعتقدت أنه من غير المناسب أن أذكر اسم بطل روايتك ، حيث كان يمكن أن تَعْتَبِر ذلك مراءاة ومداهنة من جانبي للحصول على عمل أدبي .

وكم ذرفت من دموع وأنا أقرأ (مذكرات من بيت الموتى) : كان فؤادي مفعماً بالتعاطف والشفقة على دستويفسكي الذي ذاق الأمرين في سجن الأشغال الشاقة . هذه المشاعر حملتها وأتيت لأعمل عندك . فقد كنت راغبة في مساعدتك وتخفيف حياة الإنسان الذي استحوذت مؤلفاته علي . وأحمد الله على أن اختيار أولخين وقع علي ، وليس على إنسان آخر للعمل معك .

وإذ لاحظت أن كلامي عن (مذكرات من بيت الموتى) عكر مزاج فيدور ميخائيلوفيتش سارعت إلى تغيير مجرى الحديث وقلت مازحة :

ــ هل تعرف أن القدر قد خصك بي زوجة ، فمنذ سن السادسة عشرة راحوا يسمونني نيتوتشكا نيزفانوفا ، إشارة إلى تعلقي برواياتك ، فسمني أنت نيتوتشكا .

ــ كلا إن نيتوتشكا روايتي ذاقت الأمرين في حياتها ، أما بالنسبة لك فأود أن تكوني سعيدة . من الأفضل أن أسميك آنا ، كما أنت .

في اليوم التالي طرحت على فيدور ميخائيلوفيتش السؤال ، الذي كان يشغلني منذ عهد بعيد ، ولكنني كنت أخجل من طرحه : متى شعر أنه يحبني ، ومتى قرر طلب يدي ؟

بدأ فيدور ميخائيلوفيتش يتذكر، وكم شعرت بالأسى حين اعترف أنه لم يلحظ وجهي في الأسبوع الأول من تعارفنا.

ــ كيف لم تلحظ؟ ماذا يعني ذلك؟ سألت بدهشة.

ــ إذا ما التقيت إنساناً لا تعرفينه وتبادلت معه عدة جمل عادية فهل تتذكرين وجهه؟

طبعاً لا! ثم إنني كثير النسيان، كنت أحدثك وأرى وجهك، الذي كنت أنساه حال خروجك. ولو سألني سائل عما إذا كنت شقراء أو سوداء لما استطعت الجواب. فقط في نهاية تشرين الأول لفتت انتباهي عيناك الرماديتان وابتسامتك التي تدل على الطيبة. ومن ثم بدأ يشدني ذلك التعاطف الصادق معي في محنتي. وخطر لي أن أقربائي وأصدقائي يحبونني على ما يبدو، فهم يتألمون لاحتمال أن أفقد حقوقي الأدبية، ويحرقون الأرم غيظاً من ستيللوفسكي، ويعبرون عن استيائهم، ولا يكفون عن لومي وتقريعي لأنني وقعت مثل هذا العقد، (لكأنه كان بوسعي أن لا أوقعه)، ويسدون النصائح، ويحاولون التخفيف عني، ولكنني كنت أشعر أن ذلك كله كان مجرد كلام وكلام وكلام، وأن أياً منهم لا يتألم لفقداني آخر ما لدي في حال ضياع حقوقي الأدبية... بينما هذه الفتاة الغريبة، التي أكاد ألّا أعرفها وقفت إلى جانبي، ودون أن تتأوه أو تشكو أو تستنكر بدأت تساعدني ليس بالقول، بل بالفعل. وحينما بدأ عملنا يستقر بعد عدة أيام شعرت، وأنا الذي كدت أصاب بالقنوط، بدماء الأمل: «إذا ما استمر العمل على هذا المنوال فقد

ينجز كل شيء في الموعد المضروب». وكانت تأكيداتك أننا سننجح حتماً
ــ هل تذكرين كيف كنا نحصي الأوراق؟ـــ ترسخ هذا الأمل، وترفدني بالقوة لمتابعة العمل. وكنت غالباً ما أقول لنفسي: «كم هو طيب قلب هذه الفتاة، فهي تشفق علي، وتروم إنقاذي من محنتي، ليس بالكلام بل بالعمل». ولما كنت أعاني من الوحدة الروحية فقد كان العثور على إنسان يتعاطف معي بصدق وإخلاص سعادة هائلة.

وأعتقد أن حبي لك بدأ من هنا... وحينما انتهينا من (المقامر) وأدركت أننا لن نلتقي يومياً بعد الآن، شعرت أنني لن أستطيع العيش بدونك، وحينذاك قررت طلب يدك.

ــ ولكن لماذا لم تطلب يدي كما هي العادة، وألَّفتَ هذه الرواية المسلية؟

ــ هل تعرفين يا عزيزتي آنا، حينما شعرت ماذا تعنين بالنسبة لي كدت أصاب باليأس، وبدا لي عزمي على الزواج منك جنوناً حقيقياً، فكري كم نحن مختلفان: الفرق في السن وحده كم هو هام. فأنا أكاد أكون عجوزاً بينما تكادين تكونين طفلة، ثم إنني مصاب بمرض غير قابل للشفاء، وكئيب وعصبي، بينما أنت معافاة مرحة تبتسمين للحياة. لقد أشرفت حياتي على نهايتها، وذقت خلالها الكثير من العذاب، بينما كانت حياتك كلها جيدة، ولا تزال في بدايتها، وأخيراً فإنني فقير ومثقل بالديون، فماذا يمكن أن يُنتظر

من كل هذا الفرق؟ إما أن نصبح بائسين ونفترق بعد أن نتعذب عدة سنوات، وإما أن نلتقي بقية حياتنا ونصبح سعيدين.

حزت كلمات فيدور ميخائيلوفيتش في نفسي فاعترضت بحماسة:

ــ إنك تبالغ يا عزيزي في كل شيء، فالفرق الذي تعتقد أنه بيننا لا وجود له، وإذا أحببنا بعضنا بقوة أصبحنا صديقين، وسنكون سعيدين بدون حدود. ولكن ما يخيفني شيء آخر: كيف تختار وأنت الإنسان الذكي والموهوب والمثقف رفيقة دربك فتاة حمقاء، قليلة الثقافة بالمقارنة معك، وإن كانت قد حصلت في المدرسة على ميدالية فضية كبيرة (كنت أعتز بها آنذاك كثيراً)، ولكنها ليست من الذكاء بحيث تكون رفيقة دربك. أخشى أن تكتشفني بسرعة فتصاب بالحزن والأسى، لأنني غير قادرة على فهم أفكارك، إن هذا الفرق أسوأ المساوىء.

وقد سارع فيدور ميخائيلوفيتش يطمئنني ويغدق علي الكثير من الكلام المعسول، وعدنا إلى حديثنا حول طلب الزواج مني فأضاف فيدور ميخائيلوفيتش:

ــ ترددت طويلاً في كيفية القيام بذلك، فالرجل الكهل والقبيح، الذي يطلب يد فتاة شابة ولا يلقى الشعور المتبادل يمكن أن يبدو مضحكاً. ولم أكن أريد أن أكون مضحكاً بالنسبة لك، لقد خفت أن يكون جوابك إنك تحبين آخر. وكان من شأن رفضك أن يزرع بيننا البرودة، وأن تصبح علاقاتنا الودية السابقة عقيمة، وأفقد بك الصديق الوحيد، الذي يكنّ لي

مثل هذا الود خلال العامين المنصرمين ، وأكرر أنني وحيد روحياً ، وأن فقدان صداقتك ومساعدتك كان من شأنه أن يكون قاسياً جداً بالنسبة لي . وهكذا ابتكرت هذه القصبة لسبر مشاعرك ، وكان وقع رفضك أسهل علي ، فالحديث يدور حول بطلي الرواية لا عنا نحن.

وبدوري حدثته عن كل ما عانيته في أثناء عرضه الأدبي : عدم فهمي ، غيرتي وحسدي تجاه آنا فاسيليفنا . وقال فيدور ميخائيلوفيتش وهو في غاية الدهشة : إذن لقد هاجمتك وأنت مشتتة الذهن ، وانتزعت موافقتك قسراً . على كل حال أرى أن تلك الرواية التي حدثتك بها كانت أفضل رواياتي على الإطلاق ، فللحال حققت النجاح وتركت الانطباع المنشود .

في غمرة الانطباعات السارة نسينا إنجاز (الجريمة والعقاب) ، فقد كان علينا كتابة الجزء الثالث من الرواية ، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش لم يتذكر ذلك إلا في نهاية تشرين الثاني ، حينما طالبت هيئة تحرير (روسكي فيسنيك) (البشير الروسي) بمتابعة الرواية ، ولحسن الحظ أن المجلات نادراً ما كانت تصدر بانتظام في وقتها آنذاك ، وبخاصة (البشير الروسي) التي اشتهرت بتأخر صدورها ، فقد كان عدد تشرين الثاني يصدر في نهاية كانون الأول ، وعدد كانون الأول في بداية شباط ، ولذا فقد كان ثمة الكثير من الوقت لدينا . جلب لي فيدور ميخائيلوفيتش رسالة المجلة ، وطلب نصيحتي ، فاقترحت عليه أن يوصد الأبواب في وجه الضيوف ، وينكب على العمل نهاراً من الثانية وحتى الخامسة ، ومن ثم يملي علي المخطوط في الأماسي . فكنت ، بعد أن نثرثر قليلاً ، أجلس خلف المكتب ، ويجلس فيدور ميخائيلوفيتش إلى جانبي ، ويبدأ

بالإملاء المشوب بتبادل الأحاديث والنكات والضحك. كان العمل يسير على ما يرام. وأنجز الجزء الأخير من الرواية، الذي يتألف من سبع ملازم، خلال أربعة أيام، وقد راح فيدور ميخائيلوفيتش يؤكد لي أنه لم يسبق له أن عمل بمثل هذه السهولة. وأن الفضل في ذلك يعود إلى تعاوني معه.

انعكس مزاج دستويفسكي المرح والرائق أبداً إيجابياً على صحته، فخلال الأشهر الثلاثة، التي سبقت زواجنا، لم يصب إلا بثلاث، أو أربع نوبات صرع. وقد أثار ذلك فرحي، وولد عندي الأمل في تلاشي هذا المرض في ظل الحياة السعيدة. وهذا ما حدث فعلاً: فالنوبات السابقة التي كانت تتكرر أسبوعياً، راحت تقل من عام إلى عام. ولم يكن بالإمكان الشفاء التام، سيما وأن فيدور ميخائيلوفيتش لم يعالج هذا المرض معتبراً إياه غير قابل للشفاء. وندرة هذه النوبات وضعفها كانا هبة من السماء. فقد تخلص فيدور ميخائيلوفيتش من ذلك المزاج الكئيب، الذي كان يستمر أسبوعاً بكامله، والذي كان نتيجة لا مناص منها لكل نوبة. كما تخلصت بدوري من الدموع والمعاناة حينما كانت تحدث هذه النوبات المرعبة بحضوري.

كانت الأمسيات هادئة مرحة. ولكن إحداها مرت على غير انتظار بشكل عاصف.

حدث ذلك في نهاية تشرين الثاني، فقد وصل فيدور ميخائيلوفيتش كما هي العادة في السابعة، ولكنه كان يرتجف من البرد. وبعد أن شرب كأساً من الشاي الساخن، سأل عما إذا كان لدينا كونياك. فأجبت بأنه لا يوجد

كونياك، ولكن لدينا نبيذاً قوياً، وأحضرته على الفور. شرب فيدور ميخائيلوفيتش ثلاثة أو أربعة أقداح دفعة واحدة. وعاد فشرب كأساً من الشاي، وحينذاك فقط شعر بالدفء. وقد أدهشتني إصابته بالبرد، ولم أستطع أن أجد تفسيراً لذلك. ولكن كل شيء اتضح سريعاً: ففي أثناء مروري في مدخل البيت رأيت على المشجب معطفاً قطنياً خريفياً بدلاً من فروة فيدور ميخائيلوفيتش المعهودة. وللحال عدت إلى غرفة الضيوف وسألت:

ــ ألم تأت في الفروة اليوم؟

ــ كــ كلا ــ قال فيدور ميخائيلوفيتش متلعثماً ــ لقد أتيت في المعطف الخريفي.

ــ يا للطيش! ولكن لماذا لم ترتدِ الفروة؟

ــ قيل لي إن الجو اليوم دافىء.

ــ الآن فهمت سبب القشعريرة. سأرسل سيمون حالاً ليعود بالفروة.

فسارع فيدور ميخائيلوفيتش: لا داعي لذلك من فضلك، لا داعي.

ــ كيف لا داعي يا عزيزي؟ ستصاب بالزكام في طريق العودة، ففي الليل سيكون الطقس أكثر برودة.

ظل فيدور ميخائيلوفيتش لائذاً بالصمت. ولكنني تابعت بإصرار. فاعترف أخيراً:

ــ ليس عندي فروة؟

ــ كيف؟ هل يعقل أنها سرقت؟

ــ كلا لم تسرق، بل اضطررت لرهنها.

عقدت الدهشة لساني، ثم رحت أسأله بإصرار فحدّثني ــ مكرهاً على ما يبدو ــ كيف زارته صباح اليوم إيميليا فيدوروفنا، ورجته إنقاذها من محنتها: بتسديد دين مستحق قدره خمسون روبلاً، وكذلك ربيبه طلب النقود لأخيه الصغير نيقولاي ميخائيلوفيتش، الذي أرسل رسالة بهذا الصدد. ولما لم يكن لدى فيدور ميخائيلوفيتش نقود فقد قرر رهن معطفه لدى أول كاتب للرهونات. وأكدوا لفيدور ميخائيلوفيتش أن المناخ الدافىء مستمر. وأن بوسعه أن يمضي عدة أيام في المعطف الخريفي إلى أن يتسلم النقود من (البشير الروسي).

شعرت باستياء عميق من انعدام الإحساس لدى أقرباء فيدور ميخائيلوفيتش، فقلت له إنني أفهم رغبته في مساعدة ذويه، ولكنني أرى أنه لا يجوز أن يضحي من أجلهم بصحته وحتى بحياته.

بدأت حديثي بهدوء، ولكن مع كل كلمة كان غضبي وحنقي يتفاقمان، إلى أن فقدت كل سيطرة على نفسي، ورحت أتحدث كالمجنونة،

دون تمييز العبارات، مؤكدة له أن لديه التزامات تجاهي باعتباري خطيبته، وأنني لا أستطيع تحمل موته، وملأت البيت بكاء وصراخاً وعويلاً، وكأنني في نوبة هستيريا.

استاء فيدور ميخائيلوفيتش كثيراً، وراح يضمني ويقبل يدي، ويتوسل أن أهدأ. ولم تكد والدتي تسمع عويلي حتى جلبت لي كأساً من الماء المحلى، مما أعاد لي بعض الهدوء.

شعرت بالخجل، واعتذرت من فيدور ميخائيلوفيتش، ولتبرير ما حدث أكد لي أنه غالباً ما كان في فصول الشتاء الماضية يرهن الفروة خمس أو ست مرات، ويرتدي المعطف الخريفي.

وراح يؤكد لي بارتباك: لقد اعتدت على هذه الرهونات حتى إنني لم أُولِها هذه المرة أي اهتمام، ولو عرفت أنك ستتألمين لذلك لما سمحت لباشا برهنها.

انتهزت فرصة ندمه، وأخذت منه عهداً بأن هذه الحادثة لن تتكرر. وللحال عرضت عليه ثمانين روبلاً لفك الرهن، ولكنه رفض ذلك بشكل قاطع. فرحت أتوسل إليه أن يبقى في البيت مؤقتاً، إلى أن تصل النقود من موسكو. وقد وافق فيدور ميخائيلوفيتش على (الإقامة الجبرية) بعد أن وعدته بأن أزوره يومياً وأبقى عنده من الواحدة وحتى الغداء.

ولدى وداعي له عدت أرجوه أن يغفر لي هذه (الزفة)، فأجاب فيدور

ميخائيلوفيتش : بالعكس ، الآن اقتنعت بمدى حبك لي ، فلولا حبك لي ما كان بوسعك أن تبكي هكذا .

لففت عنق فيدور ميخائيلوفيتش بمنديلي الأبيض المحاك . وأجبرته على أن يضع حرامنا الصوفي على كتفيه . وأمضيت بقية السهرة نهباً للقلق من أن يتخلى فيدور ميخائيلوفيتش عن حبه لي ، بعد أن عرف أنني قادرة على مثل هذه (الزفّات) ، وتارة يتملكني الخوف من أن يصاب في طريقه بالزكام ويقعده المرض . فلم أنم إلا لماماً .

استيقظت في الصباح الباكر ، وفي العاشرة كنت أطرق باب منزل فيدور ميخائيلوفيتش ، وقد طمأنتني الخادمة ، إذ أخبرتني أن سيدها نهض من فراشه ، وأنه سليم معافى .

وبوسعي القول إن تلك الأمسية كانت الأمسية (العاصفة) الوحيدة خلال أشهر الخطبة الثلاثة .

استمرت إقامة فيدور ميخائيلوفيتش (الجبرية) قرابة أسبوع . وفي كل يوم كنت أزوره للاطمئنان عليه ، ولنسخ (الجريمة) .

وفي إحدى زياراتي تلك أثار فيدور ميخائيلوفيتش دهشتي البالغة ، ففي ذروة عملنا ترددت أصوات العازف الجوال وهو يعزف مقطع (La donna est molile) من (ريغوليتو) . فقد توقف فيدور ميخائيلوفيتش عن الإملاء ، وأصغى ، ولم يلبث أن بدأ يغني هذا المقطع مستبدلاً اسمي بالكلمات الإيطالية . كان يغني بصوت لطيف ، وإن كانت تشوبه بحة خفيفة . انتهى

المقطع فاقترب فيدور ميخائيلوفيتش من النافذة، وألقى قطعة نقود، فذهب العازف في حال سبيله. وعلى تساؤلي أجاب بأن هذا العازف غالباً ما يتردد على نافذته، ويعزف له هذا المقطع، وعلى إيقاع هذا اللحن يتمشى فيدور ميخائيلوفيتش، وهو يترنم باسمي.

فضحكت، وتظاهرت بالاستياء من فيدور ميخائيلوفيتش لأنه قرن مثل هذه الكلمات الطائشة باسمي. ورحت أؤكد له أنني جبلت على الالتزام، وإذا كنت قد أحببته فحبي له إلى الأبد. فضحك فيدور ميخائيلوفيتش وهو يقول: سنرى، سنرى.

تكرر العزف والترنم في اليومين التاليين، وقد أثار دهشتي الانسجام والتناغم بين الاثنين، مما يدل على تمتع فيدور ميخائيلوفيتش بحس موسيقي جيد.

وعلى الرغم من تنوع مواضيع أحاديثنا اليومية فإنها لم تتطرق يوماً للمواضيع الفاحشة والبعيدة عن الأدب. كان خطيبي في منتهى الحرص على عفتي وطهارتي. وهذا ما يتجلى في رسالته لي، التي كتبها بعد الزواج:

«أرسلك الله لي لكي لا يضيع شيء من أصول وثراء روحك وقلبك، لا بل لكي يزداد غنى وازدهاراً، أرسلك لي كي أكفّر بك عن ذنوبي الهائلة، فأضعك بين يديه كاملة وفي حرز حريز عن كل ما هو سافل ودنيء».

وبشكل عام فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش يضع نصب عينيه حمايتي من كل الانطباعات الفاسدة. أذكر أنني بينما كنت عنده ذات مرة رحت

أتصفح إحدى الروايات الفرنسية، التي كانت على مكتبه، فاقترب مني وبكل هدوء أخذ الكتاب من يدي.

فقلت له: ولكنني أفهم الفرنسية فأعطني هذه الرواية أقرؤها.

ولكنه أجاب: ليس هذه، فما حاجتك لتدنيس مخيلتك! حتى بعد الزواج ظل فيدور ميخائيلوفيتش يختار لي الكتب، ولم يسمح أبداً بقراءة الروايات الرخيصة، رغبة منه في توجيه تطوري الأدبي، ولكن هذا الإشراف كان يحزُّ في نفسي، فكنت أحتج بقولي:

ـ إذن لماذا تقرؤها أنت؟ لماذا تدنس مخيلتك؟

ـ إنني إنسان عركته الحياة، وأنا بحاجة إلى بعض الكتب كمادة لعملي، يجب أن يعرف الكاتب الكثير، ويجرب الكثير، ولكن أؤكد لك أنني لا أتمتع بالمشاهد الماجنة، وغالباً ما تثير التقزز لدي.

ولم يكن ذلك مجرد كلام، بل كان الواقع فعلاً.

وبالكراهية نفسها كان ينظر إلى فن الأوبريت، الذي كان رائجاً آنذاك، فلم يكن يذهب إلى المسرح، ولم يكن يسمح لي بالذهاب، وكان يقول:

ـ إذا كانت ثمة إمكانية للذهاب إلى المسرح فيجب اختيار المسرحية التي تستطيع إعطاء المتفرج الانطباعات السامية والنبيلة، وإلا فما الفائدة من انسداد الروح بالتوافه؟!

خرجت من السنوات الأربع عشرة من حياتي مع فيدور ميخائيلوفيتش بقناعة عميقة بأنه كان واحداً من أكثر الناس تحلياً بالفضيلة. وكم شعرت بالألم وأنا أقرأ أن كاتبي المحبوب تورغينيف كان يعتبر فيدور ميخائيلوفيتش ماجناً، وقد سمح لنفسه بأن يسميه (المركيز دي ساد الروسي).

كان موضوع الحديث عن حياتنا العائلية القادمة أحب المواضيع لنا.

وكانت فكرة أنني لن أضطر إلى فراق زوجي، وأنني سأشاركه في أعماله، وتتاح لي إمكانية السهر على صحته، وسيكون بوسعي أن أحافظ عليه من الناس الذين يثيرون أعصابه ويعذبونه. كانت هذه الفكرة تبدو لي في غاية الروعة، حتى إنني كنت أكاد أبكي حين يخطر لي أن ذلك يمكن أن يتأجل. وكان زواجنا يتوقف بشكل رئيس على الاتفاق مع (البشير الروسي). فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش ينوي السفر إلى موسكو في أعياد الميلاد. وعرض روايته القادمة على كوتكوف، ولم يكن يخامره الشك في رغبة هيئة تحرير (البشير الروسي) في التعاون معه. لأن روايته (الجريمة والعقاب)، التي نشرت في عام ١٨٦٦، تركت انطباعاً كبيراً في الأدب، وزادت عدد المشتركين في المجلة. كانت المسألة تكمن في ما إذا كان لدى المجلة سيولة لدفع سلفة قدرها عدة آلاف. وبدون هذا المبلغ كان يستحيل بناء أسرة جديدة. وفي حال عدم التوفيق في (البشير الروسي) كان فيدور ميخائيلوفيتش ينوي الانكباب، حال إنجاز (الجريمة والعقاب) على رواية جديدة، وعرضها على مجلة أخرى، بعد أن يكتب القسم الأكبر منها.

كان الفشل في موسكو يهدد بتأجيل زواجنا إلى أجل غير مسمى، قد يستمر عاماً، وكان الحزن يتملكني حين تخطر لي هذه الفكرة.

كان فيدور ميخائيلوفيتش لا يكف يشاطرني مشاغله. لم يكن يرغب في إخفاء أي شيء عني، كي لا تكون حياتنا القادمة، المفعمة بالحرمان، مفاجأة ثقيلة بالنسبة لي. وكنت شاكرة له جداً صراحته. وكنت أبتكر شتى الأساليب للتقليل من الديون التي كانت أشد ما يثقل كاهله. ولم ألبث أن أدركت أن تسديد الديون، في حال استمرار الأمور على هذا النحو، يكاد يكون مستحيلاً. وعلى الرغم من أن معرفتي بالحياة العملية كانت قليلة لأنني كنت لا أعرف الحاجة في أسرتي الميسورة، فقد تمكنت خلال هذه الأشهر الثلاثة، التي سبقت زواجنا، من ملاحظة ناحية أساءتني كثيراً: ففي كل مرة كانت تظهر فيها النقود لدى فيدور ميخائيلوفيتش كان كل أقربائه: أخوه، زوجة أخيه، ربيبه، وأبناء أخوته وأخواته يجدون أنفسهم في ضائقة مالية مفاجئة، لا تحتمل التأجيل. وهكذا فمن أصل الـ ٣٠٠ — ٤٠٠ روبل، التي استلمها فيدور ميخائيلوفيتش من موسكو، لقاء (الجريمة والعقاب)، لم يبق في اليوم التالي سوى ٣٠ — ٤٠ روبلاً، علماً بأنه لم يسدد أية كمبيالة، وكل ما تم تسديده هو الفوائد، ومن جديد وجد فيدور ميخائيلوفيتش نفسه أمام مشكلة: من أين الحصول على النقود لدفع الفوائد؟ وتغطية نفقات المعيشة، وتأمين طلبات جمهور ذويه الغفير؟ وقد أصبح هذا الوضع يقض مضجعي، فكنت أطمئن نفسي بأن أستلم الإدارة بعد الزواج، وأنظم ما يعطى للأقرباء، بحيث أخصص لكل منهم مبلغاً سنوياً. علماً أن أبناء إيميليا فيدوروفنا كانوا

ناضجين وبوسعهم مد يد العون لها. وكان أخوه نيقولاي ميخائيلوفيتش معمارياً موهوباً، ويستطيع العمل لو توفرت الرغبة. أما بالنسبة لربيبه فقد آن الأوان به، وقد بلغ الحادية والعشرين، أن ينصرف إلى عمل جدي، ويتوقف عن الاعتماد المطلق على عمل عمه المريض والمثقل بالديون.

بكل استياء كنت أفكر بكل هؤلاء الناس الخاملين، لأنني كنت أرى أن التفكير الدائم بالنقود كان يعكر مزاج فيدور ميخائيلوفيتش ويضر بصحته. ونتيجة المشاكل المستمرة كانت أعصابه تتوتر بقوة، وتكثر نوبات الصرع. على هذا المنوال كانت تسير الأمور قبل ظهوري في حياة فيدور ميخائيلوفيتش، وبظهوري طرأ تغيير مؤقت على كل ذلك. ولكنني كنت آمل أن يطرأ تحسن نهائي على صحته في حياتنا المشتركة القادمة، وأن يستمر مرحه وفرحه.

ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش مثقلاً بالديون فقد كان مضطراً لعرض مؤلفاته على المجلات، وبالطبع فقد كان ما يحصل عليه أقل من الكتّاب الموسرين، أمثال تورغينيف، أو غونتشاروف. ففي الوقت الذي كان فيه فيدور ميخائيلوفيتش يحصل على ١٥٠ روبلاً لكل ملزمة، كان تورغينيف يحصل من (البشير الروسي) نفسها على ٥٠٠ روبل لكل ملزمة من رواياته.

ومما كان يزيد الطين بلة أن ديون فيدور ميخائيلوفيتش، التي لا تنتهي، كانت تضطره لأن يعمل بسرعة، فلم يكن لديه الوقت ولا الإمكانية لتشذيب أعماله. فكان يتألم من ذلك ويعاني كثيراً. وغالباً ما كان النقاد يلومون فيدور ميخائيلوفيتش على القالب الروائي الفاشل، وعلى جمع عدة روايات في رواية

واحدة، وعلى تكديس الأحداث فوق بعضها، وترك الكثير منها معلقاً. وعلى الأرجح أن النقاد القساة كانوا يجهلون الظروف التي كان فيدور ميخائيلوفيتش مضطراً للعمل فيها. فكان يحدث أن الفصول الثلاثة الأولى من الرواية قد طبعت، بينما الرابع لا يزال قيد التنضيد، والخامس لا يزال في عربة البريد. والسادس في مرحلة الكتابة، أما الفصول الباقية فلم تكن قد ولدت في المخيلة بعد. وكم مرة رأيت فيما بعد مدى تألم فيدور ميخائيلوفيتش وأساه وهو يكتشف فجأة أنه خَرَّبَ الفكرة، التي كان يعتز بها، وأنه غير قادر على تصحيح الخطأ[١٠].

والواقع أن أغلب النقاد لم يفهموا القالب الإبداعي لمؤلفات دستويفسكي. فهذا ناقد مجلة (القضية) يمتدح الكاتب على مشاعره الإنسانية التي كانت ملهمة في إبداع (الأخوة كارامازوف). ولكن الناقد يرى أن الرواية غير مقبولة من الناحية الفنية، أما الناقد الذلق تشويكو فيقول عن رواية (الأخوة كارامازوف): «بين الفينة والأخرى تسطع الرواية بصفحات في منتهى الموهبة، ولكنها ككل مكونة من اللامعقول والسخيف... ثم إنها من الطول والتكرار لدرجة السأم». حتى دستويفسكي نفسه كان يعتبر ضخامة مؤلفاته وتعدد مجلداتها (نقصاً)، وفي الوقت نفسه كان يدرك تماماً أنه لا يستطيع ولا يريد الكتابة بشكل آخر. يقول في رسالته إلى ن. ستاخوف:

(١٠) في ١٧ حزيران ١٨٦٦ كتب دستويفسكي في رسالته إلى كورفين كروكوفسكيا يقول: إنني على ثقة من أن أياً من أدبائنا السابقين والحاليين، لم يكتب في مثل هذه الظروف التي أكتب فيها دائماً، فتورغينيف كان من شأنه أن يموت من مجرد التفكير بذلك.

«لقد كنتَ على صواب تام حين أشرت إلى العيب الرئيسي، نعم لقد عانيتُ من ذلك وأعاني، فحتى الآن لا أجيد (لم أتقن) امتلاك ناصية وسائلي، ففي وقت واحد تتدافع عدة روايات في رواية واحدة، فلا تجد التناغم والانسجام.

كنت، وأنا أتألم من وضع خطيبي المادي، أمني النفس بأن أتمكن في المستقبل القريب، بعد عام، من مساعدته بشكل جذري، بعد أن أحصل، في يوم بلوغي سن الرشد، على المنزل الذي تركه لي أبي.

فمنذ نهاية الأربعينيات كان والداي يملكان قطعتين واسعتين من الأرض (حوالي عشرين ديساتيناً) تقعان في شارعي ياروسلاف وكوستروم. وفي إحدى القطعتين كانت تقوم ثلاثة أبنية جانبية، بالإضافة إلى منزل حجري ذي طابقين، كنا نقطنه، أما في القطعة الأخرى فكان يقوم منزلان خشبيان، أحدهما قدم مهراً لأختي، والثاني خصص لي وفي حال بيعه كان سيدر علي زهاء عشرة آلاف. كنت أنوي تسديد بعض ديون فيدور ميخائيلوفيتش بها. وللأسف الشديد أنني لم أكن أستطيع أن أحرك ساكناً قبل بلوغي سن الرشد. وراحت والدتي تحاول إقناع فيدور ميخائيلوفيتش أن يصبح ولي أمري، ولكنه رفض بحزم وقال:

ــ هذا البيت لآنا إذن فلتستلمه بعد أن تتجاوز الحادية والعشرين. فلا أريد التدخل في أمورها المالية.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يرفض مساعدتي المالية ونحن خطيبان،

فكنت غالباً ما أقول له : ما دمنا نحب بعضنا فيجب أن يكون كل شيء لدينا مشتركاً .

فكان يجيب : بالطبع هكذا سيكون بعد أن نتزوج ، وحتى ذلك الحين لا أريد أن آخذ منك روبلاً واحداً .

يخيل إلي أن فيدور ميخائيلوفيتش كان يعرف كثرة طلبات أقربائه . وإذ كان عاجزاً عن ردهم خائبين فلم يكن يريد أن يقدم لهم نقودي ، حتى مبلغ الألفي روبل . الذي خصصه أهلي مهراً لي لم يرغب في مسه . وراح يحاول إقناعي بأن أشتري به ما أرغب في شرائه لحياتنا القادمة . ولا زلت أذكر كيف راح يتمعن بما اشتريت من سكاكين وشوك ، ويعيدها إلى علبها . وكان يمتدح ذوقي باستمرار ، فقد كان يعرف أن مدحه يثير بهجتي ، فكان يمتع النظر بفرحي وسروري .

وكان يحب بشكل خاص مشاهدة أثوابي الجديدة ، وحين كان يؤتى بها من عند الخياطة كان يجبرني على تجربتها ، وكان بعضها (ذات اللون الكرزي على سبيل المثال) يعجبه لدرجة أنه كان يطلب مني البقاء به حتى المساء .

كما كان يجبرني على تجربة قبعاتي ، ويرى أنها تناسبني جداً . وباستمرار كان يحاول أن يقول لي شيئاً ما طيباً وممتعاً ، وأن يدخل على نفسي المرح . كم كان قلبه غنياً بالطيبة الحقة والحنان .

مرّت الأيام السابقة لأعياد الميلاد بسرعة ، ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش قد اعتاد قضاء الأعياد في أسرة أخته المحبوبة ف . م . ايفانوفا ، فقد قرر السفر

إلى موسكو في هذا العام أيضاً، وبالطبع فقد كان الهدف الأساسي للسفر هو عرض روايته الجديدة على كوتكوف، والحصول على المال اللازم لعرسنا.

في الأيام الأخيرة، التي سبقت السفر كان فيدور ميخائيلوفيتش نهباً للكآبة، فقد أصبح يحبني، وكان يشعر بألم الفراق، وبدوري كنت في غاية الحزن. ولسبب ما تصورت أنني لن أراه بعد الآن ولكنني تظاهرت بالمرح، وحاولت إخفاء حزني كي لا أعكر مزاجه. وقد بلغ حزنه ذروته في المحطة حين أتيت لوداعه، فقد راح ينظر إلي بحنان، ثم شد على يدي بقوة، وهو يقول:

ــ إنني ذاهب إلى موسكو والأمل الكبير يحدوني، من يعرف ما ستتمخض عنه هذه السفرة؟

وقد جاء تصرف بافل الكسندروفيتش الأرعن، الذي وصل المحطة مع أبناء أخوة فيدور ميخائيلوفيتش فزاد الطين بلة، فلدى دخولنا عربة القطار لنرى القمرة التي سيقضي فيها فيدور ميخائيلوفيتش ليلته أعلن بافل الكسندروفيتش بصوت عال، رغبة منه في التعبير عن اهتمامه بـ (أبيه) قائلاً:

ــ بابا، حاذر النوم في الفراش العلوي، فقد تأتيك النوبة فتقع على الأرض، وتذروك الرياح.

ولكم أن تتصوروا الانطباع، الذي تركته هذه الكلمات على فيدور ميخائيلوفيتش وعلينا، وعلى الجمهور المحيط بنا. حتى إن إحدى المسافرات، ويبدو أنها عصبية، لم تلبث أن طلبت من الحمال نقل أمتعتها إلى عربة النساء،

«لأن البعض سيدخن هنا على ما يبدو» (علماً بأن العربة كانت خاصة بغير المدخنين).

أثارت هذه الحادثة استياء فيدور ميخائيلوفيتش، الذي لم يكن يحب الحديث عن مرضه الرهيب أمام الملأ، وكذلك نحن المودعين شعرنا بالحرج، ولم نعرف ماذا نقول لإنقاذ الموقف، وتنفسنا الصعداء حين قرع الجرس الثاني، وكان علينا مغادرة العربة. ولم أستطع السكوت على رعونة بافل الكسندروفيتش فقلت:

ـ لماذا أغضبت فيدور ميخائيلوفيتش المسكين؟

ـ لا فارق عندي بين أن يغضب أو لا، المهم أنني حريص على صحته، ويجب أن يكون ممتناً مني لذلك.

كان كل (حرص) بافل الكسندروفيتش من هذا النوع، ومن البديهي أنه كان يثير أعصاب عمه.

من موسكو أرسل لي فيدور ميخائيلوفيتش رسالتين لم تفرحاني إلّا قليلاً، قرأتهما عشرات المرات، ورحت أنتظر عودته على أحر من الجمر.

أمضى فيدور ميخائيلوفيتش ١٢ يوماً في موسكو، وأنهى محادثاته مع هيئة تحرير (البشير الروسي) بنجاح، فلم يكد كوتكوف يعلم بنية فيدور ميخائيلوفيتش الزواج حتى هنأه بحرارة، وتمنى له السعادة. ووافق على منح

الألفي روبل كسلفة على دفعتين أو ثلاث. خلال شهر كانون الثاني الجاري. وهكذا فقد أصبح زواجنا ممكناً قبل حلول الصوم الكبير.

وفي لحظة واحدة وزعت الروبلات السبعمئة، التي أرسلت من موسكو، على الأقرباء والدائنين. وكان فيدور ميخائيلوفيتش يتحدث كل مساء كيف (تذوب) النقود لديه. وهذا ما أثار قلقي، وحينما أتت الدفعة الثانية رجوته إبقاء بعض المال لتغطية نفقات الزفاف.

أخذ فيدور ميخائيلوفيتش القلم بيده وسجل نفقات الإكليل والحفلة، التي تعقبه، (رفض بشكل قاطع أن تتحمل والدتي هذه النفقات)، فكان المجموع بحدود ٤٠٠ ـــ ٥٠٠ روبل، ولكن كيف الحفاظ عليها في الوقت الذي كانت حاجات جمهور أقربائه لا تنتهي؟

فقال لي: سأضع المبلغ لديك.

وفي اليوم التالي أحضر مبلغ خمسمئة روبل، وقال لي وهو يسلمني إياه مازحاً:

ـــ حافظي عليه يا آنا، فعليه يتوقف مصيرك!

وعلى الرغم من رغبتنا في عقد القران على جناح السرعة، فلم نتمكن من ذلك قبل منتصف شباط، فقد كان لا بد من العثور على شقة جديدة، حيث كانت الغرف الأربع السابقة قليلة، وقد تخلى فيدور ميخائيلوفيتش عن الشقة السابقة لإيميليا فيدورفنا وأسرتها، والتزم بدفع ٥٠٠ روبل سنوياً، ومن

حسنات هذه الشقة أن صاحبها ألونكين ، وهو تاجر غني ، كان يحترم فيدور ميخائيلوفيتش كـ (كادح عظيم) ، ولم يزعجه أبداً بالتذكير بالأجرة ، إذ كان على يقين من أن فيدور ميخائيلوفيتش سيدفع له فور توفر النقود ، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يحب تبادل الحديث مع هذا الشيخ المحترم .

عثر فيدور ميخائيلوفيتش على شقة لنا في شارع الصعود ، في مواجهة كنيسة الصعود . وكانت مؤلفة من خمس غرف كبيرة : الضيوف ، المكتب ، الطعام ، النوم ، وغرفة لبافل الكسندورفيتش . وكان لا بد من الانتظار لإجراء بعض الإصلاحات ، ومن ثم نقل أمتعة فيدور ميخائيلوفيتش وأمتعتي . وحينما أُنجز كل شيء حددنا يوم الزفاف ، الأربعاء ١٥ شباط ، عشية بداية الصوم الكبير ، وأرسلنا الدعوات إلى الأصدقاء والمعارف .

عشية العرس عرجت على فيدور ميخائيلوفيتش نهاراً لرؤيته ، ولأخبره أن أختي ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكيا ستزوره في الساعة السابعة كي ترتب أشيائي التي أرسلتها في صناديق ، وعلب خشبية ، وعلب كرتونية ، وتحضير الأشياء الضرورية لاستقبال الضيوف غداً . وكما حدثتني أختي فيما بعد فقد استقبلها فيدور ميخائيلوفيتش ببهجة ، وساعدها في فتح الصناديق وترتيب الحاجيات وأكرم وفادتها . وسحرها تماماً ، ولم تستطع إلا أن توافقني الرأي على أن زوجي القادم إنسان في منتهى اللطف والطيبة .

كنت قد قررت قضاء تلك الأمسية وحيدة مع والدتي . فمن كل قلبي كنت أشعر بالشفقة على أمي المسكينة : فقد أمضت جل حياتها محاطة

بالأسرة، أما الآن فقد توفي أبي، وسافر أخي إلى موسكو، وها أنا ذا أغادرها. كانت تحبنا حباً جماً، وكنا نعيش بوئام، وكنت أدرك كم ستكون حزينة أن تبقى وحدها.

تقرر أن يكون حفل الزفاف في السابعة، وأن يأتي إلي فيدور ميخائيلوفيتش، ابن أخ دستويفسكي، الذي اختاره سائقاً له.

وفي السادسة اجتمع كل أقربائي. وكان كل شيء جاهزاً، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش الأصغر لم يأت. ولم يحضروا ابن أولخين، الصبي الذي كان يحمل الأيقونة، ويسير أمامي، فتملكني القلق والخوف من أن يكون فيدور ميخائيلوفيتش قد أصيب بمرض ما. وندمت لأنني لم أرسل أحداً في النهار يسأله عن صحته.

وأخيراً، وفي السابعة دخل فيدور ميخائيلوفيتش الأصغر الغرفة وراح يستعجلني:

ـ هل أنت جاهزة؟ هيا بنا، لنسرع من أجل الله، فعمي في الكنيسة وهو قلق جداً، فهل ستأتين؟ استغرق الطريق إليك زهاء ساعة، ولن يكون طريق العودة أقل، فكري كم سيتعذب عمي خلال هاتين الساعتين!

ـ ولكنهم لم يجلبوا الصبي بعد!

ـ لنذهب بدون الصبي، المهم أن نذهب بسرعة فنطمئن فيدور ميخائيلوفيتش.

باركوني، وعانقت أمي ثم لفوني بالفروة. وفي آخر لحظة ظهر الصبي كوستيا في زي روسي جميل.

خرجنا من البيت، وعلى السلم كان ثمة جمهور غفير، فقد حضر جميع سكان الأبنية المجاورة لوداعي: بعضهم راح يقبلني، والبعض الآخر يشد على يدي. وكان الجميع يعربون بصوت عالٍ عن تمنياتهم بالسعادة. ومن فوق راح بعضهم ينثر علي حشيش الدينار، كفأل حسن للحياة الغنية. وقد أثر فيّ هذا الوداع النابع من القلب. جلسنا في العربة وانطلقنا بسرعة. وقد مرت عدة دقائق قبل أن ننتبه وأختي إلى أن الصبي الصغير كوستيا كان يجلس دون فروة ودون قبعة، وخوفاً من أن يصاب بالرشح غطيته بمعطفي العريض ولم يلبث أن راح في سبات عميق.

اقتربنا من كاتدرائية اسماعيلوف، وقد لف السائق كوستيا النائم بمعطفه الدافىء، وحمله عبر السلم العالي إلى داخل الكنيسة. أما أنا فقد ساعدني الخادم في النزول من العربة. ودخلت الكاتدرائية وقد غطيت الأيقونة. ولم يكد فيدور ميخائيلوفيتش يراني حتى اندفع ناحيتي، وقبض على يدي بقوة وهو يقول:

ـــ أخيراً وصلتِ، لن تهربي مني بعد الآن.

أردت أن أقول إنني لا أنوي الهرب، ولكن لم أكد أنظر إليه حتى أخافني شحوبه، ولم يسمح لي فيدور ميخائيلوفيتش أن أجيب بكلمة واحدة. قادني بسرعة باتجاه الحشد وبدأ حفل التكليل.

كانت الكنيسة تسبح في النور الساطع، وكان يتردد صوت الجوقة الرائع، وكان ثمة الكثير من الضيوف، الذين يرتدون الألبسة الزاهية، ولكنني لم أعرف ذلك كله إلا فيما بعد. من أحاديث الآخرين. فحتى منتصف الحفل كنت أشعر وكأنني في ضباب، وكنت أرسم علامة الصليب بشكل آلي. وكانت أجوبتي عن أسئلة الخوري تكاد تكون همساً، فقط بعد التقرب زالت الغمامة، وبدأت الصلاة بحرارة، وبعد الحفل بدأت التهاني، ومن ثم قادني زوجي للتوقيع على أحد السجلات.

في طريق العودة إلى شقتنا الجديدة ظل كوستيا مستيقظاً، ولكن الملعون فضح سرنا فيما بعد: «ظل العم والعمة يتبادلان القبل طوال الطريق».

حين وصلنا كان جميع الضيوف بانتظارنا، وبكل مهابة باركتنا والدتي وأبي الروحي، وبدأت التهاني بأقداح الشمبانيا، كان فيدور ميخائيلوفيتش سخياً جداً، ولذا فقد كانت كميات الشمبانيا والسكاكر والفواكه كبيرة جداً.

لم ينصرف الضيوف إلا بعد الحادية عشرة، وبقينا جالسين وحدنا فترة طويلة، نتذكر تفاصيل هذا اليوم الرائع بالنسبة لنا.

الـفـصــل الـثـاني

في بـدايـة الحـيـاة الـعـائـلـيـة
عـام ١٨٦٧

بعد أسبوعين من الزفاف أخبرنا أحد معارفنا أن صحيفة (ابن الوطن) نشرت في عددها رقم ٣٤ شباط ١٩٦٧ ، مقالة عن فيدور ميخائيلوفيتش تحت عنوان (زواج الروائي) ، حصلنا على عدد الصحيفة المذكور آنفاً ، وقرأنا الخبر التالي :

كتب مراسل صحيفة (Nord) في بطرسبورغ يقول :

« يتحدثون عندنا كثيراً عن زواج في عالمنا الأدبي ، تم بشكل غاية في الغرابة ، فقد تذكر أحد روائيينا المشهورين ، ذو الفكر الشارد قليلاً ، والذي لا يتميز بالدقة الكبيرة في تنفيذ الالتزامات ، التي يعقدها مع ناشري مؤلفاته ، تذكر في نهاية تشرين الثاني أن عليه حتى الأول من كانون الأول إنجاز رواية لا تقل عن مئتي صفحة ، وإلا تعرض لدفع غرامة كبيرة . فما العمل؟ صحيح أن الموضوع كان موجوداً ، والمشاهد الأساسية جاهزة ، ولكن لم يكن قد كتب سطراً واحداً ، ولم يبق حتى الموعد المشؤوم سوى أسبوع واحد . وبناء على نصحية أحد الأصدقاء عهد المؤلف ، لتسهيل عمله ، إلى دعوة مختزل ، وراح يملي عليه روايته ، وهو يقطع غرفة مكتبه جيئة وذهاباً ، ولا يكف عن تمسيد شعره الطويل ، لكأنه ينوي عصر الأفكار الجديدة منه . نسيت أن أخبركم أن المختزل ، الذي دعاه الكاتب كان فتاة ، مشبعة بالأفكار المعاصرة ، صحيح أنها لم تكن عدمية ، ولكنها تجيد تأمين وضعها المستقل عن طريق عملها . وفي الوقت الذي كان فيه السيد اكس (ليكن هذا اسم كاتبنا الروائي) يبحث جاهداً عن الأفكار الجديدة لم يكد يلاحظ أن الفتاة ، التي تعمل لديه شابة وحلوة . كان العمل في الأيام الأولى في منتهى الجودة ، ولكن مع اقتراب حل الحبكة بدأت المصاعب تظهر . كان بطل الرواية أرملاً تجاوز سن الشباب ، ويفتقر إلى الجمال ، ولكنه يحب امرأة شابة وجميلة .

كان يريد إنهاء الرواية نهاية طبيعية دون انتحار ومشاهد زائفة ، لم تكن الأفكار تأتي إلى ذهن الكاتب ، وبدأ شعره الطويل يعاني من ذلك ، في الوقت الذي لم يبق لإنجاز الرواية سوى يومين ، وبدأت تراوده القناعة بأن من الأفضل

أن يدفع الغرامة، وفجأة قررت الفتاة التي كانت حتى الآن تقوم بعمل الاختزال بكل صمت، أن تمد للروائي يد المساعدة، فنصحته بأن يجعل بطلته تعي أنها تشاطر بطله الحب.

فصاح الكاتب: ولكن ذلك مستحيل، فكري فقط أن البطل كهل عازب، مثلي، وأن البطلة جميلة وشابة... مثلك أنت على سبيل المثال.

واعترضت المختزلة على ذلك بقولها إن الرجل لا يسحر المرأة بمظهره الخارجي، بل بعقله وموهبته إلى غير ذلك. وفي النهاية قبل العرض، وأنجزت الرواية في موعدها.

وفي اليوم الأخير طلب السيد اكس بصوت مضطرب قليلاً، السماح له بزيارة المختزلة الحسناء كي يعرب لها عن شكره وامتنانه، فوافقت.

ــ هل يمكن أن أزوركم غداً؟ سأل السيد اكس.

ــ كلا، تعال بعد غد، إذا كان ذلك ممكناً. أجابت الفتاة.

وصل الروائي في الموعد المحدد، وبعد قدح القهوة الثاني استجمع جرأته، واعترف لها بحبه، وقد لقي الاعتراف القبول والرضى. وقال السيد اكس:

ــ لماذا لم تسمحي لي بزيارتك البارحة؟ إذن لكسبت يوماً سعيداً آخر.

فأجابت المختزلة، وقد احمرت خجلاً: لأنني كنت البارحة بانتظار

إحدى صديقاتي ، وهي أفضل مني بكثير ، وقد خفت أن تجعلك تغير رأيك .
سر الروائي جداً بهذا الاعتراف الساذج ، الذي يدل على أنه محبوب فعلاً .

لا يخطرن ببالكم أن هذه الرواية انتهت بما يسمى في روسيا بالزواج المدني . على العكس فقد تم الاحتفال بتكليل هذا الزواج منذ أيام في إحدى الكنائس المحلية » .

ضحكت وزوجي كثيراً من هذه المقالة وأشار فيدور ميخائيلوفيتش إلى أن اللهجة الرخيصة للقصة تدل على أن أ . ب . ميليوكوف وراءها ، فقد كان يعرف عادات زوجي جيداً . (فعلاً كان فيدور ميخائيلوفيتش يحب ، وهو يملي أن يروح في الغرفة جيئة وذهاباً ، وفي الحالات الحرجة كان يمسد شعره الطويل) .

مرّ الوقت قبل الصوم العظيم في جلبة مرحة : فكنا نقوم بزيارات (العرسان) سواء لأهلي ، أو لأهل فيدور ميخائيلوفيتش ومعارفه ، كان الأقارب يدعوننا إلى الغداء والسهرات ، وفي كل مكان كانوا يهنئون العريسين بأقداح الشمبانيا . تلك كانت العادة في تلك الأزمنة ، وأعتقد أن كل ما شربته في حياتي بعد ذلك من أقداح الشمبانيا لا يعادل ما شربت خلال تلك الأيام العشرة . ولكن هذه التهاني كانت ذات عاقبة وخيمة ، فقد ألحقت بي أول مصيبة قاسية في حياتي الزوجية ، ففي يوم واحد أصيب فيدور ميخائيلوفيتش بنوبتي صرع ، والغريب أنهما لم تحدثا ليلاً ، وهو نائم ، كما كان يحدث في السابق ، بل نهاراً ، في اليقظة . وهاكم ما جرى :

ففي آخر أيام الصوم الكبير تناولنا طعام الغداء عند الأقرباء، وفي المساء ذهبنا لقضاء السهرة عند أختي. كان العشاء مرحاً (مع الشمبانيا كما في الأيام الخوالي). وتفرق الضيوف، وبقينا نحن. كان فيدور ميخائيلوفيتش في غاية الحيوية، وكان يروي لأختي حادثة طريفة. وعلى حين غرة قطع حديثه، وشحب وجهه، ونهض نصف نهضة عن الأريكة، وبدأ يميل ناحيتي. عقدت لساني الدهشة، وأنا أنظر إلى وجهه الكالح. وفجأة ترددت صيحة مرعبة غير بشرية، أو زعيق على الأصح، وراح فيدور ميخائيلوفيتش يميل إلى الأمام. وفي الوقت نفسه ترددت صيحة أختي، التي كانت تجلس قرب زوجي. فقد قفزت عن الأريكة، واندفعت من الغرفة وهي تبكي بهستيريا، واندفع صهري في أثرها.

وفيما بعد قدر لي عشرات المرات سماع هذا الزعيق (غير البشري)، الذي يرافق بداية نوبة الصرع. وكان هذا الزعيق يهزني دائماً، ويثير خوفي. ولكن في تلك اللحظة، وهذا ما يثير دهشتي، لم أخش شيئاً، على الرغم من أنني كنت أرى نوبة الصرع للمرة الأولى في حياتي. قبضت على فيدور ميخائيلوفيتش من كتفيه، وأجبرته على الجلوس على الأريكة. ولم تكن لدي القوة الكافية للحيلولة دون ذلك. أبعدت الكرسي، الذي يحمل المصباح المشتعل، مما سمح لفيدور ميخائيلوفيتش بالهبوط إلى الأرض. وقد حذوت حذوه، وأبقيت رأسه على ركبتي طيلة فترة التشنجات. ولم يكن ثمة من يساعدني: فقد أصيبت أختي بنوبة هستيرية، فكان صهري والوصيفة مشغولين بها.

توقفت التشنجات شيئاً فشيئاً، وبدأ فيدور ميخائيلوفيتش يعود إلى نفسه. ولكنه لم يدرك في البداية في أي مكان هو، حتى إنه فقد القدرة على الكلام: كان يريد أن يقول شيئاً ما، ولكنه كان ينطق بكلمة بدل أخرى، فلم يكن بالإمكان فهمه. وأعتقد أننا تمكنا بعد حوالي نصف ساعة من إنهاض فيدور ميخائيلوفيتش وإرقاده على الأريكة، واتفقنا على أن نعطيه الوقت الكافي كي يستعيد هدوءه، قبل العودة إلى البيت. ولكن، ويا للمصيبة، تكررت النوبة بعد ساعة من الأولى، وكانت في هذه المرة من القوة بحيث أن فيدور ميخائيلوفيتش ظل بعد ساعتين من استرداد وعيه، يصرخ بصوت عال من الألم. كان ذلك شيئاً رهيباً. فيما بعد حدثت نوبات مزدوجة، ولكن بشكل نادر نسبياً، وفي هذه المرة أوضح الأطباء أن السبب في ذلك هو الإثارة الزائدة، التي ولدتها أقداح الشمبانيا، التي شربها فيدور ميخائيلوفيتش في أثناء زياراتنا كعروسين، وفي حفلات الغداء والعشاء، التي أقيمت على شرفنا. كان النبيذ ذا تأثير ضار جداً بفيدور ميخائيلوفيتش، فلم يكن يشربه أبداً.

اضطررنا لقضاء الليل لدى أختي لأن فيدور ميخائيلوفيتش كان في غاية الإرهاق، ثم إننا كنا نخاف نوبة جديدة. يا لها من ليلة رهيبة، تلك التي أمضيتها! فلأول مرة رأيت أي مرض رهيب يعاني منه فيدور ميخائيلوفيتش، وكنت، وأنا أسمع صراخه وأنينه المستمرين ساعات طويلة، أرى وجهه الذي شوهته المعاناة، فلم يعد شبيهاً به، وعينيه المتحجرتين بجنون، وأشعر بعجزي عن فهم حديثه غير المترابط. كنت شبه مقتنعة بأن زوجي العزيز والحبيب يفقد عقله. ولكم أن تتصوروا مدى رهبة هذا الكابوس.

ولكن، ولله الحمد، فبعد أن نام فيدور ميخائيلوفيتش عدة ساعات، تحسنت أحواله لدرجة أننا استطعنا العودة إلى البيت، ولكن ذلك المزاج الكئيب والعكر، الذي كان يحل دائماً عقب النوبة، استمر أكثر من أسبوع. وكان فيدور ميخائيلوفيتش يصف حالته بعد النوبة بقوله: «كأنني فقدت أعز كائن عندي في العالم. تماماً كأنني دفنت أحداً ـــ هذا هو مزاجي». ظلت هذه النوبة المزدوجة تثقل كاهل ذاكرتي إلى الأبد.

وخلال هذا الأسبوع الحزين بدأت تلك المشاكل وسوء التفاهم، التي سمّمت الأسابيع الأولى من زواجنا، والتي تجبرني على تذكر (شهر عسلنا) بأسى وحزن.

ولكي أكون أكثر وضوحاً سأصف مجرى الحياة الجديدة بالنسبة لي: ففيدور ميخائيلوفيتش، الذي اعتاد العمل ليلاً، لم يكن يستطيع الإغفاء باكراً، فكان يقرأ ليلاً، ولا يستيقظ إلا متأخراً، أما أنا فكنت عند التاسعة جاهزة، وأذهب مع الطباخة للتسوق.

وللحقيقة أقول إنني تزوجت وأنا ربة بيت غير جيدة. فقد أمضيت سبع سنوات في المدرسة، ثم في الدورات العالية، فالاختزال، فمن أين الوقت لتعلم أصول التدبير المنزلي؟ ولم أكد أصبح زوجة فيدور ميخائيلوفيتش، ولمعرفتي بوضعه المادي حتى وعدته ووعدت نفسي بأن أتعلم التدبير المنزلي. وكنت أؤكد له ضاحكة، أنني سأخبز له الفطائر التي يحب. حتى إنني أقنعته

باستئجار طباخة (غالية) بالنسبة لأسعار تلك الأيام، لقاء اثني عشر روبلاً، للتدرب على فن الطبخ على يدها.

ولدى العودة إلى البيت، في الحادية عشرة، غالباً ما كنت أجد في منزلنا كاتيا دستويفسكيا، ابنة أخ فيدور ميخائيلوفيتش. كانت فتاة كيسة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ذات عينين سوداوين رائعتين، وضفيرتين شقراوين طويلتين، تتدليان على ظهرها. وقد سبق لأمها إيميليا فيدورفنا أن حدثتني أكثر من مرة أن كاتيا قد أحبتني، وأعربت عن رغبتها في أن أؤثر عليها. وتجاه هذا الإطراء لم يكن بوسعي أن أرد إلا بالدعوة لزيارتنا باستمرار. ولما لم تكن لدى كاتيا أشغال دائمة، وكانت تشعر بالملل في البيت، فقد كانت تأتي إلينا عقب النزهة الصباحية، فقد كانوا يعيشون على مقربة منا، على بعد خمس دقائق فقط. وفي الثانية عشرة كان ميشا دستويفسكي، ابن أخ فيدور ميخائيلوفيتش، يأتي لزيارة بافل الكسندروفيتش، وهو شاب في السابعة عشرة، كان يتعلم العزف على الكمنجة، وفي طريقه من المعهد الموسيقي كان يعرج علينا. وبالطبع فقد كنت أدعوه لمشاركتنا الفطور. كما كان غالباً ما يتردد علينا فيدور ميخائيلوفيتش الصغير، وكان عازف بيانو ممتازاً. ومنذ الثانية كان يتوافد أصدقاء فيدور ميخائيلوفيتش ومعارفه. فقد كانوا يعرفون أنه لم تعد لديه أعمال مستعجلة، ولذا فقد كانوا يعتبرون أن بالإمكان الإكثار من زيارته.

وغالباً ما كان يتناول طعام الغداء عندنا كل من إيميليا فيدورفنا وأخوه نيقولاي ميخائيلوفيتش، وأخته الكسندرا ميخائيلوفنا غولينوفسكيا، وزوجها

الطيب نيقولاي ايفانوفيتش . وبعد الغداء كانوا عادة ما يبقون حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساء . هكذا كان نظام حياتنا اليومي ، فالأقرباء والغرباء على الدوام .

لقد ترعرعت في أسرة أبوية ومضيافة ، ولكن الضيوف كانوا يحلون علينا أيام الآحاد والأعياد فقط ، ولكن هذه الضيافة (المستمرة) ، حيث كان علي منذ الصباح وحتى المساء أن أقدم الأطباق ، وأوزع الاهتمام ، في مُنتهى الصعوبة . ومما زاد في الطين بلة أن أقرباء دستويفسكي الشباب . وربيبه لم يكونوا في عمري . ولا تنطبق تطلعاتي آنذاك على تطلعاتهم . على العكس فقد كنت أشد اهتماماً بأصدقاء فيدور ميخائيلوفيتش ومعارفه الأدباء : مايكوف ، أفيركييف ، ستراخوف ، ميليوكوف ، ودولغوموستيف وغيرهم . كان العالم الأدبي مجهولاً بالنسبة لي ، فكنت في غاية الرغبة لاكتشافه ، كنت أتوق للحديث معهم وللإصغاء إليهم والإصغاء ... وللأسف أن مثل هذه الفرص كانت نادرة ، فكان فيدَور ميخائيلوفيتش ، ما إن يرى وجوه الشبيبة ، وقد علاها السأم والملل ، حتى يهمس في أذني : « آنيتشكا ، عزيزتي ، ألا ترين أنهم ضجرون ؟ هلا ذهبت بهم ، وروّحت عنهم ! » . فكيف أخترع الحجة اللازمة للذهاب بهم وأبدأ (الترويح) عنهم ، وقلبي يكاد يتمزق أسى .

ومما كان يزيدني توتراً أن وجود الضيوف الدائم كان لا يترك لي الوقت للانصراف لأعمالي المحببة . فكان ذلك حرماناً كبيراً بالنسبة لي . وبكل أسى كنت أتذكر أني منذ شهر كامل لم أقرأ كتاباً واحداً ، ولم أدرس الاختزال بشكل منتظم ، مع أنني كنت أريد دراسته بكل دقة .

ولكن الأكثر ألماً بالنسبة لي أن وجود الضيوف الدائم لم يترك لي الوقت لأبقى مع زوجي العزيز وحيدين، وكنت، إذا ما سنحت لي الفرصة لدخول مكتبه، لا أكاد أجلس حتى يدخل أحد ما، أو يستدعوني لعمل ما. وقد اضطررت لتناسي تلك الأمسيات الخوالي الغالية، المضمخة بالأحاديث العذبة، لأنني كنت وفيدور ميخائيلوفيتش نشعر بالتعب مع حلول المساء، نتيجة تمضية النهار بشكل عقيم، وبسبب كثرة الزيارات والأحاديث، فكان النعاس يستدرجني إلى الفراش، بينما كان فيدور ميخائيلوفيتش ينصرف إلى قراءة كتاب ممتع، يشعر بالراحة وهو يطالعه.

كان من الممكن أن أعتاد، مع مرور الوقت، على مجرى حياتي، وأنتزع لنفسي بعض الحرية والوقت لمختلف الأشغال، لولا اقتران ذلك كله بالمشاكل من جانب أقرباء فيدور ميخائيلوفيتش. كانت زوجة أخيه إيميليا فيدوروفنا دستويفسكيا، امرأة طيبة، ولكنها محدودة التفكير. وإذ رأت أن فيدور ميخائيلوفيتش عمد، بعد وفاة زوجها، إلى السهر عليها، وعلى أسرتها، فقد اعتبرت ذلك واجبه، وكانت في منتهى الدهشة حين عرفت أن فيدور ميخائيلوفيتش ينوي الزواج. ومن هنا كانت لهجتها غير الودودة في حديثها معي حين كنت لا أزال خطيبته. ولكن إيميليا فيدوروفنا رضخت للأمر الواقع بعد الزواج، وأصبحت أكثر لطفاً تجاهي، وخاصة حين رأت إهتمامي بأبنائها. ولما كانت تعتبر نفسها ربة بيت ممتازة فقد كانت في أثناء وجودها عندنا بشكل يومي تقريباً، لا تكف عن إغداق النصائح التدبيرية، قد يكون ذلك نابعاً من طيبة قلبها، ورغبتها في مد يد العون لي، ولكن هذه النصائح

التي كانت تقدمها بحضور فيدور ميخائيلوفيتش، كانت تضايقني، حيث كانت تعرض أمامه سوء تدبيري وتبذيري، والأكثر سوءاً بالنسبة لي أنها كانت لا تكف عن الاستشهاد بزوجة فيدور ميخائيلوفيتش الأولى. ولم يكن ذلك لائقاً من ناحيتها.

وإذا كانت التوجيهات الدائمة واللهجة الوصائية إلى حد ما من جانب إيميليا فيدورفنا غير مرغوبتين بالنسبة لي، فإن تلك الفظاظة، وسوء الأدب من جانب بافل الكسندروفيتش كانا شيئاً لا يطاق.

صحيح أنني قبل الزواج كنت أعرف أن ربيب فيدور ميخائيلوفيتش سيقطن معنا، فبالإضافة إلى أنه لم يكن ثمة المال الكافي لأن يعيش وحده، كان فيدور ميخائيلوفيتش يريد أن يبقى تحت تأثيره، ما دامت شخصيته لم تتبلور. وبسبب صغر سني لم أكن أتصور أن وجود إنسان غريب تماماً، تحت سقف بيتي الجديد سيثقل كاهلي إلى هذا الحد. أضف إلى ذلك أنني كنت أعتقد أن فيدور ميخائيلوفيتش يحب ربيبه، وقد اعتاده، وأن من الصعب عليه فراقه. ولهذا كله لم أصر على البيت المستقل، على العكس فقد كنت أعتقد أن وجود شاب في مثل سني (فلم أكن أكبره إلا بعدة أشهر) من شأنه أن يجعل جو البيت مفعماً بالحيوية، وأنه سيساعدني في التعرف على عادات فيدور ميخائيلوفيتش، فقد كنت أجهل الكثير منها، وبالتالي فلن أخل بالكثير مما ألفه.

لا أقول أن بافل الكسندروفيتش ايسايف كان إنساناً غبياً أو سيء الطوية. إن مصيبته الأساسية تكمن في أنه لم يعِ وضعه أبداً. فمنذ نعومة

أظفاره اعتاد على طيبة ذوي فيدور ميخائيلوفيتش وأصدقائه ومعاملتهم الودية ، فأخذ ذلك على محمل الجد ، واعتبر أنها من أجله هو أكثر مما هي من أجل فيدور ميخائيلوفيتش ، وبدلاً من أن يقدر حب هؤلاء الناس ، ويحاول أن يكون جديراً بهذا الحب ، راح يتصرف دون تفكير ، وينظر إلى الجميع دون احترام ، ومن علٍ ، مما كان يؤدي إلى استياء هؤلاء الناس وحنقهم ...

ولما كان منذ سن الثانية عشرة يعيش لدى فيدور ميخائيلوفيتش ، ويرى مدى معاملته الطيبة له ، فقد كان بافل الكسندروفيتش على قناعة تامة أن على (أبيه) أن يعيش من أجله فقط ، ومن أجله يعمل ، ومن أجله يكسب المال ، أما هو فلم يكتف بأنه لم يساعد (أباه) ، ولم يخفف عنه أعباء الحياة ، بل على العكس كان بسلوكه الجاهل ، وتصرفه الأرعن ، يدفع (أباه) إلى النوبة كما ذكر المقربون . ثم إن بافل الكسندروفيتش كان يعتبر فيدور ميخائيلوفيتش عجوزاً أكل الدهر عليه وشرب ، كما كان يعتبر رغبته في العثور على السعادة الشخصية (حماقة) ، وكان يتحدث عن ذلك بصراحة مع أقربائه ، أما بالنسبة لي فقد اعتبرني بافل الكسندروفيتش مغتصبة . وكان ينظر إلي على أنني امرأة اقتحمت أسرته ، حيث كان قبل ذلك الآمرَ الناهي ، لأن فيدور ميخائيلوفيتش ، المشغول بالأعمال الأدبية ، لم يكن قادراً على القيام بالشؤون التدبيرية . ومن هنا فقد كان يكن لي الكراهية ، ولما كان عاجزاً عن منع زواجنا فقد قرر أن يجعله جحيماً لا يطاق بالنسبة لي . ولا أستبعد أن كل مساوئه ومشاحناته وتلفيقاته كانت تهدف إلى زرع الخلاف بيني وبين فيدور ميخائيلوفيتش لنفترق . كانت مساوىء بافل الكسندروفيتش صغيرة وضئيلة ، إذا أخذنا كلاً منها على حدة ،

ولكنها كانت كثيرة العدد ، ولما كنت أعرف أن الهدف منها هو إثارة غضبي وإهانتي ، فلم أكن أستطيع تجاهلها ، ولم تكن تمر دون أن تثيرني ، فقد اعتاد بافل الكسندروفيتش ـ على سبيل المثال ـ أن يرسل الخادمة كل صباح إلى مكان ما : تارة لشراء الدخان ، وأخرى لتسليم رسالة إلى صديق ، وانتظار الجواب ، أو الذهاب إلى الخياط .. إلخ . ولسبب ما فقد كانت كل هذه الأماكن بعيدة جداً عن منزلنا ، فكانت فيدوسيا المسكينة ، على الرغم من سرعتها ، تتأخر عن موعد استيقاظ فيدور ميخائيلوفيتش ، وترتيب مكتبه . كان فيدور ميخائيلوفيتش مغرماً بالنظافة والنظام ، ولذا فقد كان يغضب حين يجد المكتب غير مرتب . فكنت أضطر لأن أحمل الفرشاة ، وأنظف مكتبه . وذات مرة وجدني فيدور ميخائيلوفيتش أقوم بذلك فوجه لي ملاحظة ، وقال إن هذا عمل فيدوسيا ، وليس من عملي . وحينما كانت فيدوسيا ترفض الذهاب إلى مكان ما بعيد ، يطلب من بافل الكسندروفيتش ، وتقول له إن عليها أن تنظف الغرف ، وإلا فإن (السيدة ستوبخها) كان يقول لها دون حياء ، وهو يعرف أنني في الغرفة المجاورة :

ـ فيدوسيا ! من السيد هنا أنا أم آنا غريغوريفنا ؟ هل تفهمين ؟ إذن فاذهبي إلى حيث يطلب إليك .

(وتتحدث دستويفسكيا طويلاً عن مضايقات أقرباء زوجها لها . ومخاوفها من أن دستويفسكي لم يعد يحبها ، ثم تُتحدث عن رغبة دستويفسكي في السفر إلى موسكو) :

«لنسافر سوية، سوية طبعاً، فبودي أن أعرفك على أقربائي في موسكو... ثم إنه خطر لي أن أطلب سلفة أخرى من كاتكوف، لنسافر معك إلى الخارج. هل تذكرين لقد راودنا هذا الحلم معاً؟ ومن يدري فقد يتحقق هذا الحلم، ثم إنني أردت أن أتحدث مع كاتكوف بصدد روايتي الجديدة، ومن الصعب التفاوض على صفحات الرسائل، الأفضل أن ألتقي به، حتى ولو لم نسافر إلى الخارج فإنه سيكون من الأسهل علينا، بعد عودتنا من موسكو، أن نتخلص من هذه المشاغل الثقيلة علينا كلينا، إذن إلى موسكو، هل أنت موافقة يا آنيتشكا؟

يوم الخميس، الأسبوع الخامس من زواجنا، وصلنا موسكو في الصباح الباكر، ونزلنا في فندق ديوسو، المفضل لدى فيدور ميخائيلوفيتش. ولما كنا مرهقين من السفر فقد قررنا أن لا نقوم بأي عمل.

(ثم تتحدث طويلاً عن زيارة أقرباء دستويفسكي، وزيارة أخيها، وكيف حصل دستويفسكي على السلفة المطلوبة وعاد إلى بطرسبورغ يوم الأحد).

.. ومن جديد عدت إلى تسلية الأقرباء والسهر على راحتهم، وفي هذه المرة كنت أقوم بذلك دون تذمر، وكلي أمل في أن ينتهي كل ذلك قريباً، ولكنني لم أحدث أحداً بالسفر المزمع إلى الخارج. وفي أثناء الغداء، الذي ضم جميع الأقرباء، بمن فيهم أمي، أعربت إيميليا عن رأيها في أن ينتهز فيدور ميخائيلوفيتش هذا المناخ الصحو، ويبحث عن داتشا (بيت صيفي)،

وأضافت أنها تعرف داتشا ممتازة، لها حديقة كبيرة، لدرجة أنها تتسع لجميع عائلة دستويفسكي.

وأعلن فيدور ميخائيلوفيتش:

ــ لا حاجة لنا في البحث عن داتشا، فنحن وآنا مسافران إلى الخارج.

اعتبر الجميع هذا القول مجرد مزحة، ولكن ما إن بدأ فيدور ميخائيلوفيتش يشرح خطة الرحلة، ويقطع الشك باليقين، حتى خيم الصمت على الجميع، وقد حاولت بعث الحديث فرحت أتحدث عن رحلتنا إلى موسكو، وعن أقرباء دستويفسكي هناك، ولكن أحداً لم يولِ حديثي اهتماماً.

وبعد القهوة دخل فيدور ميخائيلوفيتش مكتبه منقبض النفس. ولم تلبث أن لحقت به إيميليا فيدوروفنا، أما بقية الأقرباء فقد ذهبوا إلى غرفة الضيوف، وبقيت لوحدي مع بافل الكسندروفيتش في غرفة الطعام.

ــ أرى جيداً أن هذه مقالبك يا آنا غريغوريفنا.

ــ أية مقالب؟

ــ ألا تعرفين؟ هذه الرحلة السخيفة إلى الخارج! ولكنك تخطئين كثيراً في حساباتك. فإذا كنت قد سمحتُ بسفرك إلى موسكو، فما ذلك

إلّا لأن بابا قد سافر للحصول على النقود ، ولكن السفر إلى الخارج إحدى نزواتك ، ولا أنوي السماح به مطلقاً .

شعرت بالاستياء من لهجته ، ولكنني لم أرغب في المشاحنة ، فقلت له مازحة :

ــ لعلك تعطف علينا ، وتسمح لنا بالسفر ؟

ــ لا تأملي ذلك ، فهذه النزوة ستكلف مالاً ، والمال ضروري ليس لك وحدك ، بل للأسرة كلها ، فالنقود مشتركة بيننا جميعاً .

ولكي لا أشتمه على هذه الفظاظة سارعت بالخروج .

بعد نصف ساعة خرجت إيميليا فيدورفنا من المكتب ، وقد بدا عليها الاضطراب ، حيث أوعزت إلى ابنتها أن تستعد للانصراف إلى البيت ، ولدى خروجها كان وداعها لي في منتهى الجفاف . وبعدها دخل المكتب نيقولاي ميخائيلوفيتش ، أخوه ، ومن ثم دخل لوداعه بقية الأقارب . وكان بافل الكسندروفيتش آخر من دخل غرفة المكتب ، وكما هي عادته فقد راح يتحدث بحدة وفوقية ، ولم يتمالك فيدور ميخائيلوفيتش نفسه فطرده من المكتب ، ولم يلبث أن غادر البيت .

حينما تفرق الجميع دخلت المكتب فرأيت زوجي في سورة القلق والغضب ، وأخبرني أن جميع الأقارب ضد سفرنا إلى الخارج ، وفي حال سفرنا فإنهم يطلبون ترك مبلغ من المال يكفيهم لعدة أشهر قادمة .

فسألته : وكم يريدون ؟

ــ لقد وعدت إيميليا فيدورفنا بسؤال الأولاد ، على أن تعطيني الجواب غداً .

أثارت كلماته مخاوفي إلى حد بعيد ، فمن مبلغ الألف روبل ، الذي دفعته مجلة (البشير الروسي) كان فيدور ميخائيلوفيتش ينوي إعطاء مئتين لإيميليا فيدورفنا ، ومئة روبل لبَّاشا ، ولنيقولاي ميخائيلوفيتش مئة ، ومئة أخرى لنفقاتنا قبل السفر ، وهذا يعني أن ما يتبقى من المبلغ حوالي خمسمئة روبل . وكنا نعتقد أنه بعد أن يرتاح فيدور ميخائيلوفيتش شهراً في الخارج سينكب على مقالته (عن بيلينسكي) . وكان من المفروض أن تكون بحجم لا يقل عن ثلاث ــ أربع ملازم ، وسيكون بوسع فيدور ميخائيلوفيتش أن يحصل لقاءها بعد فترة قصيرة نسبياً على ثلاثمئة أو أربعمئة روبل لسد حاجات أقاربه في أشهر الصيف ، فقد كنا ننوي العودة إلى بطرسبورغ في مطلع آب .

كانت مخاوفي في محلها . ففي صباح اليوم التالي جاءت إيميليا فيدورفنا ، وأعلنت أنها بحاجة لخمسمئة روبل لسد نفقات أسرتها في أثناء غيابنا ، بالإضافة إلى مئتي روبل لسد نفقات باشا . وقد حاول فيدور ميخائيلوفيتش إقناعها بأن ترضى بثلاثمئة روبل (لأسرتها ولباشا) ، على أن يؤمن المبلغ المتبقي بعد شهرين ، ولكن إيميليا فيدورفنا لم توافق . ولم تكن لدى فيدور ميخائيلوفيتش القوة الكافية لرفض طلبها ، فمنذ وفاة أخيه اعتاد السهر على شؤون أسرته .

وفي ذلك النهار حلت بفيدور ميخائيلوفيتش مصيبة أخرى : فعلى حين فجأة جاءه شاب ، ابن السيدة ريثمان ، التي كان لديها عدة كمبيالات باسم فيدور ميخائيلوفيتش ، بمبلغ يقارب الألفي روبل . ولما كان يدفع لها فائدة كبيرة فإنها لم تكن تضايقه . وقد أعلن ابنها أنها تطالب بتسديد قيمة إحدى الكمبيالات ، خمسمئة روبل ، وفي حال الرفض ستضطر للجوء إلى القضاء ، وطلب الحجز على أملاكنا .

أثار هذا الطلب المفاجيء دهشة فيدور ميخائيلوفيتش . ونظراً لإصرار ريثمان فقد وعد بدفع ثلاثمئة روبل غداً .

وخلال النهار وردت الرسائل من الأقارب ، وقد تبين أن على فيدور ميخائيلوفيتش أن يدفع لهم ألفاً ومئة روبل بالإضافة إلى ثلاثمئة لريثمان ، في الوقت الذي لم يكن لدينا سوى ألف روبل .

أقول بصراحة إن طلب هذه المرابية المفاجيء أثار الشك والريبة لدي ، ولكنني لم أكشف هذه الأفكار لزوجي .

وفي المساء ، وبعد أن حسب كل المبالغ ، قال لي فيدور ميخائيلوفيتش بأسى :

ــ إن القدر ضدنا يا آنيتشكا العزيزة ! إنك ترين بنفسك إننا إذا ما سافرنا هذا الربيع فسنكون بحاجة إلى ألفين ، ولكن ليس لدينا حتى ألف . وإذا ما بقينا في روسيا فسيكون بوسعنا أن نعيش بهذا المبلغ شهرين ، لا بل وحتى استئجار (الداتشا) التي تنصح بها إيميليا فيدوروفنا ، وهناك سأبدأ العمل وعلى

الأرجح أن تظهر لدينا النقود في الخريف ، فنتمكن من السفر إلى الخارج لمدة شهرين . لو أنك تعرفين يا عزيزتي مدى أسفي لكوننا لا نستطيع القيام بذلك الآن ، وكم كنت أحلم بهذه السفرة ، وكم كانت تبدو لي ضرورية لنا كلينا .

ورحت ، وأنا أرى مزاج فيدور ميخائيلوفيتش العكر ، أحاول إخفاء مدى حزني فقلت له بمرح :

ــ حسناً ، اطمئن يا عزيزي ، سننتظر حتى الخريف ، عسى أن يكون حظنا آنذاك أوفر .

تذرعت بوجع رأسي ، ثم غادرت المكتب على عجل ، خوفاً من أن يغلبني البكاء ، فأزيد من حزن زوجي .

لقد بلغ السيل الزبى ، فكل الأفكار والظنون التي كانت تعذبني ، والتي خدرتها رحلة موسكو ، عادت من جديد ، وبقوة مضاعفة ، وكدت أصاب بالقنوط ، وأنا أرى أن الحلم الذي راودنا نحن الاثنين ، لا يمكن تحقيقه .

كان إنقاذ حبنا يتطلب أن نبقى وحدنا ولو شهرين أو ثلاثة ، وأن أسترد هدوئي بعد كل ما عانيت من قلق ومتاعب . وكنت على قناعة تامة من أن ذلك من شأنه أن يوفق بيني وبين زوجي مدى الحياة ، ولن يكون بوسع أحد أن يفرق بيننا أبداً . ولكن من أين الحصول على المال اللازم لمثل هذه الرحلة ، التي كنا بأمسِّ الحاجة إليها ؟ وفي غمرة تفكيري خطرت لي فكرة : « ماذا لو ضحيت بكل بائنتي من أجل هذه السفرة ، فأنقذ سعادتي بذلك ؟ » .

راحت هذه الفكرة تسيطر علي شيئاً فشيئاً ، على الرغم من أن بعض المصاعب كانت تقف حجر عثرة في طريق تنفيذها . وكان في طليعتها أن ركوب هذا المركب ، والقيام بمثل هذه التضحية ، لم يكن بالأمر السهل علي .

لقد سبق وأشرت إلى أنني كنت ، على الرغم من سنواتي العشرين ، لا أزال طفلة ، في نواحٍ كثيرة . وفي سن الشباب تكون للأشياء ـ الأثاث والأزياء ـ أهمية كبيرة ، كنت شديدة الإعجاب بالبيانو الخاص بي ، وبطاولاتي الصغيرة الرائعة ، وبكل أثاثي الجميل ، الذي اشتريناه منذ عهد قريب ، وكنت أشعر بالأسى إذا ما فقدته ، ومن يدري فقد أفقده نهائياً .

ثم إنني كنت أخاف استياء أمي ، ولما كنت قد تزوجت منذ عهد قريب ، فقد كنت لا أزال تحت نفوذها ، وأخاف أن أثير استياءها ، وكانت قد ساهمت بشراء قسم من بائنتي ، وخطر لي : ماذا لو أن أمي اتهمت زوجي بالتعلق الزائد بذويه ، وبدأت ترتاب في حبه لي ؟ كم سيعذبها ذلك ؟ وهي التي تضع سعادة أبنائها فوق سعادتها الشخصية !

أمضيت ليلة أرق في مثل هذه الشكوك والتردد ، وفي الساعة الخامسة قرعت الأجراس ، فقررت الذهاب للصلاة في كنيسة الصعود ، التي كانت تواجه منزلنا .

وكما هي العادة فقد شعرت بالارتياح والطمأنينة . صليت بحرارة وبكيت ، ثم خرجت من الكنيسة ، وقد حزمت أمري . ودون أن أذهب إلى البيت عرجت على والدتي ، وقد أخافها قدومي في مثل هذا الوقت المبكر ، وبعينين

باكيتين . كانت هي الوحيدة من بين أقربائي ، التي تعرف مشاكلي العائلية ، وغالباً ما كانت تلومني لعدم قدرتي على وضع بافل الكسندروفيتش عند حده ، وتغيير الوضع القائم من حولي . ومما كان يثير استياءها أيضاً أنني ، وأنا التي اعتدت العمل ، والعثور على المتعة المعنوية في العمل ، لم أعد أعمل شيئاً ، بل انصرفت إلى تسلية الآخرين ، واستضافة الناس الذين لا أكن لهم أي إعجاب . ولما كانت سويدية الأصل فقد كانت تنظر إلى الحياة نظرة غربية ، أكثر ثقافة ، وكانت تخاف أن تختفي الخبرات الطيبة ، التي غرستها التربية ، بسبب حياتنا الروسية المعروفة بإكرام الضيف عشوائياً . ولما كانت والدتي تدرك أنه ليس لدي ما يكفي من القوة ومن اللباقة الاجتماعية لوضع كل شيء في حدوده ، فقد كانت تعلق الكثير على سفرنا إلى الخارج . وكانت تنوي أن تعرض على فيدور ميخائيلوفيتش ، بعد عودتنا في الخريف ، أن ينتقل للعيش في منزلها ، وهذا يعني أنه ستصبح لدينا شقة جديدة ، ولن يعود الأقرباء يزوروننا يومياً بسبب بعد المسافة . ولم يكن بافل الكسندروفيتش ليرضى أن يعيش (في مكان ناء) ، كما كان يسمي منطقتنا باحتقار ، وكان سيبقى لدى إيميليا فيدوروفنا بالطبع . وبالتالي فإن انفصالنا عن بافل الكسندروفيتش لن يكون على شكل خلاف عائلي ، بل كان بسبب رغبته هو .

ولم تكد أمي تعرف بفشل مشروع سفرنا إلى الخارج ، وأننا سنضطر لقضاء الصيف في (داتشا) واحدة مع آل دستويفسكي حتى تملكها الخوف . ولما كانت تعرف شخصيتي المستقلة ، وإصرار الشباب عندي ، فقد كانت تخشى من أنني لن أتحمل ، ومن حدوث كارثة عائلية .

ولا تسل عن مدى سروري حين وافقت على خطتي في رهن حاجياتي. ولدى سؤالي عما إذا كانت لا تشعر بالأسف على بائنتي كان جوابها:

طبعاً أشعر بالأسف، ولكن ما العمل ما دامت سعادتك في خطر؟ إنك وفيدور ميخائيلوفيتش شخصان مختلفان، لدرجة أنكما إذا لم تتفقا الآن كما يجب، فإنكما لن تتفقا أبداً. المهم أن تسافرا بأسرع وقت، قبل حلول الأعياد، وقبل ظهور تعقيدات جديدة.

فسألت: ولكن هل نستطيع رهن الأشياء، والحصول على المال قبل الأعياد؟

ولحسن الحظ أن أمي كانت تعرف أحد مدراء شركة (المنقولات الكبيرة الحجم)، فوعدت بأن تسافر إليه فوراً، وتطلب منه إرسال المخمن غداً. كان عقد استئجار شقتنا حتى الأول من أيار، وكان يمكن نقل الأثاث إلى المستودعات بعد الجمعة المقدسة، وقد تكفلت الماما بتوزيع مبلغ الرهن على أقرباء دستويفسكي، كل حسب ما خصص له. أما بالنسبة للأشياء الذهبية والفضية وبطاقات الائتمان والفراء فقد كان بالإمكان رهنها قبل سفرنا.

عدت إلى البيت وأنا في غاية السرور، وقد وصلت قبل استيقاظ فيدور ميخائيلوفيتش، ولم أكد أدخل المطبخ لإعداد القهوة لزوجي حتى جاء بافل الكسندروفيتش، الذي كان يتوق لمعرفة أين أمضيت الصبح كله، وبدأ تهكمه كما هي العادة:

ــ إنه لما يبعث الارتياح في نفسي أن أراك في مثل هذا الإيمان يا آنا

غريغوريفنا، فأنت لم تكتفي بصلاة الصبح، بل وصليت الظهر أيضاً، كما أخبرتني فيدوسيا.

ــ نعم لقد كنت في الكنيسة.

ــ ولكن لماذا أنت اليوم غارقة في التفكير؟ اسمحي لي أن أعرف في أية مصايف أجنبية يحلق خيالك الجامح؟

ــ ولكنك تعرف أننا لن نسافر إلى الخارج.

ــ ألم أقل لك؟ هل اقتنعت الآن بالتجربة؟ وأن بوسعي أن أصل إلى ما أريد، وأنني لن أسمح بالسفر إلى الخارج.

ولما كنت لا أريد الدخول في نقاش، وإن كنت في غاية الاستياء من وقاحته، فقد أجبت:

ــ نعم، أعرف، أعرف! ما جدوى الحديث عن ذلك؟

كان لا بد من إقناع فيدور ميخائيلوفيتش بالموافقة على مشروعي، وكان يستحيل الحديث معه في البيت: ففي كل دقيقة كان يمكن أن يضايقنا أحد، ثم إن بافل الكسندروفيتش كان يجلس في البيت بعناد، بانتظار قدوم آل دستويفسكي الشباب، ضيوفنا الصباحيين المعتادين، ولحسن الحظ كان على زوجي أن يذهب في شأن ما، فأعربت عن رغبتي في مرافقته حتى أقرب صيدلية. وفور خروجنا من المنزل عرضت على فيدور ميخائيلوفيتش أن نعرج على كنيسة الصعود.

صلينا سوية أمام أيقونة العذراء، ومن ثم مررنا عبر شارع الصعود، فضفة قناة (مويكا). كنت نهباً للاضطراب، ولم أعرف من أين أبدأ حديثي، وقد ساعدني فيدور ميخائيلوفيتش، فلم يكد يرى حيويتي حتى قال:

ـــ كم أنا سعيد يا آنا أنك تقبلت بارتياح إلغاء سفرنا إلى الخارج، الذي طالما راود أحلامنا.

ـــ ولكن يمكن أن يتم إذا ما وافقت على الخطة التي أقترحها. ثم رحت أشرحها له. وكما كان متوقعاً فقد رفضها زوجي للتو، معرباً عن رفضه أن أضحي بحاجياتي، وقد استغرقنا الجدل، ودون أن ننتبه أين نسير وصلنا منطقة مهجورة، وللمرة الثانية في حياتنا العائلية اعترفت لزوجي بأن حياتي لا تطاق، ورحت أتوسل إليه أن يهبني شهرين ـــ ثلاثة من الحياة الهادئة والسعيدة. ورحت أؤكد له أن الأمر لا يقتصر على أننا لن نتمكن من أن نصبح أصدقاء كما كنا نأمل، بل إن الظروف الحالية قد تفرقنا إلى الأبد. ورحت أتوسل إليه أن ينقذ حبنا وسعادتنا، وخانتني دموعي، فأجهشت في البكاء، لدرجة أن فيدور ميخائيلوفيتش المسكين لم يعرف ماذا يعمل، فسارع إلى الموافقة على كل شيء. ولفرط سروري قبّلت زوجي، غير عابئة بالمارة (كانوا قلة في ذلك المكان). وللحال، ودون إضاعة الوقت، اقترحت عليه أن يذهب إلى ديوان المحافظة لمعرفة متى يمكن الحصول على جواز السفر، وباستمرار كان الحصول على جواز سفر مشكلة عويصة بالنسبة لزوجي، فقد كان تحت مراقبة البوليس، باعتباره مجرماً سياسياً، وبالإضافة إلى الشكليات العادية كان لا بد من حصوله على موافقة المحافظ. وفي الديوان تعرف الموظف المختص على زوجي

باعتباره أحد عشاق رواياته، ونصحه بضرورة كتابة الطلب فوراً، ووعد بعرضه على الرئيس غداً، أما جواز السفر فسيكون جاهزاً يوم الجمعة.

إن أنسَ، لا أنسى مدى سعادتي في ذلك اليوم. حتى تحرشات بافل الكسندروفيتش الحمقاء لم تثر غضبي، فقد كنت أعرف أنها لن تلبث أن تنتهي. وفي ذلك اليوم لم نخبر أحداً بسفرنا باستثناء الماما، التي جاءتنا عند المساء، وأخذت معها الذهبيات والفضيات وبطاقات الائتمان لترهنها غداً.

وفي اليوم التالي ــ الأربعاء ــ جاء المخمن، وقدر المبلغ الذي يمكن أن نحصل عليه لقاء رهن الأثاث. وفي مساء اليوم نفسه، وحينما كان الجميع حول مائدة الغداء، أعلن فيدور ميخائيلوفيتش أننا مسافران بعد غد.

وللحال أعلن بافل الكسندروفيتش، الذي أثاره هذا الخبر:

ــ اسمح لي بهذه الملاحظة يا بابا.

وصاح فيدور ميخائيلوفيتش بحدة:

ــ دون ملاحظات، كل سيحصل على المبلغ المخصص له، ولا كوبيك أكثر.

فعاد بافل الكسندروفيتش يقول: ولكن هذا مستحيل! لقد نسيت أن أخبرك أن معطفي الصيفي لم يعد دارجاً، وأنني بحاجة إلى معطف جديد، ثم إن هناك نفقات أخرى...

ـ لن تحصل إلا على المبلغ المخصص. إننا مسافران بنقود آنا غريغوريفنا، وليس من حقي التصرف فيها.

حاول بافل الكسندروفيتش مرتين أو ثلاث تقديم بعض المطالب، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش لم يصغ له.

بعد الغداء راح الأقرباء، كل بدوره، يدخل مكتب زوجي، وهناك كان فيدور ميخائيلوفيتش يعطي كلاً منهم قسماً من المبلغ، أما القسم الباقي فكان يعطى لهم على شكل إيصالات تستحق في الأول من أيار، حيث كان على والدتي أن تدفع لهم من النقود، التي ستحصل عليها لقاء رهن حاجياتنا.

أقنعت فيدور ميخائيلوفيتش أن يعطي بافل الكسندروفيتش ثمن المعطف الصيفي، عله يتوقف عن مضايقتنا. ولكن هذه التضحية لم تؤثر به، فعند الوداع قال لي إن تصرفي السيء (سفرنا إلى الخارج) سيكلفني غالياً، وإنه سيجرب حظه معي في الخريف. ولا أحد يعرف لمن ستكون الغلبة.

كنت في منتهى السعادة، لدرجة أنني لم أول أي اهتمام لكل المساوىء، التي كانت تتساقط علي من شتى الجهات.

رتبنا كل شيء بسرعة، ولما كنت أعتقد أننا نسافر لفترة قصيرة، فقد اكتفيت بأخذ الأشياء الضرورية، تاركين رهن أثاثنا، والحفاظ على ما يتبقى لدينا على كاهل أمي. وقد سارع بافل الكسندروفيتش يعرض خدماته، ولكنه

كان يضايقها أكثر مما يساعدها. وقد نقل قسماً من مكتب فيدور ميخائيلوفيتش ومكتبته إلى جناحه، بحجة أنه ينوي رفد تعليمه بالمطالعة.

حين سافرنا إلى الخارج كنا ننوي البقاء ثلاثة أشهر. ولكننا لم نعد إلى روسيا إلا بعد أربع سنوات ونيف. وخلال هذه الفترة جرى الكثير من الأحداث السعيدة في حياتنا. وسأظل مدى حياتي أحمد الله على أنه رسّخ فيّ العزم والتصميم على السفر إلى الخارج، فهناك بدأت حياتنا السعيدة، وتعطرت صداقتنا وحبنا اللذان استمرا حتى وفاة زوجي.

الفصل الثالث

الحياة في الخارج
أول شجار عائلي (من دفتر الاختزال)

اليوم (١٨ نيسان) هطل مطر قليل، ولكن كان يبدو أنه سيستمر اليوم بكامله. كانت نوافذ البيوت في برلين مفتوحة. وتحت نافذة غرفتنا كانت أشجار الزيزفون قد اخضوضرت، استمر المطر، ولكننا قررنا الخروج للتجوال في المدينة. وصلنا القصر، ورأينا أكاديمية الهندسة المعمارية، والترسانة، ومسرح الأوبرا. كما شاهدنا الجامعة، وكنيسة لودفيغ. وفي الطريق أشار فيديا إلى أنني أرتدي لباس الشتاء (قبعة وبرية بيضاء)، وأن قفازيَّ

سيئان . أثارت ملاحظته استيائي ، فأجبته أن من الأفضل أن لا نسير معاً ما دام يعتقد أن هندامي شائن. وبعد أن قلت له هذا عدت على أعقابي. ناداني فيديا عدة مرات ، وأراد أنِ يلحق بي . ولكنه غيَّر رأيه ، وتابع طريقه . لقد شعرت بالغضب ، وبدت لي ملاحظة فيدور ميخائيلوفيتش غير لائقة . قطعت عدة شوارع جرياً تقريباً ، ووجدت نفسي قرب برج برانينبورغر . كان المطر لا يزال يهطل ، وكان الألمان ينظرون إلي بدهشة ، وأنا أسير تحت المطر ، دون مظلة ، وكأنه شيء عادي . وشيئاً فشيئاً عدت إلى هدوئي ، وأدركت أن فيديا لم يكن يقصد أن يجرحني بملاحظته ، وأنني عبثاً غضبت . كنت في غاية القلق من هذه المشاحنة مع فيديا . والله وحده يعلم ماذا تصورت . قررت العودة إلى البيت بسرعة ، ظناً مني أن فيديا يمكن أن يكون قد عاد ، وسيكون بوسعي أن أصالحه . ولكن كم شعرت بالأسى حين وصلت الفندق ، وعرفت أن فيديا عاد إلى البيت ، وأمضى عدة دقائق في الغرفة ، ثم انصرف من جديد . يا إلهي أية مشاعر سيطرت علي في تلك اللحظات ، فقد تصورت أنه لم يعد يحبني ، وأنه إذ وجدني بمثل هذا الغباء والعناد ، اقتنع أنه بائس جداً ، فألقى بنفسه في نهر شبري . ومن ثم خطر لي أنه ذهب إلى سفارتنا ليطلقني ، ولإعطائي تصريحاً مستقلاً ، وإعادتي إلى روسيا . ومما زاد في ترسخ هذه الفكرة لدي أنني لاحظت أن فيديا فتح الحقيبة (فلم تكن في محلها ، ثم إن الأحزمة كانت محلولة) . من الواضح أن فيديا أخذ أوراقنا ، وذهب إلى السفارة .

أثقلت هذه الأفكار الرهيبة عليَّ لدرجة أنني انخرطت في البكاء ، ورحت أتهم نفسي بالعناد والقلب القاسي . وقد قطعت على نفسي عهداً أنه إذا

ما تخلى فيدور ميخائيلوفيتش عني، فلن أعود إلى روسيا، بل سأختبىء في إحدى القرى الصغيرة في الخارج، كي أبقى أبكي خسارتي إلى الأبد.

مرت ساعتان على هذه الحالة، وكنت لا أكف كل دقيقة عن القفز من مكاني، والاقتراب من النافذة علني أشاهد فيديا قادماً. وأخيراً، وحينما وصلت درجة اليأس، رأيت فيديا، وأنا أطل من النافذة. كان يسير بشكل عادي، ويداه في جيبي معطفه. شعرت بسرور كبير، وحينما دخل الغرفة ألقيت بنفسي على صدره، وأنا أبكي وأعول. وقد تملكه الخوف وهو يرى عيني الباكيتين، وسألني عما حدث لي. وحينما حدثته بمخاوفي ضحك كثيراً، وقال:

ــ يجب ألا يتحلى الإنسان إلا بقدر قليل من عزة النفس كي يلقي بنفسه، ويغرق في شبري، هذه الساقية الصغيرة التافهة. كما ضحك كثيراً من فكرتي حول الطلاق، وقال إنني لا أعرف بعد مدى حبه لي. صحيح أنه جاء إلى هنا، وفتح الحقيبة لأخذ النقود لتفصيل معطف. وهكذا فقد اتضح كل شيء، وتصالحنا، وكنت في منتهى السعادة.

بعد يومين أمضيناهما في برلين، انتقلنا إلى درسدن، ولما كان ثمة عمل أدبي صعب بانتظار زوجي، فقد قررنا قضاء ما لا يقل عن الشهر هنا. كان فيدور ميخائيلوفيتش مولهاً بحب درسدن، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى متحفها المشهور، وإلى الحدائق الرائعة في ضواحيها. وكان في أثناء رحلاته، يعرج على هذه الأماكن حتماً. ولما كان ثمة في المدينة الكثير من المتاحف فقد

كان فيدور ميخائيلوفيتش يأمل في أن أهتم بها ، وأنا المحبة للاطلاع ، فلا أشعر بالحنين إلى روسيا ، وهذا ما كان يخشاه جداً في المراحل الأولى .

نزلنا في فندق (ستادت برلين) ، أحد أفضل الفنادق آنذاك ، وبعد أن بدلنا ثيابنا اتجهنا إلى متحف درسدن . فقد أراد زوجي أن يعرفني عليه قبل روائع المدينة الأخرى . وقد أكد فيدور ميخائيلوفيتش أنه يعرف جيداً أقرب الطرق المؤدية إلى الرواق ، ولكننا لم نلبث أن ضللنا الطريق ، وهنا حدثت النكتة ، التي يرويها زوجي في إحدى رسائله لي كدليل على بعض الثقل في العقل الألماني . فقد اقترب فيدور ميخائيلوفيتش من سيد يبدو عليه أنه من المثقفين ، وسأله بالألمانية :

ــ هلا أخبرتني من فضلك أين رواق اللوحات ؟

ــ رواق اللوحات ؟

ــ نعم رواق اللوحات .

ــ رواق اللوحات الملكي ؟

ــ نعم رواق اللوحات الملكي .

ــ لست أدري .

لقد استبدت بنا الدهشة ، لماذا راح يستجوبنا ما دام أنه لا يعرف موقع الرواق ؟

على كل حال لم نلبث أن وصلنا إلى الرواق، وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بقي إلا ساعة على موعد الإغلاق فقد قررنا الدخول. اجتاز زوجي جميع القاعات، وقادني إلى لوحة عذراء سيكستين، التي كان يعتبرها من أسمى تجليات العبقرية البشرية. وفيما بعد رأيت أن زوجي يستطيع البقاء ساعات واقفاً أمام هذا الجمال المدهش، وهو في غاية التأثر. وأشير هنا إلى أن الانطباع الأول، الذي تركته لدي هذه اللوحة، كان صاعقاً: فقد خيل إلي أن العذراء، والطفل في يديها، تبدو وكأنها تندفع في الجو للقاء القادمين. وفيما بعد راودني الانطباع نفسه حين دخلت ليلاً كنيسة القديس فلاديمير في كييف، التي كانت تسبح في الأنوار، ورأيت رائعة الفنان فاسنيتسيف. لقد هزت صورة العذراء، ذات الابتسامة الوديعة على وجهها الإلهي، وهي تسير نحوي، هزت روحي، وتركت فيها أبلغ الأثر.

في اليوم نفسه استأجرنا شقة في جوهانس ــ ستراني. كانت الشقة تضم ثلاث غرف: ضيوف، والمكتب، والنوم. أما صاحبة البيت فهي امرأة فرنسية، ترملت منذ عهد قريب. وفي اليوم التالي ذهبنا لشراء قبعة لي، بدلاً من قبعة بطرسبورغ، وقد أجبرني زوجي على تجربة نحو عشر قبعات إلى أن وقع اختياره على تلك، التي تناسبني بشكل مدهش.

حين استقر بنا الوضع بدأت المرحلة السعيدة في حياتي: لم تكن ثمة هموم مالية (لم تكن متوقعة حتى الخريف)، ولم يكن ثمة أشخاص يقفون بيني وبين زوجي. وكانت ثمة إمكانية تامة للتمتع بالجلوس إليه. وعلى الرغم من

عشرات السنين، التي مرت، فإن ذكريات تلك الفترة الرائعة تبقى حية في ذاكرتي.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يحب النظام في كل شيء، بما فيه توزيع وقته، ولذا فلم نلبث أن وضعنا نظاماً محدداً لحياتنا، لم يكن يعيق أياً منا عن القيام بما يحلو له.

ولما كان زوجي يعمل ليلاً فلم يكن ينهض قبل الحادية عشرة، وبعد الفطور كنت أذهب وحدي لمشاهدة مجموعة ما، ومن هذه الناحية فقد أشبعت حبي للمعرفة. وأذكر أنني لم أفوت زيارة أية مجموعة (المعدنية، والجيولوجية، والنباتية). وكانت مشاهداتي لها في غاية الدقة والكمال. وفي الساعة الثانية كان لا بد أن أكون في رواق اللوحات، الذي كان يقوم في شارع تسفينغير، مثله مثل المجموعات العلمية. كنت أعرف أن زوجي سيأتي الرواق في هذا الوقت، فنذهب سوية للتمتع برؤية أحب اللوحات لديه، والتي لم تلبث أن أصبحت لوحاتي المحببة.

(ثم تتحدث دستويفسكيا عن غيرة زوجها، وعن ذهابهما إلى القنصلية الروسية للإعراب عن استنكارهما محاولة اغتيال القيصر اسكندر الثاني، كما تتحدث عن هوايتها في جمع الطوابع...).

بعد ثلاثة أسابيع من وجودنا في درسدن، بدأ زوجي يتحدث عن لعبة الروليت، وتذكرنا رواية (المقامر). ولما كنت لا أنوي أن أقف حجر عثرة في طريق زوجي فقد عرضت عليه أن يسافر إلى هامبورغ لعدة أيام، مؤكدة أنه

لن يحدث لي شيء في غيابه. ولما كان يشعر برغبة عارمة في أن (يجرب حظه)، فقد وافق على اقتراحي، وسافر إلى هامبورغ، ولم يكد القطار يبتعد حتى غلبني البكاء، وبعد مرور يومين أو ثلاثة بدأت أتلقى الرسائل من هامبورغ، وفيها يخبرني بخسائره، ويطلب إرسال النقود، وقد لبيت طلبه، ولكنه خسر ما أرسلت، وعاد يطلب من جديد، فأرسلت بالطبع. ولما كنت أجهل هذه اللعبة ومؤثراتها فقد بالغت في تصور ضررها على زوجي، وخفت أن يصاب بنوبة جديدة، ورحت ألوم نفسي لأنني تركته يسافر وحده، واتهمت نفسي بالأنانية.

بعد ثمانية أيام عاد فيدور ميخائيلوفيتش إلى درسدن وكان في غاية السعادة، لأنني لم أكتف بعدم لومه والتأسف على الأموال، التي خسرها، بل رحت أهدئه وأطمئنه.

تركت السفرة الفاشلة إلى هامبورغ أثرها السلبي على مزاج فيدور ميخائيلوفيتش، فقد أصبح غالباً ما يتحدث عن الروليت، ويأسف للمبالغ التي خسرها، ويعتبر نفسه المسؤول عن الخسارة بأخطائه، وراح يؤكد أن الحظ غالباً ما كان في يديه، ولكنه لم يحسن الإمساك به، فكان يتسرع، ويغير الأرقام، ويجرب الأساليب المختلفة في اللعب. فكانت النتيجة الخسارة. والسبب في ذلك تسرعه وقلقه علي، وهو وحيد في هامبورغ. ثم إنه كان يذهب للعب لفترة قصيرة، وفي جيبه مبلغ ضئيل، ولكن لو استطاع الذهاب إلى مدينة الروليت، والمكوث هناك أسبوعين أو ثلاثة، ولديه مبلغ احتياطي، لا بأس به، فإن الحظ سيكون حليفه من كل بد. حيث لن تكون ثمة حاجة

إلى السرعة، مما سيسمح له باستخدام ذلك الأسلوب الهادىء في اللعب، الذي يؤدي إلى الربح حتماً، إن لم يكن مبلغاً كبيراً، فهو على الأقل كاف لتغطية الخسارة. كان فيدور ميخائيلوفيتش يتحدث بشكل مقنع، ويورد الكثير من الأمثلة برهاناً على صحة رأيه، لدرجة أنه أقنعني. وحينما عرض علي أن نعرج في طريقنا إلى سويسرا على بادن بادن، فنقضي هناك حوالي أسبوعين، وافقت بكل طيبة خاطر، أملاً أن يكون وجودي عاملاً إيجابياً. ولم يكن ثمة فرق لدي أين نعيش، المهم أن نكون سوية.

وحينما قررنا أخيراً السفر إلى بادن بادن، حال الحصول على المال، هدأ فيدور ميخائيلوفيتش وانكبَّ على العمل الصعب وأنجزه ـــ كتابة مقالة عن بيلينسكي. وفيها كان زوجي يريد أن يقول كل ما في قلبه عن هذا الناقد، الذي كان شخصاً عزيزاً على زوجي، حيث كان يقوّم عالياً موهبته النقدية. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش لم يكن يستطيع أن يغفر له موقفه الساخر والتجديفي تقريباً من أفكار دستويفسكي ومعتقداته الدينية.

ولعل الكثير من الانطباعات الثقيلة، التي حملها فيدور ميخائيلوفيتش من علاقته مع بيلينسكي يعود إلى ثرثرة ونميمة أولئك (الأصدقاء)، الذين اعترفوا في البداية بموهبة دستويفسكي، ثم لم يلبثوا أن انفضوا عنه، وراحوا لأسباب أجهلها، يلاحقون صاحب (المساكين)، ويختلقون المزاعم ضده، ويهجونه، ويحاولون إخراجه عن طوره.

وحينما عرض على فيدور ميخائيلوفيتش أن يكتب مقالة عن

(بيلينسكي) انكب على هذا الموضوع الممتع بكل ارتياح ، وفي نيته أن يتحدث فيها عن رأيه النزيه بهذا الناقد .

ومن الواضح أن الكثير من جوانب هذه المقالة لم تكن قد نضجت بعد في ذهن دستويفسكي ، فقد فكر كثيراً ، وقرر وعدل ، لدرجة أنه كتبها خمس مرات ، وفي النهاية لم تنل إعجابه . ففي رسالته إلى ما يكوف (١٥ أيلول ١٨٦٧) كتب يقول : « لقد أنجزت هذه المقالة اللعينة (معرفتي ببيلينسكي) لم تكن ثمة إمكانية للتأجيل والتأخير . علماً بأنني كتبتها صيفاً ، ولكنها عذبتني ، وكانت كتابتها من الصعوبة لدرجة أنني لم أنهها إلا الآن . لقد أخطأت إذ عمدت إلى كتابة مثل هذه المقالة . فلم أكد أبدأ بها حتى أدركت أنني عاجز عن كتابتها بشكل مهذب (لأنني أردت أن أكتب كل شيء) . إن كتابة رواية بعشر ملازم أسهل من كتابة هذه المقالة بملزمتين . وكانت النتيجة أنني كتبت هذه المقالة خمس مرات ... ولكنها في غاية القبح والحقارة لدرجة تثير الغثيان ... » .

ومن المعروف أن هذه المقالة لا تزال مفقودة ، فقد ضاعت في طريقها إلى الناشر . وقد حزن زوجي كثيراً لضياعها سيما وأنه بذل في كتابتها الكثير من الجهد .

في نهاية حزيران وصلتنا النقود من (البشير الروسي) فقررنا السفر فوراً . كنت أشعر بالأسف الصادق لمغادرة درسدن ، حيث كانت حياة جيدة سعيدة . وحدثتني نفسي بشكل مبهم أن الكثير سيتغير في مزاجنا في الظروف

الجديدة. ولم أكن على خطأ في حدسي: فحين أتذكر الأسابيع الخمسة التي أمضيناها في بادن بادن، وأقرأ ما كتبت في يومياتي المختزلة، أتوصل إلى قناعة بأن ذلك كان كابوساً سيطر على زوجي، ولم يترك له فرصة للتخلص من قيوده الثقيلة.

كانت كل أقوال فيدور ميخائيلوفيتش عن إمكانية الربح بالروليت بأسلوبه في اللعب صحيحة، وكان يمكن أن يكون النجاح تاماً. ولكن شرط أن يستخدم هذا الأسلوب رجل رابط الجأش إنكليزي، أو ألماني، وليس الإنسان العصبي، الهاوي، والمفرط في الحماسة في كل شيء، كما كان زوجي. وبالإضافة إلى البرودة والقدرة على التحمل، فإن على لاعب الروليت أن يملك مبالغ كبيرة، كي يستطيع تحمل الخسارة. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان يعاني من ذلك أيضاً. فلم يكن لدينا إلا مبلغ ضئيل نسبياً، ثم أنه لم يكن ثمة مصدر آخر للحصول على المال في حال الخسارة. وهكذا فلم يمض أسبوع حتى خسر فيدور ميخائيلوفيتش كل ما لدينا. وهنا استبد بنا القلق: فمن أين نأتي بالمال لمتابعة اللعب، واضطررنا إلى رهن حاجياتنا. ولكن حتى الرهونات لم تكن كافية، حيث كان يحدث أن يخسر كل ما حصل عليه من مكتب الرهونات. وقد صدف أنه كان يخسر كل ما لديه حتى آخر تالير، ومن جديد يحالفه الحظ، فكان يعود إلى البيت ومعه عدة عشرات من الأوراق ذات العشرين تاليراً. وأذكر أنه عاد ذات مرة وفي محفظته حوالي ٤٣٠٠ تالير. ولكن هذا المبلغ لم يبق معنا طويلاً، فلم يستطع فيدور ميخائيلوفيتش الصبر فقبل أن يسترد هدوءه أخذ عشرين تاليراً وخسرها، ثم عاد فأخذ عشرين

أخرى، وخسرها .. وهكذا استمر يعود، ويخسر إلى أن خسر المبلغ كله خلال ساعتين أو ثلاث. ومن جديد عدنا إلى الرهن.

ولما كانت المجوهرات لدينا قليلة فلم يلبث هذا المعين أن ينضب. وفي الوقت نفسه بدأت الديون تتراكم، وأصبحنا نشعر بها، لأننا أصبحنا مدينين لصاحبة البيت، وهي حيزبون تافهة، لم تكد ترى ضيق ذات يدنا حتى عمدت إلى إهمالنا وحرماننا من الكثير من الخدمات، التي كانت من حقنا حسب الاتفاق معها. وكتبنا الرسائل إلى أمي، ورحنا ننتظر وصول المال على أحر من الجمر. ولكنه كان ينفق في اليوم نفسه، أو في اليوم التالي على اللعب، ونعود، بعد أن ندفع بعض الديون العاجلة (أجرة الشقة، وجبات الغداء.. إلخ).

كنا خاليي الوفاض، نفكر كيف يمكننا الحصول على المبلغ الكافي لتسديد ديوننا، والرحيل أخيراً من هذا الجحيم، دون تفكير بالربح.

أقول عني نفسي إنني كنت بكل رباطة جأش أتقبل (ضربات القدر)، التي كنا نوجهها لأنفسنا طائعين. وقد توصلت إلى قناعة تامة بأن فيدور ميخائيلوفيتش لا يمكن أن يربح، صحيح أنه قد يربح مبلغاً كبيراً، ولكنه لن يلبث أن يخسر هذا المبلغ إن لم يكن في اليوم نفسه ففي اليوم التالي حتماً، وأن كل توسلاتي ورجائي في أن لا يذهب إلى الروليت، ويتوقف عن اللعب لن تجدي فتيلاً.

في البداية تساءلت باستغراب: كيف يفتقر فيدور ميخائيلوفيتش،

الذي تحمل برجولة الكثير من المصائب (سجن القلعة، منصة الإعدام، النفي، موت أخيه المحبوب وزوجته) إلى قوة الإرادة اللازمة للتوقف عند حد معروف من الخسارة، وعدم المخاطرة بآخر تالير لديه. حتى إن ذلك بدا لي إذلالاً غير لائق بشخصيته السامية. وكنت أشعر بالألم والأسى وأنا أرى نقطة الضعف هذه لدى زوجي العزيز. ولكنني لم ألبث أن أدركت أن ذلك ليس مجرد (ضعف إرادة) بل رغبة جامحة ونزوة عارمة، شيء عفوي يستحيل حتى على الشخصية الصلبة التصدي له.

هذا ما كان يجب الرضوخ إليه والنظر إلى التعلق باللعب كمرض لا دواء له. وليس ثمة من وسيلة لمكافحته إلا في الهرب. ولكن لم يكن بوسعنا أن نهرب من بادين قبل الحصول على مبلغ كبير من روسيا.

ويجب أن أنصف نفسي: فلم يحدث أبداً أن لمت زوجي على خسارته، ولم يحدث أبداً أن تشاجرت معه بسبب ذلك (كان زوجي يقدر هذه الصفة لديَّ عالياً)، ودون أي تذمر كنت أعطيه آخر ما لدينا، وأنا أعرف أن حاجياتي، التي لم تسترد في وقتها، لن تستعاد أبداً (وهذا ما حدث فعلاً)، وأعاني من صاحبة البيت والدائنين الصغار.

ولكن كان يحز في نفسي أن أرى مدى معاناة فيدور ميخائيلوفيتش: كان يعود من الروليت (لم يحدث أن اصطحبني معه، لأنه كان يعتبر أن صالة اللعب لا تليق بالمرأة الشابة المهذبة) شاحب اللون مستنزفاً، منهكاً يكاد ألّا يقف على قدميه، ويطلب المال مني (كان يضع كل النقود معي)، وينصرف،

ثم يعود بعد نصف ساعة أو أكثر متجهماً، ليطلب النقود من جديد، ويستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ينتهي كل ما لدينا.

وحين لم يكن ثمة نقود، ولم يكن ثمة من مصدر للحصول عليها، كان فيدور ميخائيلوفيتش في منتهى الكآبة والانهيار، ويبدأ العويل، ويركع أمامي طالباً الصفح والمغفرة، لأنه يعذبني بسلوكه، وكان يصل مرحلة القنوط. فكنت أبذل قصارى جهدي من أجل تهدئته وطمأنته من خلال تصوير وضعنا بأنه ليس بمثل هذا اليأس، وابتكار مخرج ما، وصرف انتباهه إلى شيء آخر. وكم كنت أشعر بالغبطة والسعادة حين كنت أتمكن من ذلك. فكنت أصطحبه إلى المكتبة لتصفح الجرائد، أو نقوم بنزهة طويلة، وكان ذلك ذا تأثير إيجابي على زوجي. قطعنا عشرات الفراسخ سوية في ضواحي بادين في الفترات الطويلة الفاصلة بين الحصول على النقود. وحينذاك كان يستعيد مزاجه الطيب والمرح. فكنا نتحدث ساعات طويلة عن أشياء مختلفة. وكان الذهاب إلى القلعة الجديدة من أحب النزهات إلينا، ومن هناك كنا نسير إلى القلعة القديمة عبر الممرات الغابية الرائعة، حيث نشرب الحليب أو القهوة، كما كنا نسير إلى قلعة ارينبريتشتين (ثمانية فراسخ عن بادين)، وهناك كنا نتناول طعام الغداء ولا نعود إلا مع غروب الشمس. كانت نزهاتنا جيدة وأحاديثنا شيقة، لدرجة أنني كنت، على الرغم من عدم وجود النقود، ومضايقات صاحبة المنزل، على استعداد لأن أحلم بتأخر وصول النقود من بطرسبورغ، ولكن النقود كانت تأتي، وتتحول حياتنا الوادعة إلى كابوس.

لم يكن لدينا معارف في بادن. وفي إحدى المرات التقينا في المنتزه

الكاتب غونتشاروف ، وقد عرفني زوجي عليه ، وكان مظهره يذكرني ، بموظفي بطرسبورغ ، كما بدا لي حديثه عادياً ، وهكذا فقد شعرت بخيبة أمل من هذا التعارف ، حتى إنني لم أكن أريد أن أصدق أن هذا هو مؤلف (أبلوموف) ، الرواية التي نالت إعجابي .

كما زار فيدور ميخائيلوفيتش إيفان تورغينيف ، الذي كان في بادن بادن آنذاك . ولكنه عاد من عنده مضطرباً . وقد روى لي حديثه معه .

وضع سفرنا من بادن بادن حداً للمرحلة العاصفة في حياتنا في الخارج . ومن جديد كانت (البشير الروسي) هي التي أنقذتنا . ولكن كان قد تراكم علينا الكثير من الديون والرهونات ، فدفعنا كل النقود تقريباً لتسديدها . وكان أكثر ما حزّ في نفسي أنني لم أتمكن من فك رهن المشبك والقرطين الماسيين ــ هدية زوجي الغالية على قلبي . وقد فقدتها إلى الأبد .

في البداية أردنا الانتقال من بادن بادن إلى إيطاليا ، ولكن بعد أن حسبنا ما لدينا قررنا المكوث في جنيف لبعض الوقت ، ريثما يتحسن الوضع ، فننتقل إلى الجنوب . وفي طريقنا إلى جنيف توقفنا يوماً في بال ، بغية زيارة المتحف المحلي ، ورؤية اللوحة ، التي سمع زوجي بها من أحدهم . وتمثل هذه اللوحة ، وهي بريشة غانس غولبين ، السيد المسيح ، بعد أن أنزل عن الصليب ، وتعرض لأقسى أشكال التعذيب الوحشي . وكان وجهه المتورم مغطى بالجراح الدامية ، وكان منظره في غاية الفظاعة . تركت اللوحة انطباعاً كئيباً لدى فيدور ميخائيلوفيتش (وفيما بعد صور انطباعه عن هذه اللوحة في رواية

الأبله). أما أنا فلم أكن قادرة على النظر إلى اللوحة: كان الانطباع ثقيلاً جداً، خاصة بالنسبة لوضعي المرضي، فذهبت إلى القاعات الأخرى. وحينما عدت بعد ١٥ ــ ٢٠ دقيقة وجدت أن فيدور ميخائيلوفيتش لا يزال يقف أمام اللوحة، وكأنه سُمِّرَ في مكانه، وعلى وجهه المضطرب كانت تبدو ملامح الخوف، التي سبق لي أن لاحظتها أكثر من مرة في اللحظات الأولى من نوبة الصرع. أخذت زوجي بكل رفق من يده، وسرت به إلى قاعة أخرى. حيث أجلسته في مقعد، وأنا أنتظر حدوث النوبة بين دقيقة وأخرى. ولحسن الحظ أن ذلك لم يحدث، فقد استرد فيدور ميخائيلوفيتش هدوءه شيئاً فشيئاً، ولدى مغادرة المتحف أصر أن يلقي نظرة أخيرة على اللوحة، التي تركت لديه مثل هذا الانطباع.

لم نكد نصل جنيف حتى بدأنا في اليوم نفسه بالبحث عن غرفة مفروشة. وقد طفنا مختلف الشوارع الرئيسية، وشاهدنا عدة غرف مفروشة. ولكن دون جدوى، فقد كانت الغرف، إما غالية علينا، وإما في بيوت كثيرة الازدحام. ولم يكن وضعي يسمح بذلك. وعند المساء فقط تمكنا من العثور على شقة صغيرة مناسبة جداً. فقد كانت زاوية على شارعين في الطابق الثاني، ومن نافذتها الوسطى كان يبدو الجسر على نهر الرون وجزيرة جان جاك روسو. ثم إننا أعجبنا بصاحبتي البيت، وهما العانستان ريموندين، اللتان رحبتا بنا، وأولتاني اهتمامهما. وهكذا قررنا النزول عندهما دون تردد.

بدأنا حياتنا في جنيف بمبلغ زهيد جداً: فبعد أن دفعنا أجرة شهر مسبقاً لم يبق لدينا، بعد أربعة أيام من وصولنا، سوى ثمانية عشر فرنكاً،

بالإضافة إلى مبلغ خمسين روبلاً كنا ننتظر الحصول عليه. ولكننا كنا قد تعودنا تدبير أمورنا بمبالغ زهيدة. وحينما كان ينضب معينها كنا نعيش على رهن حاجياتنا. ولذا فقد بدت لنا حياتنا، خاصة عقب المعاناة الأخيرة، في منتهى البهجة.

وهنا، كما في درسدن تم توزيع وقتنا بشكل منظم: كان فيدور ميخائيلوفيتش يعمل ليلاً، ولا يستيقظ قبل الحادية عشرة، وبعد تناول الفطور سوية كنت أذهب للتنزه، بناء على تعليمات الطبيب. بينما كان فيدور ميخائيلوفيتش ينصرف إلى عمله. وفي الثالثة كنا نذهب إلى المطعم لتناول طعام الغداء. وبعد ذلك كنت أخلد للراحة، أما زوجي فكان يرافقني حتى البيت، ثم يعرج على مقهى في شارع مونت بلاس، حيث يمضي حوالي الساعتين في مطالعة الصحف الروسية: (الصوت)، (الوقائع الموسكوفية)، و(البطرسبورغية). بالإضافة إلى الصحف الأجنبية، وفي الأمسيات كنا نذهب للنزهات الطويلة، وكي لا أشعر بالتعب كنا غالباً ما نتوقف لدى الواجهات الساطعة في المخازن الفاخرة. فكان فيدور ميخائيلوفيتش يشير إلى تلك المجوهرات التي كان سيهديني إياها لو أنه كان غنياً. ويجب أن ننصف ذوق زوجي الفني، فقد كانت الأشياء التي يقع عليها اختياره في منتهى الروعة.

كانت الأمسيات تمر، إما في إملاء مؤلف جديد، أو في مطالعة الكتب الفرنسية، وكان زوجي يهتم بأن أطالع، وأدرس أعمال كاتب واحد، دون شغل تفكيري بأعمال الكتّاب الآخرين. وكان فيدور ميخائيلوفيتش

يثمن عالياً أعمال بلزاك وجورج صاند. فكنت أقرأ رواياتهما بالتدريج. وفي أثناء نزهاتنا كنا نناقش ما قرأت. فكان زوجي يوضح لي كل إيجابيات الأعمال التي طالعت. وكنت أشعر بالدهشة من قدرة فيدور ميخائيلوفيتش على تذكر حبكة الروايات، وأسماء الأبطال لدى هذين الكاتبين المحبوبين، وهو المعروف بنسيانه للأحداث القريبة العهد. وأذكر أن زوجي كان يحب كثيراً رواية (الأب غوريو). وفي شتاء ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨ قرأ فيدور ميخائيلوفيتش رائعة فكتور هيجو (مذلون ومهانون) ـ المقصود البؤساء ـ.

كان معارفنا في جنيف قلة، وكان فيدور ميخائيلوفيتش لا يحب إقامة علاقات التعارف الجديدة. ومن بين المعارف القدامى التقى في جنيف ن. ب. أوغاريف، الشاعر المعروف، صديق هيرتسن، وكانا قد تعارفا لديه. كان أورغاريف غالباً ما يزورنا، ويحضر لنا الكتب والصحف، حتى إنه أقرضنا عشرة فرنكات أكثر من مرة، وكنا نعيدها حال ظهور المال لدينا. كان فيدور ميخائيلوفيتش يثمن الكثير من أشعاره. وكنا كلانا سعيدين بزياراته. كان أوغاريف في تلك الآونة كهلاً عجوزاً. وقد صادقني بشكل خاص. وكان يكن لي كل ود، والذي أدهشني أنه كان يعاملني معاملة فتاة صغيرة، والواقع أنني كنت كذلك. وللأسف الشديد أنه لم تمض سوى أشهر ثلاثة حتى انقطعت زيارات هذا الإنسان الطيب، فقد جرى له حادث مؤسف: فبينما كان عائداً إلى الفيلا في ضواحي المدينة أصيب بإحدى النوبات فوقع في الساقية، وكسرت رجله. ولما كان ذلك قد حدث في المساء فقد أمضى المسكين الليل بكامله راقداً في هذا المكان المهجور، فأصيب بنزلة قوية. وقد نقله أصدقاؤه

للعلاج في إيطاليا . وهكذا فقدنا صديقنا الوحيد في جنيف ، الذي كنا نشعر بمتعة مجالسته والحديث إليه .

وفي بداية أيلول ١٨٦٧ عقد في جنيف مؤتمر السلم ، وقد حضر حفل الافتتاح جوزيب غاريبالدي . وقد استعدت المدينة كلها للقائه . وذهبت مع زوجي إلى شارع مونت بلاس ، حيث كان سيمر بعد وصوله بالقطار . كانت المنازل مزدانة بالخضرة والأعلام ، وكانت طريقه تغص بالجماهير الغفيرة . كان غاريبالدي يقف في العربة في ثوبه الزاهي ، وهو يلوح بقبعته تحية للجماهير المحتشدة . وقد تمكنا من رؤيته عن كثب ، ووجد زوجي أن وجه البطل الإيطالي في غاية الجمال ، وأنه ذو ابتسامة طيبة .

ولما كنا نهتم بمؤتمر السلم فقد حضرنا جلسته الثانية ، وبقينا ساعتين نصغي إلى خطب الخطباء . وقد خرج فيدور ميخائيلوفيتش بانطباع لا يطاق من هذه الخطب . وفيما بعد كتب في إحدى رسائله يقول : « بدأوا من أن تحقيق السلام على الأرض يتطلب استئصال الدين المسيحي والقضاء على الدول الكبيرة ، وتحويلها إلى صغيرة ، واستبعاد كل الرساميل ، وأن يكون كل شيء مشتركاً ، حسب الأوامر وغير ذلك . كل ذلك دون أي برهان . كل ذلك محفوظ عن ظهر قلب منذ عشرين عاماً ، ولا يزال . المهم ــ النار والسيف ــ وبعد أن ينتهي كل شيء ، حينذاك ــ برأيهم ــ سيحل السلام » .

وللأسف أننا لم نلبث أن ندمنا على اختيار جنيف مكاناً لإقامتنا . ففي الخريف بدأت الزوابع الحادة ، وأصبح الطقس يتقلب مرتين ــ ثلاث في اليوم ،

وكانت هذه التقلبات ذات تأثير سيء على أعصاب زوجي ، وازداد حدوث نوبات الصرع ، مما أثار قلقي . وقد ضاعف من اكتئاب فيدور ميخائيلوفيتش أنه كان لا بد من العمل . ولكن النوبات الكثيرة كانت تحول دون ذلك .

في خريف ١٨٦٧ كان فيدور ميخائيلوفيتش منصرفاً إلى وضع خطة رواية (الأبله) وكتابتها ، وكان من المفروض أن تنشر في الكتيبات الأولى ، التي ستصدر عن (البشير الروسي) في عام ١٨٦٨ . كانت فكرة الرواية فكرة قديمة ومحببة لتصوير إنسان رائع ، ولكن هذه المهمة كانت تبدو لزوجي دون حدود . كل ذلك كان ذا تأثير سلبي على أعصابه . ومما زاد في الطين بلة أنه كان يعتقد ـــ خاطئاً ـــ أنني أشعر بالملل ولست سعيدة . كان يشعر بالألم لأنه لا يملك المال للانتقال إلى باريس لأتسلى بالتردد على المسرح ، وعلى اللوفر . ولكن زوجي لم يكن يعرفني آنذاك بشكل جيد .

وباختصار فإن كآبة زوجي كانت تزداد ، وبغية صرفه عن الأفكار المحزنة أوحيت له بفكرة السفر إلى ساكسون لي فانيز ، ليجرب حظه في الروليت من جديد (تقع ساكسون لي فانيز على بعد خمس ساعات سفر من جنيف ، ولكن الروليت ، التي كانت هناك ، توقفت منذ عهد بعيد) . وقد وافق فيدور ميخائيلوفيتش على فكرتي . وفي تشرين الأول ـــ تشرين الثاني ١٨٦٧ سافر إلى ساكسون لعدة أيام . وكما توقعت فإنه لم يكسب أية منفعة مادية من الروليت . ولكن المنفعة المعنوية كانت كبيرة . فقد ولّد تغيير المكان والسفر والعودة المعاناة العاصفة . كل ذلك أدّى إلى إحداث تغيير جذري في مزاجه . وهكذا فلم يكد يعود إلى جنيف حتى انكب على العمل بحماسة ،

وخلال ثلاثة وعشرين يوماً أنجز ما يقرب من ست ملازم (٩٣ صفحة) لكتيب كانون الثاني.

بعد كتابة الجزء الأول من رواية (الأبله) كان فيدور ميخائيلوفيتش مستاء، وكان يقول إنه لم يوفق فيه. وبالمناسبة فإن زوجي كان في منتهى الصراحة مع نفسه، ونادراً ما كان يمتدح أعماله. في بعض الأحيان كان فيدور ميخائيلوفيتش يعرب عن اغتباطه بأفكار رواياته. ويحبها، ولا يكف عن التفكير بها، ولكنه لم يكن راضياً عن تجسيدها في مؤلفاته إلا في حالات نادرة جداً.

كان الوقت يمر، وبدأنا ننتظر الحدث الهام في حياتنا ـ ولادة بكرنا. فكانت أغلب أفكارنا وأحلامنا تصب في هذا الحدث السعيد. وبدأنا نشعر بالحب والحنان للطفل القادم. وقد اتفقنا أن نسميه، إذا ماكان صبية، صوفيا (رفضت اسم آنا كما اقترح زوجي) تيمناً بابنة أخته المحبوبة، وعلى اسم (سونيا مرميلادوف) بطلة رواية (الجريمة والعقاب) ـ المترجم، المسكينة التي طالما بكيت شفقة عليها وتألماً لها. أما إذا كان صبياً فقد اتفقنا على إعطائه اسم ميخائيل، على اسم أخ زوجي المحبوب.

(ثم تتحدث الكاتبة عن مدى اهتمام زوجها بها، وسهره على راحتها والعناية بها إلى أن كان يوم الوضع).

مع بداية عام ١٨٦٨ كان الطقس في جنيف رائعاً. ولكن منذ منتصف شباط حدث انعطاف، وبدأت العواصف اليومية. وكما هي العادة

فإن تغير الطقس بشكل مفاجيء كان ذا تأثير سلبي على أعصاب فيدور ميخائيلوفيتش، فخلال فترة زمنية قصيرة أصيب بنوبتين. كانت الثانية هي الأقوى، وقد أصابته ليل العشرين من شباط (فبراير)، واستنزفت قواه لدرجة أنه حين استيقظ في الصباح كان يكاد ألّا يقف على قدميه. وكان النهار عصيباً بالنسبة له. وإذ رأيت مدى ضعفه أقنعته بالرقاد مبكراً. فنام في السابعة. ولم تمض ساعة على هجوعه للنوم حتى شعرت بالألم، كان قليلاً في البداية. ولكنه كان يتزايد من ساعة لأخرى. ولما كان الألم غير عادي فقد أدركت أن الوقت قد حان. تحملت الألم قرابة ثلاث ساعات. وفي النهاية شعرت بالخوف من البقاء وحيدة، وعلى الرغم من شفقتي على زوجي المريض، وعدم رغبتي في إيقاظه، فقد وجدت أن لا مندوحة من ذلك. وهكذا فقد مددت يدي بهدوء، ولامست كتفه، وللحال رفع فيدور ميخائيلوفيتش رأسه عن الوسادة وسأل:

ــ ماذا بك يا آنيتشكا؟

فأجبت: يبدو أنها البداية، أشعر بالألم.

ــ كم أرثي لحالتك يا عزيزتي ــ قال زوجي بصوت شفوق، وفجأة مال رأسه على الوسادة، وعاد إلى النوم فوراً. وقد تأثرت بحنانه النزيه وبعجزه التام، وأدركت أنه في وضع لا يستطيع فيه الذهاب في طلب (الداية)، وأنه إن لم يعطَ الفرصة لتقوية أعصابه المضطربة، فسيضاب بنوبة جديدة، وكما هي العادة فإن أصحاب البيت لم يكونوا موجودين. وكان من المستحيل اللجوء إلى

الخادمة. ولحسن الحظ أن الألم خف إلى حد ما، فقررت التحلي بالصبر ما استطعت. ولكن أية ليلة أمضيت: كانت الريح تتلاعب بالأشجار المحيطة بالكنيسة، وكان المطر يقرع النافذة، وفي الخارج كان الظلام الدامس يخيم على الكون. ولا أخفي أنني شعرت بوطأة الوحدة والعجز، وكم شعرت بالمرارة لأنني في مثل هذه الساعات القاسية من حياتي لا أجد إلى جانبي أياً من أقربائي، وأن زوجي، الذي يعتبر سندي الوحيد، في حالة يرثى لها، فرحت أصلّي بخشوع، وقد رفعت الصلاة معنوياتي المنهارة.

عند الفجر ازداد الألم، وحوالي الساعة السابعة قررت إيقاظ فيدور ميخائيلوفيتش، استيقظ وقد استرد قواه بشكل ملحوظ. ولم يكد يعرف أنني تعذبت الليل بطوله حتى تملكه الفزع، وراح يلومني لأنني لم أوقظه قبل الآن، وفي لحظة ارتدى ثيابه، وانطلق في طلب (الداية) مدام بارود. ولكن الخادمة رفضت إيقاظ سيدتها بحجة أنها لم تعد من السهرة إلا منذ وقت قصير. وعند ذاك هدد فيدور ميخائيلوفيتش بأنه سيستمر في قرع الجرس، أو سيحطم الزجاج. أيقظوا (الداية)، وبعد ساعة عاد بها زوجي. وقد وبختني على الكثير مما قمت به عن جهل، وأكدت لي أن طيشي سيؤخر الطلق، الذي لن يبدأ قبل سبع ــ ثماني ساعات، ووعدت بالقدوم في ذلك الوقت. وهكذا جلسنا ننتظر على أحر من الجمر. ولكن (الداية) لم تعد في الساعة المحددة، فانطلق زوجي في طلبها من جديد. ولكنه وجد أنها ذهبت لتناول طعام الغداء عند أصحابها، في مكان قريب من المحطة. توجه فيدور ميخائيلوفيتش إلى هناك، وأصر على قدومها لترى في أية حالة أنا. وقد أكدت أن الأمور تسير بشكل

سيء، وأن الوضع لن يتم إلا في ساعة متأخرة من المساء. وبعد أن قدمت لي بعض النصائح ذهبت لتناول الغداء، وبقيت أتعذب، بينما كان فيدور ميخائيلوفيتش ينظر إلي بألم. ولم تكد الساعة تشير إلى التاسعة حتى فقد القدرة على الصبر، وانطلق في طلب مدام بارود، فوجدها مع أصدقائها يلعبون اللوتو، فأخبرها بأنني أقاسي الأمرين، وحذرها من أنه، في حال رفضها مرافقته، والبقاء قرب سريري، سيذهب إلى الطبيب، ويطلب منه تعيين (داية) أكثر اهتماماً بواجباتها. وقد أتى هذا التهديد أكله، وكان يبدو أن مدام بارود ساخطة لأنها أبعدت عن لعبتها الممتعة، وأعربت لي عن ذلك أكثر من مرة، وهي تضيف: «أوه هؤلاء الروس، هؤلاء الروس»[1].

ومن أجل ترضيتها أحيا فيدور ميخائيلوفيتش عشاء فاخراً لها. فاشترى مختلف المازوات والحلويات والنبيذ. وقد شعرت بالارتياح لأن الذهاب في طلب (الداية) والجري من مخزن إلى آخر وتحضير المائدة، كل ذلك صرف انتباهه عن وضعي، ولو إلى حين. وإلى جانب عذاب الوضع كنت أتعذب لعذابه، وهو الذي لما يبل من تأثير النوبات بعد. كان وجهه مفعماً بالمعاناة واليأس، وبين الفينة والأخرى كنت أراه ينتحب. وبدأت أتخوف من أن أكون على عتبة الموت. وإنني، إذا أتذكر مشاعري وأفكاري آنذاك، أقول إنني لم أشفق على نفسي بقدر ما أشفقت على زوجي المسكين، الذي كان يمكن لموتي أن يشكل كارثة بالنسبة له. وأدركت ــ آنذاك ــ مدى الآمال الكبيرة، التي كان زوجي

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

العزيز يعلّقها علي وعلى طفلنا القادم. وكان من شأن تداعي هذه الآمال المفاجيء، أن يقود إلى هلاك فيدور ميخائيلوفيتش المندفع والمتحمس. ومن المحتمل أن يكون قلقي على زوجي واضطرابي قد زادا في بطء الطلق (وهذا ما اكتشفته مدام بارود). وحظرت على زوجي في نهاية الأمر، دخول غرفتي، مؤكدة له أن منظره المحزن يزعجني، وقد رضخ فيدور ميخائيلوفيتش، ولكنني ازددت قلقاً. وكنت في الفترات التي يخف فيها الألم، أطلب من (الداية) تارة، ومن المربية تارة أخرى، أن ينظرا ماذا يفعل زوجي، فكانتا تخبرانني أنه يصلي، وهو راكع على ركبتيه، أو مستسلم للتفكير العميق، وقد غطى وجهه بيديه. كان عذابي يزداد ساعة فساعة، وكنت أفقد وعيي أحياناً، وحين أسترده، وأرى من حولي، يتملكني الخوف، ولا أفهم أين أنا، وماذا يجري لي.

أخيراً، وحوالي الخامسة من صباح الثاني والعشرين من شباط (فبراير)، انتهى عذابي، وولدت ابنتنا سونيا. وفيما بعد حدثني فيدور ميخائيلوفيتش كيف تناهى إلى سمعه، وهو يصلي من أجلي، ومن خلال تأوهاتي، صياح غريب، يشبه صوت طفل. ولم يصدق أذنيه. وإذ سمع صياحه من جديد أدرك أن الطفل قد ولد، ولفرط سعادته قفز من ركوعه، واقتحم الباب المغلق بالرتاج، وركع على ركبتيه إلى جانبي، وراح يقبل يدي. وبدوري كنت في منتهى السعادة، لأن عذابي انتهى، وكنا كلانا متأثرين لدرجة أننا في الدقائق الخمس ــ العشر الأولى لم نعرف بمن رزقنا. وقد سمعنا إحدى النسوة الحاضرات تسأل: صبي أليس كذلك؟[٢] فتجيب أخرى: بنت،

(٢) بالفرنسية في الأصل.

بنت ساحرة[٣]، ولكن سيان عندنا من كان، لقد كنا في غاية السعادة بتحقق حلمنا، وولادة بكرنا.

وفي هذا الوقت كانت مدام بارود قد زينت الوليد، وهنأتنا بولادة ابنتنا، وقدمتها لنا في لفة بيضاء كبيرة، فرسم عليها فيدور ميخائيلوفيتش علامة الصليب، بكل خشوع، ثم قبلها في وجهها المجعد، وهو يقول: «انظري يا آنيا كم هي رائعة». وبدوري رسمت علامة الصليب، وقبلتها، وشعرت بالسرور وأنا أرى مدى سعادة زوجي. كان سعيداً كما لم يكن من قبل.

وفي ذروة سعادته اندفع فيدور ميخائيلوفيتش يحتضن مدام بارود، وشد على يد الممرضة أكثر من مرة، وقالت لي القابلة إنه لم يسبق لها، طيلة سنوات عملها الطويلة، أن رأت أباً بمثل هذا القلق والتأثر، الذي كان عليه زوجي. ومن جديد عادت تقول: «أوه يا لهؤلاء الروس، هؤلاء الروس». ثم أرسلت الممرضة إلى الصيدلية لشراء حاجة ما، بينما تركت فيدور ميخائيلوفيتش يجلس إلى جانبي كي لا أغفو[٤].

ثم أخبرت مدام بارود فيدور ميخائيلوفيتش بأن القوانين السويسرية تلزم أب الطفل الوليد بالإعلان شخصياً عن ذلك في الشرطة، والحصول على شهادة قانونية. وأوصته بضرورة القيام بذلك على جناح السرعة، وإلا تعرض

---

(٣) بالفرنسية في الأصل.

(٤) في رواية (الشياطين) وفي مشهد وضع زوجة شاتوف يصف فيدور ميخائيلوفيتش الكثير من مشاعره لدى ولادة ابنتنا الأولى. (الملاحظة بقلم الكاتبة).

للغرامة ، أو حتى للاعتقال . وفي اليوم التالي توجه فيدور ميخائيلوفيتش إلى المؤسسة المحددة ، وظل غائباً ما يقرب من أربع ساعات مما أثار مخاوفي ، وقد صور لي مرضي أشياء فظيعة حدثت له . أخيراً عاد فيدور ميخائيلوفيتش وروى لي الحادثة التي جرت له ، فحين وصل القسم اكتشف أن على والد الطفل أن يأتي بشاهدين قادرين على إثبات شخصية الوالدين والواقعة . وراح فيدور ميخائيلوفيتش يشرح للموظف بأنه أجنبي ، وأنه لا يعرف أحداً في جنيف ، ولكن الموظف لم يصغ له ، وانتقل إلى الزائر التالي . غادر فيدور ميخائيلوفيتش المركز ، وهو يضرب أخماساً بأسداس ، ثم انبرى يسأل الرقيب المناوب لدى الباب ، وللحال أخرجه من هذه الورطة ، إذ اقترح أن يكون شاهده . ولكن ليس قبل قدوم زميله ، الذي سيأتي ليحل محله بعد ساعة ونصف ، وحينما سأل فيدور ميخائيلوفيتش من أين يأتي بالشاهد الثاني اقترح الرقيب زميله . كان كل شيء على ما يرام ، ولكن لا بد من الانتظار ، وبناء على نصيحة الرقيب جلس فيدور ميخائيلوفيتش على كرسي الرصيف ، وهو في غاية القلق لأنه لا يستطيع العودة إلى البيت إلا بعد وقت طويل . وفي الوقت المحدد ذهب الرقيبان وزوجي إلى الموظف المختص .

.. وعلى الرغم من أنني تعافيت من المرض بسرعة إلا أن ساعات المخاض الثلاث والثلاثين أنهكتني ، وعلى الرغم من أنني بدأت إرضاع الطفلة بكل سرور ، إلا أنني لم ألبث أن اقتنعت بأن الحليب ضروري ، لأنها كانت كبيرة الحجم ، صحيحة الجسم ، وبحاجة إلى الكثير من الطعام . ولم يكن بالإمكان أخذ مرضع لها . ففي سويسرا كانت الرضاعة تتم بشكل اصطناعي ــ حليب

البقر مع بعض المسحوق المغذي. وكانت بعض الأمهات يرسلن أطفالهن إلى الجبال لمسافة خمسين فرسخاً، حيث تقوم الفلاحات بإرضاعهن. ولم يكن معقولاً وضع سونيا في أيد غريبة، ثم إن الأطباء لم ينصحوا بذلك، لأن قلة عناية الفلاحات بالأطفال أدت إلى موت الكثيرين منهم.

وحينما عاد النظام يخيم فوق منزلنا، بدأت الحياة، التي تركت لدي أكثر الذكريات سعادة. ولحسن الحظ أن فيدور ميخائيلوفيتش كان أباً رؤوفاً، فقد كان يحضّر حمام الصغيرة، ويساعدني، وكان يلفها في الحرام (البيكة)، ويثبته بالدبوس، وكان يحملها، ويهدهدها، وكان يترك أشغاله، ويندفع نحوها حال سماع صوتها. وكان سؤاله الأول، لدى استيقاظه، أو عودته إلى البيت: كيف سونيا؟ معافاة؟ هل نامت جيداً؟ أكلت؟ كان فيدور ميخائيلوفيتش يمضي الساعات جالساً لدى سريرها، تارة يغني لها، وأخرى يحدثها. ولم تكد تدخل الشهر الثالث من عمرها حتى اقتنع أن سونيتشكا تعرفه. وهاكم ما كتبه في رسالته إلى مايكوف في ١٨ أيار ١٨٦٨:

«إن هذا (الكائن) الصغير، ذا الثلاثة أشهر، المسكين، الضئيل الحجم، قد أصبح بالنسبة لي وجهاً وشخصية. فقد بدأت تعرفني، وتحبني. فكانت تبتسم حين أقترب، وحينما كنت أغني لها بصوتي المضحك كانت تحب الإصغاء، ولم تكن تبكي ولا تقطب حين كنت أقبلها، كانت تتوقف عن البكاء حين أقترب منها».

ولكن لم يكن مقدراً لنا أن نتمتع كثيراً بهذه السعادة الصافية، ففي

الأيام الأولى من شهر أيار وكان الطقس رائعاً ، كُنّا بناء على نصيحة الدكتور ، نذهب بصغيرتنا إلى الحديقة العامة ، حيث كانت تنام في عربتها ساعتين ــ ثلاث . وفي أحد الأيام البائسة ، وبينما كنا نتنزه طرأ تغير مفاجىء على الجو ، وبدأت العاصفة ، وعلى الأرجح أن الصغيرة أصيبت بالنزلة ، لأن حرارتها ارتفعت في تلك الليلة بالذات وبدأ السعال ، وللحال راجعنا أفضل أطباء الأطفال ، فراح يتردد علينا يومياً . ولا يكف يؤكد أن طفلتنا ستشفى . حتى إنه قال ، قبل ثلاث ساعات من وفاتها ، إن حالة المريضة أفضل بكثير . وعلى الرغم من تأكيداته فإن فيدور ميخائيلوفيتش لم يستطع القيام بأي عمل ، ولم يكن يفارق مهدها . كان الخوف قد استبد بنا كلينا . وقد صدقت ظنوننا الكالحة : ففي الثاني عشر من أيار (حسب تقويمنا) توفيت سونيتنا الغالية ، وأنا عاجزة عن تصوير ذلك الحزن ، الذي تملكنا إذ رأينا طفلتنا الحبيبة على فراش الموت . وكنت وقد هزني موتها بعمق ، أشعر بخوف كبير على زوجي المسكين : فقد كان يأسه عاصفاً ، كان يبكي وينتحب كالمرأة ، وهو يقف إزاء جسد محبوبته المسجى ، ويغطي وجهها الأصفر ، ويديها بقبلاته الحارة . ولم يحدث أن رأيت مثل هذا اليأس العاصف فيما بعد . وكان يخيل إلينا كلينا أننا لن نستطيع تحمل هذه المصيبة . وأمضينا معاً يومين كاملين لم نفترق لدقيقة واحدة ، نطوف على المؤسسات المختلفة للحصول على السماح بدفن فلذة كبدنا ، واشتركنا معاً في تجهيز كل ما يلزم لدفنها ، وفي إلباسها ثوب الأطلس الأبيض ، ووضعها في النعش الأبيض المبطن بالأطلس ، وذرفنا الكثير من الدمع . كان منظر فيدور ميخائيلوفيتش مخيفاً ، بسبب ما أحدثه فيه هذا

الأسبوع من مرض سونيا من نحول وضعف. وفي اليوم التالي نقلنا درّتنا إلى الكنيسة الروسية للصلاة عليها. ومن هناك إلى مقبرة Plain Palais، حيث دفناها في القسم المخصص للصغار. وبعد عدة أيام زرعنا حول قبرها أشجار السرو، ووضعنا في الوسط صليباً من المرمر الأبيض. وفي كل يوم كنت وزوجي نزور قبرها، نحمل الأزهار، ونذرف الدمع. كنا نشعر بصعوبة بالغة في فراق صغيرتنا الغالية، التي كنا قد أحببناها، وتعلقنا بها، واقترنت بوجودها الكثير من آمالنا وأحلامنا.

كان البقاء في جنيف، حيث كان كل شيء يذكرنا بسونيا، مستحيلاً، فقررنا الانتقال إلى Vevey، على بحيرة جنيف نفسها. وكان بودنا لو نغادر سويسرا نهائياً، بعد أن أصبحت لا تطاق بالنسبة لزوجي: فقد كان يعتبر أن موت سونيا قد حل بسبب المناخ السيىء، وغير المستقر، وبسبب عجرفة الطبيب، وجهل الحاضنة، وغير ذلك. ولكن ضيق ذات اليد لم يسمح لنا بالسفر، ولم يكن فيدور ميخائيلوفيتش يكنُّ الود للسويسريين أنفسهم. وقد ضاعف جفافهم وقسوة قلوبهم في لحظات محنتنا من كرهه لهم. وكمثال على قسوة قلوبهم، أذكر أن جيراننا أرسلوا، وهم يعرفون المصيبة التي حلت بنا، يطلبون مني أن لا أبكي بصوت عال، لأن ذلك يؤثر على أعصابهم.

وإن أنس لا أنسى ذلك اليوم الكئيب، حينما أرسلنا حاجياتنا على ظهر الباخرة، وذهبنا لوداع قبر طفلتنا الغالية للمرة الأخيرة، ووضع إكليل الوداع عليه. جلسنا ساعة كاملة عند أقدام الضريح، نبكي ونتذكر سونيا، ثم غادرنا، ونحن لا نكف نتلفت لإلقاء نظرة على ملاذها الأخير.

كانت السفينة، التي أقلتنا، سفينة شحن، ولم يكن عدد الركاب في جناحنا كبيراً، كان النهار دافئاً، ولكنه كان كالحاً، يتناسب مع مزاجنا. وتحت تأثير الوداع مع قبر سونيتشكا كان فيدور ميخائيلوفيتش متأثراً جداً ومضطرباً، ولأول مرة في حياتي سمعته يشكو ويتذمر (وكان نادراً ما يتذمر) بمرارة من حظه العاثر في هذه الحياة. فعاد إلى ذكرياته، وراح يحدثني عن فتوته الحزينة، حيث أمضاها وحيداً، بعد وفاة والدته المحبوبة، وتذكر هزء زملائه الأدباء وتهكمهم، وقد اعترفوا بموهبته الأدبية في البداية، ثم لم يلبثوا أن تنكروا له، وقلبوا له ظهر المجن. وتذكر الأشغال الشاقة، وكم عانى، وتعذب على مدى أربع سنوات أمضاها فيها. وتحدث عن الآمال التي راودته في العثور على السعادة العائلية المنشودة من زواجه بماريا دميتريفنا. ولكن للأسف أن ذلك لم يحدث: فلم يرزق بأولاد منها، أما طبعها الغريب، كثير الارتياب، والمريض بالخيال[٥] فكان السبب في عدم عثوره على السعادة معها. والآن، وحينما زارته هذه السعادة البشرية الوحيدة ــ أن يكون لديه ولد من لحمه ودمه ــ، وأصبح قادراً على وعي هذه السعادة وتقديرها، لم يرحمه القدر المشؤوم، وانتزع منه هذا الكائن العزيز جداً. ولم يصدف أن تحدث، لا قبل ولا بعد، بمثل هذه التفاصيل الجزئية، والبالغة التأثير أحياناً، عن تلك الكؤوس المرة، التي اضطر لشربها في حياته على يد الناس المقربين منه والغالين عليه.

وقد حاولت التخفيف عنه، وتوسلت إليه أن يرضخ للتجربة، التي

---

(٥) بهذه الكلمات وصف دستويفسكي زوجته الأولى في رسالته إلى البارون فرانغل ٣١ آذار ١٨٦٥. (الملاحظة بقلم الكاتبة).

حلت بنا ، ولكن على الأرجح أن قلبه كان مفعماً بالحزن ، وكان بحاجة للتخفيف عنه ، ولو بالشكوى من القدر ، الذي يلاحقه طيلة حياته . كنت أشفق على زوجي المسكين من كل قلبي ، وشاركته البكاء من الحياة المحزنة ، التي قدرت له . وقد ساهمت مصيبتنا المشتركة ، والحديث الحميم ، الذي كشف أمامي الكثير من مخابيء روحه المعذبة ، في زيادة عرى ارتباطنا متانة .

وعلى مدى سنوات حياتنا المشتركة ، التي استمرت أربعة عشر عاماً ، لا أذكر مثل هذا الصيف الحزين ، الذي أمضيناه سوية في فيينا في عام ١٨٦٨ . كان يبدو وكأن الحياة قد توقفت بالنسبة لنا ، وتركزت كل أفكارنا وأحاديثنا حول ذكرياتنا عن سونيا ، وعن تلك الفترة السعيدة ، التي أنارت فيها حياتنا بوجودها ، وكان كل طفل نصادفه يذكرنا بمصابنا ، ولكي لا ينفطر قلبانا ألماً كنا نذهب للتنزه بعيداً في الجبال ، حيث كان بالإمكان تجنب اللقاءات المثيرة . وقد عانيت الكثير بدوري من فقدان طفلتنا ، وذرفت عليها الكثير من الدموع . ولكن في أعماق روحي كان ينبض أمل في أن يشفق الرحمن الرحيم على عذابنا ، ويرزقنا من جديد بطفل . فكنت أصلي من أجل ذلك بكل حرارة وخشوع . وقد راحت والدتي ، التي تألمت كثيراً لما حل بنا ، تحاول التخفيف عني بالأمل في الأمومة من جديد . وبفضل الصلوات والأمل بدأت حدة حزني تخف تدريجياً . ولكن هذا لم يحدث بالنسبة لفيدور ميخائيلوفيتش ، وبدأت أخاف فعلاً من حالته النفسية . وإليكم ما قرأته في رسالته إلى مايكوف (٢٢ حزيران ــ يونيو) حينما أخذتها ، لأضيف إليها عدة أسطر تحية إلى زوجته : « ... كلما مر الوقت ازدادت الذكرى ألماً ، وبدا لي وجه سونيا المرحومة بشكل

أكثر تألقاً. هناك دقائق يستحيل تحملها. لقد كانت تعرفني، ففي يوم وفاتها، وحينما خرجت من البيت لمطالعة الصحف، دون أن أدرك أنها ستتوفى بعد ساعتين، ودعتني بعينيها الصغيرتين، ولاحقتني بنظراتها لدرجة أنني ما زلت، حتى الآن، أتصور هذا بشكل جلي أكثر فأكثر. لن أنسى أبداً، ولن يتوقف عذابي. وحتى ولو رزقنا طفلاً آخر، فلست أدري كيف سأحبه، فمن أين سأعثر على الحب؟ إن ما أحتاج إليه هو سونيا. لست بقادر على فهم أنها غير موجودة وأنني لن أراها أبداً».

وبهذه الكلمات كان فيدور ميخائيلوفيتش يرد على محاولات أمي للتخفيف عنه. كنت في غاية الخوف من مزاجه المحطم، وكنت أفكر بأسى: هل يعقل أن فيدور ميخائيلوفيتش لن يحب ولدنا. إذا ما رزقنا الله به، ولن يكون سعيداً؟ عند ولادة سونيا، كان يبدو وكأن ستاراً كالحاً قد أسدل أمامنا، وخيم الحزن والسأم على أسرتنا.

استمر فيدور ميخائيلوفيتش في كتابة روايته، ولكن العمل لم يخفف عنه، وقد أضيف إلى مزاجنا الحزين الخوف الناجم عن ضياع الرسائل القادمة إلينا، وبالتالي فقد تعقدت اتصالاتنا بالأهل والمعارف. وكانت مصدر عزائنا الوحيد. وكان يحز في نفسنا، أكثر ما يحز، ضياع رسائل مايكوف، المفعمة أبداً بالحيوية الدافقة. وقد قوى الشك لدينا في ضياع بريدنا إثر تلقي رسالة مغفلة، جاء فيها أن فيدور ميخائيلوفيتش موضع شك، وأن هناك أوامر بفتح رسائله وإجراء تفتيش دقيق له، على الحدود لدى مغادرته إلى وطنه[٦].

(٦) في تعليمات الشعبة الثالثة تاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٧، تحت رقم ١٢٩٢

ولسوء الحظ أن كتاب (أسرار البلاط القيصري في عهد نيقولاي الأول) المحظور، قد وصل يد فيدور ميخائيلوفيتش. ومن بين الأبطال البارزين في هذا الكتاب دستويفسكي وزوجته، حيث يؤكد الكاتب أن دستويفسكي يحتضر، أما زوجته فتنوي دخول الدير. وقد أثار الكتاب حنق فيدور ميخائيلوفيتش، حتى إنه أراد كتابة دحض لهذا الافتراء، (لا تزال مسودة الرد موجودة)، ولكنه لم يلبث أن قرر أن هذا الكتيب الأحمق لا يستحق الاهتمام.

مع بداية الخريف أصبح واضحاً بالنسبة لنا أن من الضروري جداً تغيير مزاجنا الثقيل. وفي مطلع أيلول (سبتمبر) قررنا الانتقال إلى إيطاليا، والإقامة في ميلانو، كخطوة أولى. كانت المرحلة الأولى من الطريق عبر جبال سيمبلون، وقد قطعنا قسماً منها سيراً على الأقدام، حيث كنت أسير وزوجي إلى جانب العربة الضخمة، التي ترتقي الجبل، وكنا نسبقها ونجمع الأزهار الجبلية. ولكننا هبطنا باتجاه إيطاليا ونحن راكبان. ولا زلت أذكر حادثة مضحكة: ففي Domo d'Ossda قررت شراء الفاكهة، وامتحان معرفتي المكتسبة خلال الصيف باللغة الإيطالية، وحين لاحظت فيدور ميخائيلوفيتش

← نقرأ ما يلي: «سري. السيد رئيس دائرة البوليس في أوديسا، يطلب إلى سعادتكم، لدى عودة الملازم المتقاعد فيدور دستويفسكي من الخارج، أن تجروا له تفتيشاً في منتهى الدقة، وإذا ما وجدتم لديه ما يستحق اللوم أرسلوه فوراً إلى الشعبة الثالثة لديوان صاحب العظمة الإمبراطورية. وأحضروا دستويفسكي إلى هذه الشعبة موجوداً. رئيس قسم البلاط القيصري. اللواء ميزينتسيف». انظر مجموعة (إبداع دستويفسكي) أوديسا ١٩٢١ ص ٣٦ ــ ٣٨ بالروسية).

يدخل أحد المخازن خطر لي أن أساعده في الحديث ، فأسرعت إليه . وقد تبين لي أنه أراد إسعادي بشيء ما فراح يساوم على سلسلة ذهبية معروضة في الواجهة . وقد اعتقد البائع أننا أجنبيان خبيران فطلب ثمنها ثلاثة آلاف فرنك ، وراح يؤكد أنها تكاد تكون من عصر فيسباسيان . ولكن الفرق بين الثمن المطلوب وبين المبلغ الموجود لدينا جعل فيدور ميخائيلوفيتش يبتسم . وتكاد تكون تلك أول بارقة مرح منذ أن حلت بنا تلك المصيبة .

أثر تغيير الجو والانطباعات في الطريق والناس الجدد (الفلاحون أصحاب مكاتب الرهونات ، الذين كانوا برأي فيدور ميخائيلوفيتش شبيهين بالفلاح الروسي) إلى حد بعيد ، كل ذلك أثر على مزاج فيدور ميخائيلوفيتش ، فكان في منتهى الحيوية في الأيام الأولى من وجودنا في ميلانو : فقد رافقني لزيارة كاتدرائية ديومو الثاني في ميلانو ، التي كانت محط إعجابه العميق والصادق . ولكنه أعرب عن أسفه لكون المنازل قريبة جداً من الكاتدرائية (الآن اتسعت رقعة الساحة إلى حد كبير) ، وأشار إلى أن هذا يفقد الكاتدرائية الكثير من العظمة ، وفي أحد الأيام صعدنا سطح الكاتدرائية ، كي نتمكن من إلقاء نظرة على المنطقة المحيطة بنا ، ومن مشاهدة التماثيل التي تزين هذا السطح . وقد سكنا قرب كورسو ، في زقاق ضيق لدرجة أن الجيران كانوا قادرين على مخاطبة بعضهم من خلال النوافذ .

بدأت أشعر بالفرح وأنا أرى دفق الحيوية لدى زوجي . ولكن للأسف أن هذا المزاج المنتعش لم يستمر طويلاً ، فقد عاد إلى ملله من جديد . وكان الشيء الوحيد الذي يسليه نوعاً ما مراسلاته مع مايكوف وستراخوف . وقد

أخبرنا الأخير بصدور مجلة جديدة (زاريا ، أي الفجر) للناشر ف. ف. مكشبيروف . ويعود اهتمام فيدور ميخائيلوفيتش بهذا الخبر إلى أن رئيس التحرير سيكون ستراخوف ، الذي سبق له أن عمل في (فريميا ، أي الزمن) و(ايبوخا ، أي العصر) وأنه بفضل ذلك ـــ كما كتب زوجي ـــ «لم يمت اتجاهنا ولا عملنا المشترك ، فقد أتت فريميا وايبوخا أكلهما ، وبدأنا قضيتنا من حيث توقفنا . إن هذا مدعاة للسرور الكبير» . ولم يكتف فيدور ميخائيلوفيتش بالتعاطف مع المجلة الوليدة ، بل واهتم بالمحررين ومقالاتهم (وبخاصة ن . يا . دانيليفسكي ، صاحب المؤلف الكبير (روسيا وأوروبا) الذي كان زوجي قد عرفه مذ كان شاباً من أتباع مذهب فوريه .

وقد كرر ستراخوف دعوة زوجي للعمل في زاريا ، وهذا ما وافق عليه فيدور ميخائيلوفيتش بكل ارتياح ، لكن فقط بعد انجاز روايته (الأبله) ، التي عانى من كتابتها الكثير ، ولم يكن راضياً عنها ، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يؤكد أنه لم يسبق له أن كانت لديه فكرة شاعرية أفضل وأغنى من تلك التي توضحت في الرواية ، وأنه لم يعبر عن عِشْرِ ما أراد التعبير عنه .

كان خريف ١٨٦٨ في ميلانو ممطراً وبارداً ، ولم يكن بالإمكان القيام بالنزهات الطويلة ، كما كان يحب زوجي ، ولم يكن ثمة في المكتبات المحلية صحف ولا كتب روسية ، فكان فيدور ميخائيلوفيتش يتشوق إلى تنسم أخبار الصحف من الوطن . ونتيجة ذلك قررنا بعد شهرين من الإقامة في ميلانو ، الانتقال إلى فلورنسا لقضاء الشتاء . وقد سبق لفيدور ميخائيلوفيتش أن زارها في وقت ما ، وتركت لديه انطباعات جيدة ، وبخاصة كنوزها الفنية .

وهكذا ففي نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٨ انتقلنا إلى العاصمة الإيطالية آنذاك، ونزلنا قرب قصر بيتي. ومن جديد ترك تغيير المكان تأثيراً إيجابياً على زوجي، ورحنا نقوم سوية بزيارة الكنائس والمتاحف والقصور. وأذكر مدى إعجاب فيدور ميخائيلوفيتش بكاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري، والكنيسة الصغيرة ديل باتيستيرو، حيث يعمد الصغار. وكانت أبواب باتيستيرو (وبخاصة Delta del Paradiso) من إبداع Ghibesti المشهور تخلب لب فيدور ميخائيلوفيتش، وكان في كل مرة يمر من جانبها يتوقف ويتمعن فيها. وقد أكد لي أنه، إذا ما قدر له أن يصبح ذا ثروة، فسيقوم من كل بد بشراء صور هذه الأبواب، بحجمها الطبيعي إذا أمكن، ووضعها في مكتبه للتمتع بمنظرها.

كنا غالباً ما نتردد على قصر بيتي، وكانت تخلب لبه لوحة رافائيل Madonna della Sedia كما كانت لوحته الأخرى يوحنا المعمدان في الصحراء، الموجودة في رواق Uffizi محط إعجاب فيدور ميخائيلوفيتش، فكان يمضي فترة طويلة وهو يقف أمامها، وبعد زيارة رواق اللوحات كان يذهب لرؤية Venere de Medici (فينيرا ميديسي) من إبداع النحات اليوناني كليومين. كان زوجي يعتبر هذا التمثال عملاً عبقرياً.

ولحسن الحظ أننا عثرنا في فلورنسا على مكتبة ممتازة، وقاعة مطالعة فيها صحيفتان روسيتان، فكان زوجي يذهب إليها بعد الغداء يومياً للمطالعة. ومن بين الكتب أخذ إلى البيت للمطالعة شتاء مؤلفات فولتير وديدرو بالفرنسية، التي كان يتقنها بشكل ممتاز.

حمل لنا عام ١٨٦٩ الجديد السعادة : فبعد فترة قصيرة اقتنعنا أن الله قد بارك زواجنا ، وأن بوسعنا أن نعلق الأمل من جديد على ولادة طفل . كانت سعادتنا لا توصف ، وعاد زوجي إلى العناية والاهتمام بي ، كما في فترة الحمل الأولى ، وقد وصلت عنايته بي إلى حد أنه أخفى عني أحد مجلدات (الحرب والسلم) لتولستوي ، التي أرسلها ستراخوف ، الذي يتحدث عن موت زوجة الأمير أندريه بولكونسكي في أثناء الوضع . كان فيدور ميخائيلوفيتش يخاف أن تترك صورة الموت بالمخاض انطباعاً ثقيلاً علي . بحثت عن المجلد الضائع في كل مكان ، حتى إنني لمت زوجي لأنه أضاع مثل هذا الكتاب الممتع ، فراح يتذرع ، ويؤكد أن الكتاب سيظهر . ولكنه لم يعطني إياه إلا بعد أن تم الحدث المنتظر . وفي انتظار ولادة الطفل كتب فيدور ميخائيلوفيتش في رسالته إلى ستراخوف يقول : « أنتظر بفارغ الصبر ، بقلق وخوف وأمل . كنا كلانا نحلم بأن نرزق طفلة ، ولما كنا نكن لها مثل هذا الحب في أحلامنا فقد أعطيناها مسبقاً اسم لوبوف[٧] » . ولم يكن ثمة في عائلتي ، ولا في عائلة زوجي مثل هذا الاسم .

كان الأطباء قد وصفوا لي التنزه لفترة طويلة ، فكنا نذهب يومياً إلى Giardino Boboli (الحديقة المحيطة بقصر بيتي) ، حيث كانت الورود تزهر على الرغم من شهر كانون الثاني (يناير) . وكنا نتشمس في الحديقة ، ونحلم بسعادتنا القادمة .

---

(٧) لوبوف كلمة تعني الحب . (المترجم) .

في عام ١٨٦٩ كانت ظروفنا المالية ــ كما في السابق ــ سيئة جداً، وقد عانينا من الحاجة. كان فيدور ميخائيلوفيتش قد حصل على مئة وخمسين روبلاً لقاء كل ملزمة من رواية (الأبله)، أي حوالي سبعة آلاف روبل. ولكن ثلاثة آلاف منها كانت قد أنفقت على عرسنا قبل سفرنا إلى الخارج. ومن الأربعة آلاف الباقية كان علينا أن ندفع فوائد الحاجيات المرهونة في بطرسبورغ، ونقدم المساعدات إلى ربيب زوجي وأسرة شقيقه المتوفى، أي أن نصيبنا الباقي لم يكن كبيراً. ولكننا كنا راضيين وقانعين بفقرنا النسبي، ونتحمله دون تذمر. كان فيدور ميخائيلوفيتش يطلق على نفسه اسم مستر ميكوبير، وعلي اسم مستريز ميكوبير[٨]. كنت أعيش وزوجي في تفاهم ووئام، والآن، وبعد ظهور هذا الأمل بالسعادة الجديدة، كان من شأن كل شيء أن يكون رائعاً، ولكن مصيبة جديدة طرقت بابنا: فقد ترك عاما الفراق المنصرمان ثقلاً كبيراً على زوجي. ففي رسالته إلى س.أ. خميروفا ٨ آذار (مارس) ١٨٦٩ تحدث عن روايته الجديدة (الإلحاد) ثم كتب يقول: «لا أستطيع كتابتها هنا، من أجل هذا علي أن أكون في روسيا من كل بد، أن أرى، أسمع الحياة الروسية، وأشارك فيها مباشرة... أما هنا فإنني سأفقد إمكانية الكتابة، دون المادة الضرورية للكتابة، أي دون الواقع الروسي (مصدر الفكر) والناس الروس». وليس الروس فقط، فقد كنا نعاني من قلة الناس عامة، ففي فلورنسا لم نكن نعرف إنساناً واحداً يمكن أن نتحدث إليه،

---

(٨) شخصيتان من رواية ديكينز (دافيد كوبرفيلد) تعيشان دون هموم، على الرغم من غرقهما في الديون.

نناقشه، نمازحه، ونشاطره انطباعاتنا. كان كل ما حولنا غريباً، وأحياناً كانت تحيط بنا وجوه لا تكن لنا الود، وكان هذا الانعزال التام عن الناس ثقيلاً جداً. وأذكر أنه خطرت لي آنذاك فكرة أن الناس، الذين يعيشون في مثل هذه الوحدة والاغتراب، يمكن في خاتمة المطاف، إما أن يكره كل منهم الآخر، وإما أن تزداد متانة العرى بينهم للفترة المتبقية من الحياة. ولحسن الحظ أن الاحتمال الأخير كان من نصيبنا، فقد أجبرتنا هذه الوحدة على زيادة التقارب الروحي وتعلق أحدنا بالآخر.

خلال الأشهر التسعة، التي أمضيناها في إيطاليا تعلمت الحديث بالإيطالية قليلاً. أي بما يكفي للحديث مع الخادمة أو في المخازن، حتى إنه كان بوسعي قراءة صحيفتي (بيكولا) و(سيكولا). وكنت أفهم كل شيء، أما فيدور ميخائيلوفيتش، المشغول بعمله، فلم يكن قادراً ــ بالتأكيد ــ على تعلمها، فكنت ترجمانه. والآن، ونظراً للحدث العائلي القريب كان لا بد من الانتقال إلى بلد، يتكلمون فيه الفرنسية أو الألمانية، كي يستطيع زوجي التفاهم بشكل تام مع الدكتور والقابلة وفي المخازن إلخ. أمضينا وقتاً طويلاً في مناقشة هذه المسألة لاختيار المكان، بحيث يتوفر المجتمع الثقافي لفيدور ميخائيلوفيتش. وقد أوحيت لزوجي بفكرة قضاء فصل الشتاء في براغ، باعتبارها تقع في بلد يجاور روسيا، حيث كان بوسعه التعرف على الشخصيات السياسية البارزة، والدخول من خلالها إلى الحلقات الأدبية والفنية المحلية. وقد وافق فيدور ميخائيلوفيتش على هذه الفكرة. سيما وأنه أعرب عن أسفه، أكثر من مرة، لأنه لم يحضر المؤتمر السلافي، الذي عقد في عام

١٨٦٧ ، ولما كان يتعاطف مع التقارب ، الذي بدأ في روسيا مع السلاف فقد أراد التعرف بهم عن قرب . وهكذا فقد قررنا نهائياً الانتقال إلى براغ ، وقضاء الشتاء فيها . ولكن السفر كان صعباً علي في وضعي ، فقررنا أن نرتاح في عدة مدن في طريقنا إلى براغ . كانت البندقية محطتنا الأولى ، ولكننا توقفنا في بولونيا وبانتظار القطار ذهبنا إلى المتحف المحلي لمشاهدة لوحة رافائيل (القديسة سيسيل) . كان فيدور ميخائيلوفيتش يقيّم هذه التحفة الفنية عالياً . ولكنه حتى الآن لم يكن قد رأى إلا نسخاً عنها . فكان الآن في غاية السعادة لأنه رأى اللوحة الأصلية . وقد بذلت الكثير من الجهد في صرف زوجي عن متابعة تأمل هذه اللوحة المدهشة . فقد كنت أخاف أن يفوتنا القطار .

في البندقية أمضينا عدة أيام ، وكان فيدور ميخائيلوفيتش في ذروة الإعجاب بكنيسة القديس مارك ، وهندستها المعمارية . فكان يمضي ساعات بكاملها وهو يتأمل الموزاييك ، الذي يزين جدرانها . كما زرنا **Palazzo Ducale** حيث أبدى زوجي إعجابه بالفن المعماري الرائع وبجمال السقوف وروعتها في قصر دوج . بريشة أعظم فناني القرن الخامس عشر . وبالإمكان القول إننا أمضينا الأيام الأربعة في ساحة سان ماركو ، فقد تركت لدينا انطباعاً ساحراً إن في النهار ، أو الليل .

كان الانتقال من البندقية إلى تريست على متن الباخرة عاصفاً جداً ، وقد قلق فيدور ميخائيلوفيتش علي جداً ، ولم يفارقني خطوة واحدة . ولحسن الحظ أن كل شيء انتهى على خير . ومن ثم توقفنا يومين في فيينا ، ولم نصل إلى براغ إلا بعد سفر عشرة أيام . وهنا كانت بانتظارنا خيبة أمل كبيرة : حيث

تبين أن هناك غرفاً مفروشة لشخص واحد ، ولم تكن ثمة غرفة مفروشة للأسر ، أي أكثر هدوءاً وراحة . وللبقاء في براغ كان لا بد من استئجار شقة ، ودفع أجرة نصف سنة سلفاً ، ولا بد من اقتناء الأثاث وكل ما يلزم ، ولم يكن ذلك يتناسب وما لدينا من مال . وهكذا ، وبعد ثلاثة أيام من البحث ، كان علينا للأسف الشديد أن نغادر براغ الذهبية ، التي تمكنت من نيل إعجابنا خلال هذه الأيام الثلاثة .

وهكذا تداعت أحلام زوجي في إقامة العلاقات مع شخصيات العالم السلافي . ولم يبق لنا إلا أن نستقر في دريسدن ، التي كنا نعرف ظروف الحياة فيها . وهكذا ففي بداية آب (أغسطس) وصلنا دريسدن ، واستأجرنا ثلاث غرف مفروشة (فقد وصلت والدتي من جديد في الوقت ، الذي حدث فيه المخاض) في الحي الإنكليـــزي من المدينـــــة (Englischer Viertel) ، في Victoriastrabe رقم ٥ ، وفي هذا البيت جرى الحدث العائلي السعيد في حياتنا ــ ولادة ابنتنا الثانية ــ لوبوف . كان ذلك في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) ١٨٦٩ . وبشعور عارم من الفرح زف فيـدور ميخائيلوفيـتش هذا النبأ لمايكوف ، ودعاه ليكون عرابها ، ثم كتب يقول : « منذ ثلاثة أيام رزقت طفلة ، لوبوف ، كل شيء جرى على ما يرام . والطفلة كبيرة ، معافاة ورائعة الجمال » .

وبالطبع فإن عيني الأب المحب والمبتهج هما وحدهما القادرتان على أن تريا (الجمال الرائع) في هذه الطفلة الصغيرة .

مع ظهور الطفلة عادت السعادة تتألق في أسرتنا ، وكم كان فيدور

ميخائيلوفيتش لطيفاً معها، وكم داعبها، وكان يحممها بنفسه، ويحملها على ذراعيه، ويرقدها في الفراش، وكان يشعر بنفسه في منتهى السعادة، لدرجة أنه كتب إلى ستراخوف يقول: «آخ، لماذا لم تتزوج يا ترى، ولماذا لم تنجب طفلاً يا نيقولايفيتش المحترم؟ أقسم لك أن في هذا تكمن ٣/٤ السعادة الدنيوية. والربع الآخر لكل ما تبقى».

كان مايكوف العراب في هذه المرة أيضاً، أما الاشبينة فقد اختار زوجي أخته المحبوبة ايفانوفا لذلك. وكانت والدتي تنوب عني. ولم تتم مراسيم العماد إلا في كانون الأول ــ ديسمبر: فقد مرضت أنا أولاً، ومن ثم سافر خوري كنيسة دريسدن إلى بطرسبورغ لبعض الأعمال.

في دريسدن عثرنا على مكتبة رائعة، تضم الكثير من الصحف الروسية والأجنبية. كما عثرنا على المعارف من بين أولئك الروس الذين يقيمون في دريسدن بشكل دائم، والذين كانوا يحلون بعد صلاة الظهر ضيوفاً على أسرة باتوشكا المضيافة. وفي عداد المعارف الجدد كان ثمة الكثير من الأذكياء والمثقفين، الذين وجد زوجي متعة في مبادلتهم الحديث. كان ذلك الجانب الجيد في حياة دريسدن.

وبعد انجاز رواية (الزوج الخالد) سلمها فيدور ميخائيلوفيتش لمجلة زاريا، حيث ظهرت في أول كتابين لعام ١٨٧٠. ولهذه الرواية أهمية بيوغرافية، حيث جاءت صدى لإقامة زوجي صيفاً في ليوبلين، غير بعيد عن موسكو في عام ١٨٦٦، حيث أقام في الداتشا القريبة من داتشا أخته ف. إيفانوفا،

فصور آل ايفانوف في روايته في شخصيات أسرة زاخليبين ــ الأب الغارق حتى أذنيه في عمله كطبيب ، والأم المثقلة أبداً بالمشاغل المنزلية ، والشباب المرح ــ أحفاد فيدور ميخائيلوفيتش وحفيداته وأصدقائهم الشباب ... وحتى في فيلتشانينوف نجد بعض ملامح فيدور ميخائيلوفيتش نفسه ، مثلاً في وصف مختلف أشكال الألعاب ، التي كان يبتكرها لدى وصوله الداتشا ...

وفي شتاء ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ كان فيدور ميخائيلوفيتش منكباً على كتابة رواية جديدة ، كان ينوي أن يسميها (حياة الخاطىء الكبير) . وكان زوجي ينوي كتابتها في خمس قصص طويلة (كل قصة من حوالي خمس عشرة ملزمة) ، على أن تكون كل قصة مؤلفاً مستقلاً ، ويمكن أن تنشر في مجلة ، أو تصدر في كتاب مستقل. وفي كل هذه القصص الخمس كان فيدور ميخائيلوفيتش ينوي معالجة تلك المسألة الهامة والمعذبة ، والتي عانى منها طيلة حياته ــ بالتحديد مسألة وجود الله . وكان من المقرر أن تدور أحداث القصة الأولى في أربعينيات القرن الماضي، وكانت مادتها وأنماط تلك الآونة من الوضوح والألفة بالنسبة لزوجي ، بحيث إنه كان قادراً على كتابة هذه القصة ، وهو يعيش في الخارج . وهذه القصة بالذات هي ما أراد زوجي نشره في زاريا . أما بالنسبة للقصة الثانية ، التي تدور أحداثها في الدير ، فقد كانت كتابتها تتطلب العودة إلى روسيا . وفي القصة الثانية كان زوجي ينوي تصوير الراهب ــ القديس تيخون زادونسكي بطلاً لهذه القصة . كان فيدور ميخائيلوفيتش يعلق الكثير من الآمال على الرواية المنتظرة ، ويعتبرها ذروة نشاطه الأدبي . وقد تحققت نبوءته فيما بعد لأن العديد من أبطال الرواية

ـ المشروع دخلوا في رواية (الأخوة كارامازوف). ولكن زوجي لم يتمكن آنذاك من تنفيذ فكرته، لأنه انصرف إلى موضوع آخر، كتب لستراخوف عنه يقول: «أعلق الأمل الكبير على الشيء الذي أكتبه الآن في (البشير الروسي)، لكن ليس من الناحية الفنية، بل من جانب التحزب: فبودي أن أعبر عن عدة أفكار، حتى ولو قضي على الناحية الفنية، ولكنني مدفوع بما تراكم في عقلي وقلبي، سأبقُّ البحصة، حتى ولو في قالب هجائي».

كانت تلك رواية (الشياطين)، التي صدرت في عام ١٨٧١. وعلى ظهور الموضوع الجديد أثَّر قدوم أخي: ففيدور ميخائيلوفيتش، الذي كان يقرأ الصحف الأجنبية المختلفة، (كان الكثير مما تنشره لا ينشر في الصحف الروسية) توصل إلى استنتاج مفاده أن القلاقل السياسية سوف تظهر في القريب العاجل في أكاديمية بيتروفسكي الزراعية. وخوفاً من أن يشارك أخي فيها، بسبب حماسة الشباب، أقنع زوجي والدتي بدعوة أخي لزيارتنا في دريسدن، وكان يريد بقدومه أن يخفف عني بعد أن بدأ الشوق يشدني إلى الوطن، وعن والدتي التي مر عليها عامان وهي تعيش في الخارج (تارة مع أبناء أختي، وأخرى معنا). وكانت في غاية الشوق لابنها. كان أخي يحلم دائماً بالسفر إلى الخارج. وهكذا فقد انتهز الفرصة وجاء لزيارتنا.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يكنُّ الود كلّه لأخي، ويهتم بشؤونه ومعارفه وحياته، وبمزاج عالم الطلبة عامة. فكان أخي يتحدث بالتفصيل وبحماسة، وهنا ظهرت لدى فيدور ميخائيلوفيتش فكرة حول تصوير الحركة السياسية آنذاك في إحدى قصصه، واختيار الطالب إيفانوف (تحت اسم شاتوف)،

الذي قتل فيما بعد على يد نيتشايف، واحداً من أبطالها الرئيسيين. كان أخي يتحدث عن الطالب إيفانوف كإنسان ذكي، وبارز من حيث شخصيته القوية، والذي طرأ على قناعاته السابقة تغير جذري. وكم كان تأثر أخي عميقاً حين قرأ في الصحف فيما بعد عن مقتل الطالب إيفانوف. فقد كان يشعر بالميل الصادق إليه. ومن أحاديث أخي استقى فيدور ميخائيلوفيتش وصف حديقة أكاديمية بيتروف، والكهف، الذي قتل فيه إيفانوف.

وعلى الرغم من أن مادة الرواية جاءت مستقاة من الواقع فقد وجد زوجي صعوبة بالغة في كتابتها. وكما هي العادة فلم يكن فيدور ميخائيلوفيتش راضياً عن عمله، وقد عدّل فيه كثيراً، وأتلف قرابة خمس عشرة ملزمة. وعلى الأرجح لم تكن الرواية المتحزبة مناسبة لإبداعه.

ومع نمو لوبتشكا لم تعد بحاجة لوجودي الدائم قربها، وأصبح بوسعي الذهاب مع فيدور ميخائيلوفيتش إلى رواق اللوحات، ولحضور الحفلات الرخيصة على مدرج بريولوف، وإلى النزهات. وفي إحداها جرت معنا حادثة تصور شخصية زوجي المندفعة أبداً. حدث الأمر على النحو التالي: في شتاء ١٨٧٠ أعلن عن بيع أثاث وحاجيات إحدى الدوقات الألمانيات المتوفاة، بالمزاد. كان البيع يشمل المجوهرات والثياب، والبياض والفراء وغيرها، وكانت صالة الفندق غاصة بالناس. وفي أحد الأيام الأخيرة من المزاد مررنا بالقرب من منزلها، واقترحت الدخول لمشاهدة عملية المزاد العلني لدى الألمان. وافق فيدور ميخائيلوفيتش وصعدنا الصالة. كان ما تبقى من الحاجيات قليلاً نسبياً، ومعظمها من الكماليات، التي لم تحظ باهتمام الكثير من الألمان

المعروفين بالاقتصاد، ولذا فإن الحاجيات لم تكن تباع بالسعر السابق، بل بالسعر المعروض، وفجأة لاحظ فيدور ميخائيلوفيتش Surtout de table أواني من الزجاج البوهيمي. ذات شكل رائع، ولون أحمر قاتم، وزخارف ذهبية. كان عددها ١٨ قطعة: مزهريتان كبيرتان. ومزهريتان وسط، وست مزهريات صغيرة، وأربعة صحون لتقديم الحلوى، وأربعة صحون ذات رسم واحد. راح فيدور ميخائيلوفيتش، المحب للأشياء الرائعة، يتأمل المزهريات بإعجاب ثم قال لي: «لو نقتني هذه المزهريات الرائعة. هل نشتريها يا آنيتشكا؟». وضحكت، إذ كنت أعرف أن ما لدينا من مال الآن ليس بالكثير. وبالقرب منا كانت تقف امرأة فرنسية تتحدث عن هذا الكريستال بإعجاب. كانت تقول لمرافقتها إنها تأسف لكثرة هذه الأشياء، وإلا لاشترت قسماً منها. تناهى كلامها إلى ذهن فيدور ميخائيلوفيتش فقال لها بسرعة: «لنشترها مناصفة يا مدام!». ولم تمض خمس دقائق حتى وضعت الحاجيات أمام الجمهور بسعر ١٨ تالير. أي تالير واحد لكل قطعة. وعلى الرغم من اقتصاد الألمان فإن هذا السعر القليل لهذا العدد الكبير من الحاجيات دفع البعض إلى الزيادة بالقروش، وحده فيدور ميخائيلوفيتش كان يزيد بالتالير. ومن دقيقة إلى أخرى كانت حماسته تزداد، وإذ رأيت السعر يرتفع خفت أن تتراجع الفرنسية، فيكون كل شيء من نصيبنا. وحين رفع المسؤول عن المزاودة السعر إلى واحد وأربعين تاليراً أوقفها، وأصبحت الحاجيات ملكاً لنا. لم تتراجع الفرنسية عن الشراء، وتقاسمنا الحاجيات مناصفة. والآن كان لا بد من

نقل الأشياء إلى البيت. بقي فيدور ميخائيلوفيتش عند الأغراض، أما أنا فذهبت مع حمالين، وفي يد كل منا مزهريتان...

.. صحيح أن سنوات الغربة الأولى جعلتني أشعر بالشوق والحنين إلى ربوع الوطن، ولكن الانطباعات الجديدة، الجيدة منها، والسيئة، جعلت هذا الحنين يتلاشى. ولكن في العام الرابع لم أستطع التغلب على هذا الشوق. وعلى الرغم من أنني كنت محاطة بالكائنات الأغلى عندي: الزوج والطفل والأم والأخ، فقد كنت أفتقر إلى الأهم، إلى الوطن الأم ــ روسيا. وشيئاً فشيئاً تحول شوقي إلى مرض، وبدا لي مستقبلنا لا يبشر بالأمل. فقد كان يخيّل إلي أننا لن نعود إلى روسيا أبداً. وأن المصاعب ستواجهنا أبداً: تارة لا مال لدينا، وأخرى المال متوفر، ولكننا لا نستطيع السفر بسبب حملي، أو خوفاً من أن يصاب الطفل بالمرض.. إلخ. لقد بدا لي المهجر سجناً وقعت فيه، ولا أستطيع الخروج منه. ومهما واساني أقربائي، ومهما لوحوا لي بالأمل في أن الأحوال ستتغير، وأننا سنعود إلى الوطن، فإن كل مواساتهم كانت عقيمة، فقد فقدت الثقة بهذه الوعود، وكنت على قناعة من أنه قد كتب على جبيني البقاء في الغربة أبداً. وكنت أدرك تماماً أنني بهذا السأم أعذب زوجي الغالي. الذي كان بدوره يقاسي الأمرين من الحياة بعيداً عن الوطن. كنت أحاول تمالك نفسي بحضوره، والامتناع عن البكاء والشكوى، ولكن شكلي الحزين غالباً ما كان يفضحني. كنت أحدث نفسي بأنني على استعداد لتحمل كل المصاعب والفقر وحتى الفاقة، المهم أنْ أعيش في الأرض الغالية، الوطن، الذي كان أبداً موضع فخري واعتزازي، وإنني، وأنا أتذكر مزاجي في تلك

الآونة ، أقول إنه غالباً ما كان لا يطاق . وإنني لم أكن قادرة على تمني مثله لألد أعدائي .

في نهاية ١٨٧٠ تبين لنا أن هناك إمكانية الحصول على مبلغ كبير . وبالذات : لقد قام ستيللوفسكي ، الذي اشترى من فيدور ميخائيلوفيتش في عام ١٨٦٥ حق إصدار أعماله الكاملة ، بإصدار رواية (الجريمة والعقاب) في طبعة مستقلة . وبموجب الاتفاق فإن على ستيللوفسكي أن يدفع لزوجي أكثر من ألف روبل . وهكذا فقد صدرت الرواية ، ولكن الناشر لم يكن يرغب في دفع شيء ، على الرغم من أن ربيب زوجي قد أخبره أن لديه تفويضاً بقبض المبلغ . ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش يعرف ربيبه جيداً وقلة خبرته ، فقد طلب من مايكوف العمل على قبض هذا المبلغ ، ليس باسمه ، بل عن طريق تكليف محلف قدير .

وبكل امتنان أتذكر مدى طيبة مايكوف معنا خلال هذه السنوات الأربع من الحياة في المهجر . ولم يكتف مايكوف بتكليف أحد المحلفين ، بل وحاول التفاوض مع ستيللوفسكي بنفسه . ولكن هذا الناشر كان محتالاً ، وخوفاً من أن يعمد إلى خداعه قرر مايكوف دعوة فيدور ميخائيلوفيتش إلى بطرسبورغ . ولما كان يعرف جيداً أننا بدون نقود دائماً ، فقد لجأ إلى الإجراء الاستثنائي ـــ أرسل لنا برقية وفيها ينصح زوجي أن يطلب من الصندوق الأدبي قرضاً بمبلغ مئة روبل ، والقدوم إلى بطرسبورغ وحيداً . وللأسف فإن البرقية وصلتنا يوم الأول من نيسان ـــ أبريل ـــ (وهو اليوم المعروف في روسيا بكذبته) ، وقد اعتقدنا وزوجي أن هذه الدعوة مجرد نكتة ، أو أن أحد

الدائنين. وقد يكون ستيللوفسكي، يريد قدوم فيدور ميخائيلوفيتش إلى بطرسبورغ، وهناك يبرز له كمبيالاتنا، التي اشتراها بثمن بخس، تحت التهديد بالسجن في قسم المدينين. ولم يكتف مايكوف الطيب بتوجيه البرقية، بل والتمس باسمه من لجنة الصندوق الأدبي إقراض الكاتب دستويفسكي مئة روبل، ولكن الصندوق لم يوافق على هذا الطلب، وهذا ما يشير إليه مايكوف في رسالته، التي تحمل تاريخ ٢١ نيسان (أبريل) ١٨٧١.

وقد تأثر فيدور ميخائيلوفيتش بهذه الرسالة كثيراً، وكتب في الجواب: «... هل رأيت مدى عنجهية الصندوق في موقفه من طلبي (أو بالأحرى طلبك بشأني) بشأن القرض. وكم طلب من ضمانات إلخ، وكم جاءت لهجة الجواب صلفة، لو أن أحد العدميين طلب إذن لما جاء الجواب هكذا».

كان الوقت يمر، وفي نيسان ١٨٧١ اكتملت أربع سنوات على حياتنا في الخارج، وكان الأمل في العودة إلى روسيا يكاد ألّا يشرق حتى يخبو. أخيراً اتخذنا وزوجي قراراً بالعودة العاجلة والأكيدة إلى بطرسبورغ، مهما كانت العواقب، التي يمكن أن تترتب عليها هذه العودة. ولكن حساباتنا كانت معلقة بشعرة. فقد كنا ننتظر حدثاً سعيداً آخر في تموز (يوليو) أو بداية آب (أغسطس). وإذا لم نتمكن من العودة إلى روسيا قبل شهر من هذا الحدث المنتظر، فسنكون مضطرين للبقاء عاماً كاملاً، حتى الربيع، لأن السفر مع طفل صغير في نهاية الخريف كان مستحيلاً. وحينما كان يخطر لنا أننا قد نضطر إلى البقاء عاماً كاملاً بعيداً عن روسيا كان اليأس التام يستولي علينا: فقد أصبحت الحياة في الغربة لا تطاق أبداً. وغالباً ما كان فيدور

ميخائيلوفيتش يقول إنه إذا ما بقينا في الخارج فإنه سوف (يموت)، وإنه لم يعد قادراً على الكتابة، وإنه لا مادة لديه، وإنه يشعر أنه لم يعد يذكر ويفهم روسيا ولا الروس، لأن معارفنا من الروس في دريسدن لم يكونوا روساً، بل كانوا مهاجرين برغبتهم، لا يحبون روسيا فغادروها نهائياً. وكانت تلك هي الحقيقة: فقد كانوا كلهم من أبناء الأسر النبيلة، الذين لم يكونوا راضين عن إلغاء نظام القنانة، وتغيير ظروف الحياة، فتخلوا عن الوطن، وجاؤوا ليتمتعوا بحضارة أوروبا الغربية. وكان أغلب هؤلاء من الساخطين على الأنظمة الجديدة، وتدني مستوى رفاهيتهم، والذين يعتقدون أن الحياة في الغربة ستكون أكثر سهولة.

كان فيدور ميخائيلوفيتش غالباً ما يتحدث عن (الموت) الحتمي لموهبته، وتعذبه فكرة من أين سيتمكن من الإنفاق على أسرته الغالية والمتزايدة العدد، فكنت أشعر باليأس وأنا أصغي إليه. وبغية التخفيف عنه، وطرد الأفكار الكئيبة، التي كانت تعيقه عن التركيز في عمله، لجأت إلى الأسلوب الذي كان يسليه، ويجعله مرحاً. فقد انتهزت فرصة وجود بعض المال لدينا (قرابة ثلاثمئة تالير)، وأشرت ذات مرة في معرض الحديث إلى الروليت، ولماذا لا يجرب حظه مرة أخرى؟ وإذا كان قد صدف له أن ربح في الماضي فلماذا لا يأمل في أن يكون الفوز حليفه في هذه المرة أيضاً؟ إلخ..

وبالطبع فإنني لم أكن أعلق أدنى أمل على الربح، وكنت أشعر بالأسف على تلك التاليرات المئة، التي كان لا بد من التضحية بها. ولكنني كنت أعرف من تجربة المرات السابقة أن فيدور ميخائيلوفيتش بعد أن يعاني من الانطباعات العاصفة الجديدة، ويشبع حاجته إلى المخاطرة، إلى اللعب،

سيعود مطمئناً، وبعد أن يقتنع بعقم آماله المعلقة على الربح. سيبدأ كتابة الرواية بقوة جديدة، وخلال أسبوعين ــ ثلاثة يعوض الخسارة. وقد نالت فكرتي عن الروليت إعجاب زوجي، ولم يرفضها، وبعد أن أخذ معه مئة وعشرين تاليراً، واتفقنا في حال الخسارة على أن أرسل له أجرة الطريق، سافر إلى ويسبادن، حيث أمضى أسبوعاً، وكما توقعت فإن لعبة الروليت كانت ذات نتيجة مفجعة، فقد أنفق مع تكاليف السفر مئة وثمانين تاليراً. وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا آنذاك. ولكن ذلك العذاب والمعاناة التي مر بها فيدور ميخائيلوفيتش خلال ذلك الأسبوع، وحينما راح يلوم نفسه لأنه انتزع المال من أسرته، مني ومن الطفلة، تركت لديه أثراً كبيراً لدرجة أنه قرر أنه لن يعود إلى لعبة الروليت إطلاقاً. وهاكم ما كتبه إلي زوجي في ٢٨ نيسان (أبريل) ١٨٧١:

«شيء عظيم جرى لي، فقد اختفى الخيال التافه، الذي ظل يعذبني قرابة عشر سنوات (الأصح منذ وفاة أخي، حينما وجدت نفسي فجأة مثقلاً بالديون). كنت أحلم أبداً بالربح. كنت أحلم بكل جد وحماسة. أما الآن فقد انتهى كل شيء! كانت تلك هي المرة الأخيرة فعلاً! هل تصدقين يا آنيا أن يدي الآن طليقتان. كان اللعب يقيدني. أما الآن فسأفكر بالعمل، ولن أقضي الليالي وأنا أحلم باللعب، كما حدث في الماضي».

وبالطبع فلم أكن أستطيع أن أصدق للحال مثل هذه السعادة العارمة ــ برودة فيدور ميخائيلوفيتش إزاء لعبة الروليت. فقد سبق له أن وعدني، أكثر من مرة، بالكف عن اللعب، ولكنه لم يكن قادراً على الوفاء بوعده. ولكن

هذه السعادة تحققت، وكانت تلك المرة الأخيرة التي يلعب فيها الروليت فعلاً. ففي السنوات التالية (١٨٧٤، ١٨٧٥، ١٨٧٦ و١٨٧٨)، التي سافر فيها فيدور ميخائيلوفيتش إلى الخارج، لم تخطر له فكرة السفر إلى مدينة المقامرة. صحيح أنها لم تلبث أن أغلقت في ألمانيا، ولكنها كانت لا تزال قائمة في سبا، ساكسون ومونت كارلو. ولم يكن من شأن بعد الشقة أن يحول بين زوجي وبين السفر إلى هناك، لو أنه كان يريد ذلك، ولكنه لم يعد يشعر بالتعلق بالمقامرة. كان يبدو وكأن (فنتازيا) الكسب بلعبة الروليت عبارة عن مرض لم يلبث أن أبلَّ منه على حين غرة، وبشكل نهائي.

عاد فيدور ميخائيلوفيتش من ويسبادن منشرح الصدر، مطمئن النفس، وللحال انكب على رواية (الشياطين)، لأنه كان يرى مسبقاً أن الانتقال إلى روسيا، والعمل في مكان جديد، ومن ثم الحدث العائلي المنتظر، كل ذلك لن يسمح له بالعمل طويلاً. كانت كل أفكاره مصوبة نحو الشريط الجديد في حياتنا، ذلك الشريط الذي تكشف لنا، وراح يتخيل كيف سيلتقي بأصدقائه القدامى وأقربائه، الذين يمكن أن يكونوا قد تغيروا برأيه كثيراً خلال السنوات الأربع المنصرمة، وكان يعي في داخله التغير، الذي طرأ على بعض أفكاره وآرائه.

في الأيام الأخيرة من حزيران (يونيو) ١٨٧١ وصلتنا من مجلة (روسكي فيسنيك) مكافأة الرواية، ودون أن نضيع يوماً واحداً بدأنا ننهي أعمالنا في دريسدن (الأصح فك الأشياء المرهونة وتسديد الديون)، وترتيب الحاجيات استعداداً للسفر. وقبل يومين من السفر استدعاني فيدور

ميخائيلوفيتش، وسلمني عدة رزم كبيرة من الأوراق المكتوبة (من الحجم الكبير)، وطلب إحراقها. وعلى الرغم من أنه سبق لنا أن تحدثنا في ذلك، إلا أنني شعرت بالأسف على هذه المخطوطات، فرحت أتوسل إلى زوجي أن يسمح لي بأخذها معنا. ولكنه ذكرني أنهم سيفتشونه، دون شك على الحدود الروسية، وسينتزعون هذه الأوراق، التي ستضيع، كما ضاعت كل أوراقه حين اعتقل في عام ١٨٤٩. وكان يمكن أن يحتفظوا بنا في ويزجبولوف إلى أن ينتهوا من فحص الأوراق. وهذا أمر خطير، بسبب الحدث العائلي المرتقب. وعلى الرغم من صعوبة التخلي عن هذه المخطوطات فقد كان لا بد من النزول عند حجج فيدور ميخائيلوفيتش المقنعة. أضرمنا نار المدفأة، وأحرقنا الأوراق، وهكذا ضاعت مخطوطات روايتي (الأبله) و(الزوج الخالد). وكان أشد ما يؤسفني التخلي عن ذلك الجزء من رواية (الشياطين)، الذي كان النسخة الأصلية من هذه الرواية. وقد استطعت إنقاذ دفاتر الملاحظات المتعلقة بهذه الروايات، وتسليمها إلى والدتي، التي كانت تنوي العودة إلى روسيا في نهاية الخريف. ولم توافق على أخذ حقيبة ملأى بالمخطوطات، فقد كان من شأن هذه الكمية الكبيرة أن تثير الشكوك، وتؤخذ هذه الأوراق منها.

أخيراً في مساء الخامس من تموز (يوليو) تمكنا من مغادرة دريسدن إلى برلين، حيث ركبنا القطار المسافر إلى روسيا.

كان السفر شاقاً بسبب ليوبوتشكا، التي كان عمرها عاماً وعشرة أشهر. سافرنا دون مربية، فكان زوجي، بسبب حالتي المتوعكة، يسهر عليها الطريق كله: كان يرافقها إلى رصيف المحطات للتنزه قليلاً، ويجلب لها الحليب

والطعام، ويسليها بالألعاب ـ وبكلمة مختصرة كان يتصرف كأفضل مربية. وهذا ما سهّل علي السفر الطويل.

لقد حدث ما توقعناه، فعلى الحدود قلبوا كل الحقائب والأكياس، أما الأوراق ورزمة الكتب فقد وضعوها جانباً. كانوا قد صرفوا الجميع من صالة التفتيش، بينما بقينا نحن الثلاثة، بالإضافة إلى جمهرة من الموظفين، الذين تحلقوا من حول الطاولة، وراحوا يتفحصون الكتب الموضوعة جانباً والرزمة الثخينة من المخطوطات، وبدأ القلق يساورنا من أن نتأخر عن قطار بطرسبورغ. وهنا أنقذتنا ليوبتشكا من هذه الورطة. فقد شعرت المسكينة بالجوع، وراحت تصرخ بصوت عال: «ماما.. خبز»، ولم يلبث الموظفون أن انزعجوا من صياحها، فقرروا تركنا وشأننا، بعد أن أعادوا لنا الكتب والمخطوطات دون إبداء أية ملاحظة.

أمضينا يوماً آخر من العذاب في القطار، ولكن شعورنا بأننا نسير فوق الأرض الروسية، وأن كل من يحيطون بنا روس مثلنا، كان يخفف عنا لدرجة أننا نسينا كل معاناة السفر، كنت وزوجي مرحين سعيدين، وكل منا يسأل الآخر: هل يعقل أننا في روسيا أخيراً؟ إلى هذا الحد كان تحقق حلمنا الذي طالما راودنا يبدو لنا غريباً.

عام ١٨٧١ ونهاية حياة المهجر

قبل أن أنهي الحديث عن حياتنا في الخارج أود أن أشير إلى أنني أتذكرها وأنا في غاية الامتنان للقدر. صحيح أن السنوات الأربع ونيف، التي أمضيناها في المنفى الطوعي، جرَّت علينا المحن القاسية: وفاة ابنتنا الكبرى، مرض فيدور ميخائيلوفيتش، الضائقة المالية المستمرة، وعدم تأمين العمل، هوس فيدور ميخائيلوفيتش بالمقامرة على الروليت، واستحالة العودة إلى الوطن، ولكن هذه المحن كانت مفيدة لنا: فقد زادت من تقاربنا، وجعلت كلاً منا يفهم الآخر، ويقدره بشكل أفضل، وخلقت تلك العروة الوثقى، التي يعود إليها الفضل في سعادتنا العائلية.

إن ذكرياتي عن تلك السنوات تبدو صورة جميلة مشرقة، فقد عشنا، وزرنا العديد من المدن والأماكن الرائعة (دريسدن، بادن بادن، جنيف، ميلانو، فلورنسا، البندقية، وبراغ)، وتكشف أمام عيني الذاهلتين عالم كامل، لم يسبق لي أن رأيته، وإلى حد كبير أشبع حبي للمعرفة بزيارة المعابد والمعارض وأروقة اللوحات. وخاصة حينما كنت أشاهدها برفقة الإنسان الذي أحب، والذي كان كل حديث معه يكشف لي شيئاً ما جديداً في الفن أو الحياة.

كانت كل الأماكن التي زرناها لا تعتبر جديدة في شيء بالنسبة لفيدور ميخائيلوفيتش، ولكنه كان يتمتع بذوق فني مرهف، فكان يتردد على رواق اللوحات في دريسدن وفلورنسا بكل متعة، وكان يمضي الساعات يتمعن في كاتدرائية القديس مارك وقصور البندقية.

صحيح أنه لم يكن لدينا أي مجتمع في الخارج، باستثناء اللقاءات العفوية والعابرة. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان في العامين الأولين سعيداً بهذا البعد التام عن المجتمع: فقد عانى الكثير منذ وفاة أخيه ميخائيل، في الصراع ضد الفشل، الذي أصابه. وضد المحن والمصائب، هذا بالإضافة إلى معاناته مع رجالات الأدب. وإلى جانب هذا فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش يرى أن من المفيد جداً للإنسان المفكر أن يعيش بين الفينة والفينة لوحده، بعيداً عن الأحداث الجارية، المقلقة أبداً، وينصرف بكل كيانه لأفكاره وأحلامه. وفيما بعد، وبعد عودته إلى خضم العاصمة، كان فيدور ميخائيلوفيتش لا يكف يتذكر روعة الحياة في الخارج، حيث الفراغ التام، للتفكير بخطة العمل، أو لقراءة الكتاب المرغوب، بكل هدوء مستسلماً لمشاعر البهجة والحنان المسيطر عليه.

وكم من المسرات النيرة، العميقة أعطتنا الحياة في الخارج إلى جانب الانطباعات الخارجية الرائعة: ولادة الأطفال، بداية الأسرة، الحلم الذي كان يراود فيدور ميخائيلوفيتش أبداً، والذي ملأ حياتنا وأنارها، وبكل امتنان للقدر أقول: «سقى الله تلك السنوات الرائعة، التي قدر لي أن أحياها في الخارج، شبه وحيدة مع هذا الإنسان المدهش بخصاله الروحية الرفيعة».

كما أود، وأنا أنهي الحديث عن حياتنا في غضون أربع سنوات ونيف في الخارج، أن أشير إلى الأهمية الداخلية لحياة العزلة الطويلة، فعلى الرغم من المشاغل التي لا حصر لها، وضيق ذات اليد بشكل دائم، وعلى الرغم من الملل المرهق أحياناً، فقد كان لحياة العزلة الطويلة بهذا الشكل تأثير مثمر على ظهور الأفكار والمشاعر المسيحية وتناميها لدى زوجي، والتي كانت لديه دائماً. فقد قال لي كل الأصدقاء والمعارف، الذين التقوا به، بعد عودته من الخارج، أن فيدور ميخائيلوفيتش تغير كثيراً. فقد طرأ تغير كبير على طبعه نحو الأفضل، وأصبح أكثر لطفاً، وطيبة، وتسامحاً مع الناس. وتلاشى، بشكل يكاد يكون تاماً، تمرده وفراغ صبره. يقول ن. ن. ستراخوف في مذكراته: «إنني على قناعة تامة أن هذه السنوات الأربع ونيف، التي أمضاها فيدور ميخائيلوفيتش في الخارج، كانت أفضل مراحل حياته. إنها تلك الفترة، التي عادت عليه بالكثير من المشاعر والأفكار العميقة والنقية. كان يبذل قصارى جهده في العمل. وكان غالباً ما يعاني من الحاجة، ولكنه كان يرفل ببهجة الحياة العائلية السعيدة وهدوئها. وكان يعيش كل وقته تقريباً حياة العزلة المطبقة، أي بعيداً عن مختلف المؤثرات على الطريق المستقيم لتطور أفكاره والعمل الروحي العميق. إن ولادة الأطفال، والاهتمام بهم، ومشاركة أحد الزوجين الآخر معاناته، حتى موت الطفل الأول بحد ذاته، كل هذا انطباعات صافية، ورفيعة أحياناً، وليس ثمة شك في أن هذه الروح المسيحية، التي كانت تعيش فيه أبداً، قد تفجرت لديه في الخارج بالذات. وفي ظل هذه الظروف وهذه التأملات الهادئة والطويلة. وقد تكشف هذا التغير الجوهري

بشكل واضح لجميع المعارف ، لدى عودة فيدور ميخائيلوفيتش من الخارج . فقد أصبح لا يكف عن الحديث عن المواضيع الدينية ، والأكثر من هذا أنه تغير في المعاملة ، التي أصبحت أكثر دماثة ، والتي كانت تتحول أحياناً إلى رقة مفرطة .

حتى ملامح وجهه أصبحت تحمل أثر هذا المزاج ، وعلى شفتيه كانت تظهر الابتسامة الرقيقة ... ومن الواضح أن أفضل المشاعر المسيحية كانت تعيش فيه ، تلك المشاعر ، التي كانت تتجسد في مؤلفاته بشكل أكثر وأوضح . على هذه الصورة عاد من الخارج » .

وفيدور ميخائيلوفيتش نفسه كان في السنوات التالية يتذكر حياتنا في الخارج بكل امتنان .

ثم إن الأقرباء والمعارف لاحظوا أنني تغيرت بدوري : فقد تحولت من صبية خجول وساذجة ، إلى امرأة ذات شخصية حازمة ، لم تعد تخاف الكفاح تجاه مشاكل الحياة ، الأصح تجاه الديون ، التي بلغت لدى عودتنا إلى بطرسبورغ خمسة وعشرين ألفاً . لقد احتفظت بمرحي وبهجتي ، ولكنهما لم يتجليا إلا في الأسرة ، بين الأقارب أو الأصدقاء ، أما في حضور الغرباء ، والرجال بخاصة ، فقد كنت متماسكة إلى الحد الأقصى . وكنت ألوذ بالصمت ، وأصغي بانتباه ، أكثر مما كنت أعبر عن أفكاري . وكانت صاحباتي يؤكدن لي أنني شخت إلى حد كبير ، خلال هذه الأعوام الأربعة ، ويؤنبنني على إهمال مظهري ، وعدم مواكبة (الموضة) في لباسي وتسريحتي ، وقد وافقتهن

الرأي ، ولكنني لم أكن أرغب في أن أتغير في أي شيء. كنت على قناعة راسخة أن فيدور ميخائيلوفيتش لا يحبني لمظهري فقط ، بل للصفات الجيدة ، التي يتحلى بها عقلي وشخصيتي ، وأننا تمكنا خلال هذا الوقت من (الانسجام) ، كما يقول فيدور ميخائيلوفيتش . وكان من شأن مظهري ، وتجنب الاختلاط بالرجال أن يترك تأثيراً إيجابياً على زوجي ، لأنهما لم يعطياه حجة لظهور تلك الخصلة السيئة في طبعه ــ الغيرة التي لا مسوّغ لها أبداً .

الفصل الرابع

من جديد في روسيا

العودة إلى الوطن

في الثامن من تموز (يوليو) ١٨٧١ ، وكان نهاراً مشمساً حاراً ، عدنا إلى بطرسبورغ ، بعد أن أمضينا أربع سنوات في الخارج .

ومن محطة وارسو انطلقنا عبر شارع اسماعيلوف ، ومررنا بكنيسة الثالوث المقدس ، حيث جرى تكليلنا ، فرسمنا إشارة الصليب ، وقد رسمت طفلتنا الصغيرة إشارة الصليب ، وهي تنظر إلينا .

وقال فيدور ميخائيلوفيتش : على كل حال لقد أمضينا هذه السنوات

الأربع في الخارج بسعادة، على الرغم من بعض المصاعب. فماذا تخبىء لنا حياة بطرسبورغ يا ترى؟ كل شيء ملفع بالضباب أمامنا... وقلبي يحدثني بالكثير من المصاعب والمشاكل والقلق، قبل أن نقف على أقدامنا. ليس لي أمل إلا بعون الله.

وحاولت أن أخفف عنه: لماذا الحزن مسبقاً، نأمل أن الله لن يتخلى عنا! المهم أن حلمنا القديم قد تحقق، وأننا معاً في الوطن من جديد.

نزلنا في فندق في شارع بولشوي كونيوشيني، ولكننا لم نبق فيه سوى يومين. فقد كان البقاء فيه غير ملائم، ونحن على عتبة ظهور طفل جديد، ثم إن الإقامة فيه مكلفة. وهكذا فقد استأجرنا غرفتين مفروشتين في الطابق الثالث منزل رقم ٣ في شارع يكاتيريناغوف، وقد وقع اختيارنا على هذا المكان كي تستطيع طفلتنا في أيام تموز وآب الحارة التنزه في حديقة يوسوب القريبة.

في الأيام الأولى من وصولنا زارنا أقرباء فيدور ميخائيلوفيتش، وكان لقاؤنا بالجميع ودياً. وخلال هذه السنوات الأربع تحسن وضع إيميليا فيدورفنا دستويفسكيا: فقد كان ابنها الأكبر، فيدور ميخائيلوفيتش، موسيقياً رائعاً، وكان يعطي الكثير من الدروس المربحة على البيانو. أما الولد الثاني، ميخائيل ميخائيلوفيتش فكان يعمل في مصرف، وكذلك ابنتها يكاتيرينا ميخائيلوفنا كانت تعمل في الاختزال، وهكذا فقد كانت الأسرة تعيش في بحبوحة، أضف إلى هذا أن إيميليا فيدورفنا اعتادت، خلال هذه الفترة، على فكرة أن فيدور

ميخائيلوفيتش لم يعد يستطيع، بعد أن أصبح ذا أسرة، أن يساعدها إلا في الحالات الطارئة.

وحده بافل الكسندروفيتش لم يستطع التخلي عن فكرة أن (أباه) — كما كان يصر على تسمية فيدور ميخائيلوفيتش — ملزم بالإنفاق، ليس عليه وحده، بل وعلى أسرته. وعلى أية حال فقد كان لقائي به ودياً أيضاً، ويعود ذلك، بشكل خاص، إلى أن زوجته ناديجدا ميخائيلوفنا، وكانا قد تزوجا في نيسان الماضي فقط، أعجبتني كثيراً. كانت امرأة كَيِّسَة، قصيرة القامة، متواضعة، ولكنها ليست بالغبية، ولم أفهم أبداً كيف تزوجت من إنسان لا يطاق مثل بافل الكسندروفيتش، فأشفقت عليها من كل قلبي، ورأيت مسبقاً كم ستكون حياتها قاسية.

وفي الصباح الباكر من ١٦ تموز (يوليو)، وكان قد مضى على وصولنا إلى بطرسبورغ ثمانية أيام، ولد ابننا الأكبر فيدور. وكنت عشية ذلك اليوم قد شعرت بأنني لست على ما يرام، وفيما بعد أخبرني فيدور ميخائيلوفيتش، الذي أمضى النهار والليل، وهو يصلي طالباً الخلاص على خير، أنه قرر، إذا ما جاء صبياً، وكانت الولادة، ولو قبل عشر دقائق من منتصف الليل، أن يسميه (فلاديمير)، تيمناً بالقديس فلاديمير، الذي يصادف عيده الخامس عشر من تموز (يوليو)، ولكن الطفل ولد في السادس منه فأسميناه فيدور، على شرف أبيه، كما اتفقنا منذ عهد بعيد. كان فيدور ميخائيلوفيتش سعيداً جداً لسببين: لأننا رزقنا بصبي، ولأن (الحدث) العائلي، الذي طالما أقض مضجعه، قد انتهى على خير.

وحين بدأت أُنماثل للشفاء عَمَّدنا الصغير. وقد كان صديقنا الشاعر ابولون نيقولايفيتش مايكوف عرابه، أما أمه بالعماد فقد اختار فيدور ميخائيلوفيتش ابنتنا ليوبوتشكا، التي لم تكن قد بلغت الثانية من عمرها بعد.

في نهاية آب (أغسطس) سافر زوجي إلى موسكو، وتسلم من هيئة تحرير (البشير الروسي) جزءاً من المكافأة على رواية (الشياطين)، التي صدرت في عام ١٨٧١. لم يكن المبلغ بالكبير، ومع ذلك فقد ظهرت الفرصة للانتقال من الغرفتين المفروشتين إلى شقة شتوية. ولكن الصعوبة الأساسية التي كانت تواجهنا أنه لم يكن لدينا أي أثاث. وقد خطر لي أن أذهب إلى سوق ابراكسين، وأسأل تجار الأثاث المحليين عما إذا كانوا يوافقون على بيعنا الأثاث بالتقسيط ـــ خمسة وعشرين روبلاً شهرياً ـــ على أن يبقى الأثاث ملك التاجر حتى دفع القسط الأخير، وقد وافق أحد التجار على هذه الشروط، وباعنا دفعة واحدة ما قيمته بأربعمئة روبل. ولكن أية أشياء كانت! صحيح أن الأثاث كان جديداً، ولكنه كان كله من خشب الحور الرومي والصنوبر، هذا عداك عن الطراز السيء، كان من السوء لدرجة أنه لم تمض ثلاث سنوات حتى تداعى، واضطررنا إلى استبداله بآخر جديد. ومع ذلك فقد كنت سعيدة حتى بهذا الأثاث، فقد مكننا من أن نقتني شقتنا الخاصة. كان من الجنون البقاء في الشقة المفروشة: فبصرف النظر عن مختلف المنغصات، كان قربُ الطفلين من بعضهما، وصياحهما، وبكاؤهما يضايق زوجي في النوم والعمل.

لم نكد نتفق على الأثاث حتى بدأت البحث عن الشقة. وقد تبرع

بافل الكسندروفيتش بمساعدتي ، وفي مساء اليوم نفسه أعلن أنه عثر على شقة ممتازة من ثماني غرف لقاء أجرة زهيدة ــ مئة روبل شهرياً .

وسألت ، وقد تملكتني الدهشة : وما حاجتنا إلى مثل هذه الشقة الكبيرة ؟

ــ ليست بالكبيرة أبداً : سيكون لديكم غرفة للضيوف ، غرفة مكتب ، غرفة نوم ، وغرفة أطفال . وسيكون لنا غرفة ضيوف ، غرفة مكتب ، غرفة نوم ، أما غرفة الطعام فستكون مشتركة .

وسألت وقد أذهلتني وقاحته : وهل تنوي العيش معنا ؟

ــ كيف لا ، هذا ما قلته لزوجتي : حينما يعود أبي سنسكن سوية .

وهنا كان لا بد لي أن أتحدث معه بجدية ، وأبين له أن الظروف تغيرت الآن ، وأنه لا يمكن أن أوافق مطلقاً على العيش في شقة مشتركة . وكما هي عادته فقد أطلق بافل الكسندروفيتش العنان لوقاحته وتهديداته بأنه سيشكوني إلى فيدور ميخائيلوفيتش . ولكنني لم أصغ إليه . فالسنوات الأربع من الحياة المنفردة لم تمر عبثاً . وقد نفذ بافل الكسندروفيتش وعيده ، وحدث فيدور ميخائيلوفيتش بالأمر ، ولكن الجواب كان :

ــ لقد أعطيت زوجتي حرية التصرف في أمور التدبير ، وكما تُقَرِّرُ يكون .

لفترة طويلة ظل بافل الكسندروفيتش لا يستطيع أن يغفر لي فشل خططه .

بعد جهد جهيد عثرت على شقة في شارع سيربوخوف ، غير بعيد عن المعهد التكنولوجي في بناية ارخانفيلسكيا ، واستأجرتها باسمي ، كي أجنب زوجي المشاغل التدبيرية . كانت الشقة تضم أربع غرف : المكتب ، حيث كان فيدور ميخائيلوفيتش يعمل وينام ، غرفة الضيوف ، الطعام ، وغرفة كبيرة للأطفال وفيها كنت أنام .

كنت ، وأنا أنظر إلى الأثاث السيء ، أعزي نفسي بأننا لن نكون بحاجة لشراء الحاجيات المنزلية ولا الثياب الدافئة ، لأنه سبق لنا أن حفظناها عند أشخاص مختلفين . ولكن للأسف أن الفشل كان يترصدني هنا أيضاً .

فغرفة الطعام والأواني النحاسية ومستلزمات المطبخ كانت محفوظة في بيتنا لدى سيدة كهلة أعرفها . ولكنها توفيت في غيابنا ، فأخذت أختها كل ما بقي من أشياء إلى حيث تقطن في الريف ، دون أن تميز بين ما هو لأختها ، وما هو لنا . أما معاطف الفرو فكانت مرهونة لدى إحدى السيدات ، التي كانت تراقب دفع الفوائد . على الرغم من أننا لم نتخلف عن إرسال النقود لهذا الغرض . أما الزجاج والصيني ، اللذين أودعناهما لدى أختي ماريا غريغوريفنا ، فقد كسرتهما الخادمة في أثناء نقلهما من المطبخ بعد غسلهما . وكانت هذه الخسارة محزنة فقد كان أبي يعرف الصيني جيداً ، ويحب التردد على مخازن العاديات لاقتناء الأفضل منه . وبعد وفاته كانت من نصيبي مجموعة من أقداح

Vieux- Saxe الرائعة، ومجموعة خدمة من عهد القيصر نيقولاي. بالإضافة إلى الأواني القديمة، ذات الزخرفة الدقيقة. وحتى اليوم لا زلت أشعر بالأسف على ضياع هذه الأقداح الرائعة، التي تمثل الراعيات، والكأس، الذي رسمت على زجاجه ذبابة تكاد تكون حية، لدرجة أن كل من شرب منه كان يحاول اصطيادها، لكأنها حية فعلاً، لو أستطيع استرداد ذكريات الطفولة الحبيبة هذه مهما كان الثمن..

والمصير نفسه أحاق بحاجيات فيدور ميخائيلوفيتش. فقد كانت لديه مكتبة رائعة. كان الحنين يشده إليها في الخارج، وكانت تضم الكثير من الكتب، المهداة من أصدقائه الكتّاب وعليها إهداءاتهم، كما كان ثمة الكثير من الكتب في التاريخ والمذهب القديم، الذي كان فيدور ميخائيلوفيتش يهتم به كثيراً، وقبل سفرنا كان بافل الكسندروفيتش قد طلب من زوجي ترك هذه المكتبة تحت رعايته، مؤكداً أنه يحتاجها للمطالعة. وأنه سيعيدها كاملة، ولكن تبين أنه باعها في مخازن الكتب القديمة، لسد حاجته إلى المال. وعلى لومي له أجاب بوقاحة، وأعلن أن الذنب ذنبنا نحن لأننا لم نكن نرسل له المال في الوقت اللازم.

أثار ضياع المكتبة القيّمة الحزن والأسى لدى فيدور ميخائيلوفيتش، ولم يكن بإمكانه الآن أن ينفق المبالغ الكبيرة، كما في السابق، على شراء الكتب، التي كان بأمس الحاجة إليها. أضف إلى ذلك أن مكتبته كانت تضم عدداً من الكتب النادرة، التي لا يمكن شراؤها.

وكانت المفاجأة السارة بالنسبة لي سلة كبيرة مجدولة ملأى بالأوراق، سبق أن أودعتها لدى بعض أقربائي. وبينما كنت أفتش فيها عثرت على عدة دفاتر تعود إلى رواية (الجريمة والعقاب) والقصص القصيرة. وعلى عدة كتب تعود إلى مجلتي (الوقت) و(العصر)، العائدتين لأخيه المتوفى ميخائيل ميخائيلوفيتش، والكثير من المراسلات المختلفة. كانت هذه الأوراق والوثائق ذات أهمية بالغة في حياتنا فيما بعد، للبرهان على هذه الحقائق، أو تلك من حياة فيدور ميخائيلوفيتش أو دحضها.

في أيلول ١٨٧١ ذكرت إحدى الصحف نبأ عودة الكاتب دستويفسكي من الخارج. فأسدت لنا بذلك خدمة ضارة، فللحال تقاطر الدائنون، الذين ظلوا ساكتين حتى ذلك الوقت، وراحوا يطالبون بتسديد الديون. وكان في طليعتهم غينتير شتين، الذي كان أكثرهم رهبة. ولم يكن فيدور ميخائيلوفيتش مديناً له، وحتى هذا الدين لم يكن بسبب المجلة، بل بسبب معمل التبغ، الذي كان يخص أخاه المتوفى.

كان ميخائيل ميخائيلوفيتش إنساناً عملياً، وكان لديه ـــ بالإضافة إلى المجلة ـــ معمل تبغ. وبهدف الترويج للتبغ على أوسع نطاق ابتكر جوائز، على شكل مقصات وشفرات وسكاكين لبري الريشة، إلى غير ذلك، كان يضعها في الصناديق المعبأة بالسجائر. وكانت هذه المفاجآت تستقطب العديد من الزبن. وكان ميخائيل ميخائيلوفيتش يشتري الأشياء المذكورة آنفاً من التاجر غينتير شتين بالجملة، بالتقسيط ولقاء فوائد عالية. وحينما كان الاشتراك بمجلة (الوقت) جيداً كان ميخائيل ميخائيلوفيتش يسدد بالتدريج

لغينتير شتين ، الذي كان يعتبر من أكثر مقرضيه إلحاحاً . وقبل عدة أيام من وفاته زف لزوجته ولفيدور ميخائيلوفيتش بشرى أنه ... أخيراً تخلص من هذه العلقة ــ غينتير شتين ــ .

وحينما انتقلت ديون الأخ بعد وفاته إلى فيدور ميخائيلوفيتش جاءته السيدة غينتير شتين ، وأعلنت أن أخاه ما زال مديناً لها بحوالي ألفي روبل . وهنا تذكر فيدور ميخائيلوفيتش ما كان قد أشار إليه أخوه من تسديد ديون غينتير شتين . ولكنه لم يكد يقول لها ذلك حتى أعلنت أن هذا المبلغ شيء آخر ، وأنها أعطته المرحومَ دون أية وثيقة . وراحت تتوسل إلى فيدور ميخائيلوفيتش ، إما أن يدفع لها المبلغ ، وإما أن يعطيها كمبيالة ، وراحت تولول ، وركعت أمامه ، وهي تؤكد أن زوجها سيقتلها . وقد صدقها فيدور ميخائيلوفيتش ، المطبوع على الثقة بالنزاهة البشرية ، وأعطاها كمبيالتين بقيمة ألف روبل لكل منهما . وبموجب الكمبيالة الأولى كان قد تم الدفع حتى عام ١٨٦٧ ، أما الكمبيالة الثانية ، التي ارتفع المبلغ فيها ، خلال السنوات الخمس ، إلى ألف ومئتي روبل ــ مع الفوائد ــ فقد طالبنا غينتير شتين بدفعها لدى عودتنا ، حيث أرسل رسالة تهديد ، فقصده فيدور ميخائيلوفيتش يطلب مهلة حتى رأس السنة ، موعد تسلمه مكافأة الرواية . ولكنه عاد من لدنه يائساً . فقد أعلن غينتير شتين أنه لا ينوي الانتظار أكثر ، وأنه قرر الحجز على كل أملاكه المنقولة . وإذا لم تكن كافية لتسديد الدين فسيزج بفيدور ميخائيلوفيتش في قسم الديون[١] .

---

(١) هكذا كان يسمى القسم الموجود في فوج اسماعيلوف في دار تاراسوف . حيث كان ←

وقال له فيدور ميخائيلوفيتش: ولكن هل بوسعي أن أمارس العمل الأدبي، وأنا في قسم الديون، بعيداً عن أسرتي، يحيط بي أناس غرباء مختلفون؟ فكيف سأدفع لك إذا ما حرمتني من إمكانية العمل؟

فأجاب غينتير شتين: أوه، إنك أديب مشهور، وأعتقد أن الصندوق الأدبي لن يلبث أن يفتديك من السجن.

لم يكن فيدور ميخائيلوفيتش يحب شخصيات الصندوق الأدبي آنذاك، ولذا فقد أعرب عن شكوكه في مساعدتهم، وحتى إذا ما عرضت (كما أعلن لغينتير شتين) فإنه يفضل البقاء في السجن على قبول هذه المساعدة.

أمضيت مع زوجي وقتاً طويلاً في مناقشة أفضل الحلول، ثم قررنا عرض صفقة جديدة على غينتير شتين: أن ندفع له مئة روبل، ونسدد الباقي بمعدل خمسين روبلاً في الشهر، على أن نسدد كامل المبلغ بعد رأس السنة. وقد سافر زوجي إلى غينتير شتين، يحمل هذا الاقتراح، ولكنه عاد وهو في ذروة الغضب، وأخبرني أن غينتير شتين قال له بعد حديث طويل:

ــ ها أنت أديب روسي موهوب، أما أنا فمجرد تاجر ألماني صغير، وبودي أن أريك أنني أستطيع زج الأديب الروسي المشهور في سجن الديون، كن على ثقة من أنني سأفعل ذلك.

ــ يسجن المدينين. (الكاتبة)

كان ذلك عقب الحرب الفرنسية ــ البروسية، حيث أصبح الألمان قاطبة متعجرفين ومختالين.

شعرت بالغضب من مثل هذه المعاملة تجاه فيدور ميخائيلوفيتش، ولكنني كنت أدرك أننا تحت رحمة هذا السافل، ولا نملك إمكانية التخلص منه، ولما كان قلبي يحدثني أن غينتير شتين لن يكتفي بالتهديدات فقد قررت أن أحاول حل الموضوع بنفسي، ودون أن أخبر زوجي بنيتي (كان من شأنه أن يمنعني على الأرجح) توجهت إلى غينتير شتين.

استقبلني بكل صلف وأعلن:

ــ إما النقود على الطاولة، وإما أن يحجز على أملاككم بعد أسبوع، وتباع بالمزاد العلني، أما زوجك فسيزج به في دار تاراسوف.

فأجبته بكل برودة: إن شقتنا مستأجرة باسمي أنا، لا باسم فيدور ميخائيلوفيتش، أما الأثاث فقد تم شراؤه بالدين، والدفع تقسيطاً، وسيبقى، حتى تسديد كامل الثمن، ملكاً لتاجر الأثاث، ولذا فإن الحجز عليه غير ممكن، وكدليل على ذلك عرضت عليه عقد الإيجار ونسخة من الاتفاق مع تاجر الأثاث.

ثم تابعت: أما فيما يتعلق بتهديدك بقسم الديون فإنني أحذرك: إذا ما قمت بذلك سأتوسل إلى زوجي أن يبقى هناك حتى نهاية الفترة[٢]. أما أنا

---

(٢) كان سجن المدين يعتبر تسديداً للدين. وكان على المدين أن يمضي في السجن ما بين ٩ ــ ١٤ شهراً لتسديد مبلغ الـ ١٢٠٠ روبل. (الكاتبة)

فسأسكن مع الأطفال غير بعيدة عنه، وسأزوره وأساعده في عمله، وبالتالي فإنك لن تحصل على قرش واحد، والأكثر من هذا أنك ستجبر على دفع تكاليف إقامته، أعدك أنك ستنال العقاب اللازم على تصلبك.

راح غينتير شتين يشكو من آن فيدور ميخائيلوفيتش لا يعترف بجميله، ولا يرغب في تسديد هذا المبلغ الذي صبر عليه طويلاً.

وقلت له بسخط: إن عليك أنت أن تعترف بجميل فيدور ميخائيلوفيتش لأنه أعطى الكمبيالة لزوجتك بدين لعله سدد منذ عهد بعيد. إن فيدور ميخائيلوفيتش إنما قام بذلك بدافع الشفقة وطيب القلب، فقد بكت زوجتك، وقالت إنك ستقتلها، وإذا ما تجاسرت على تنفيذ وعيدك فسأروي هذه القصة في (ابن الوطن)، وليعرف الجميع مدى مواهب الألمان (الشرفاء).

كنت غاضبة جداً، ولم أكن أختار العبارات، وقد أتت حماستي أكلها في هذه المرة، فقد دب الخوف في قلب الألماني وسأل عما أريد!

ــ الشيء نفسه، الذي طلبه زوجي البارحة منك.

ــ حسناً، هاتي النقود.

طلبت منه وثيقة بالتفصيل عن اتفاقنا، لأنني خفت أن يغير رأيه فيما بعد، ويعود إلى تعذيبنا من جديد. وقد عدت إلى البيت مظفرة، فقد أعدت الاطمئنان إلى زوجي الغالي، ولو لبعض الوقت.

قبل الحديث عن صراعنا مع الدائنين، الذي استمر عشر سنوات أخرى، حتى وفاة فيدور ميخائيلوفيتش تقريباً، بودي إيضاح كيف ظهرت هذه الديون، التي أذاقتنا الأمرين.

فقط جزء صغير منها، بحدود ألفين ـ ثلاثة، كان ديناً حقيقياً على فيدور ميخائيلوفيتش، أما المبلغ الأكبر فقد ترتب علينا بسبب ديون ميخائيل ايفانوفيتش في معمل التبغ ومجلة (الوقت)[٣]. وبعد وفاة ميخائيل ميخائيلوفيتش المفاجئة (لم يستمر مرضه سوى ثلاثة أيام) وجدت أسرته، المؤلفة من زوجته وأربعة أولاد، والمعتادة على الحياة الموسرة، لا بل والمرفهة، وجدت نفسها محرومة من كل شيء، وقد اعتبر فيدور ميخائيلوفيتش، الذي توفيت زوجته، ولم يكن لديه أولاد، أن من واجبه أن يسدد ديون أخيه ويقوم بأوَد أسرته. ومن المحتمل أنه كان يمكن أنه يقوم بهذا العمل النبيل، لو كان يتحلى بالشخصية الحذرة والعملية. وللأسف أنه كان مفرط الثقة بالنزاهة والنبل الإنسانيين. وحينما سمعت فيما بعد روايات شهود العيان عن الكيفية، التي كان فيدور ميخائيلوفيتش يعطي فيها الكمبيالات، وحينما عرفت من الرسائل القديمة تفاصيل العديد من الوقائع ذهلت لسذاجته الطفلية. فقد خدعوه، وأخذوا منه الكمبيالات دون وازع من ضمير. ولم يكن فيدور ميخائيلوفيتش يعرف شيئاً عن أمور مجلة أخيه المالية، وحينما أخذ على عاتقه بعد وفاته، إصدار مجلة (العصر) اضطر لأن يأخذ على عاتقه كل الديون غير المسددة المترتبة على مجلة (الوقت)، والطباعة والورق والتجليد إلى غير ذلك.

---

(٣) تقدر ديون المجلة كما ذكر دستويفسكي في رسالته إلى فرانغل بـ ٣٣ ألف روبل. (المترجم)

ولكن بالإضافة إلى العاملين في (الوقت)، الذين يعرفهم فيدور ميخائيلوفيتش، بدأ يأتيه أناس لا يعرف معظمهم، وكانوا يؤكدون أن المرحوم ميخائيل ميخائيلوفيتش ما زال مديناً لهم. ولم يقدم هؤلاء ــ كلهم تقريباً ــ أي إثبات لذلك. ثم إن فيدور ميخائيلوفيتش، الذي يثق بالناس، لم يكن يسأل عن الإثباتات، وكان عادة ما يقول للمراجعين، كما ذكروا فيما بعد:

ــ ليس لدي الآن أية نقود، ولكن بوسعي أن أعطيكم كمبيالة إذا أردتم. ولكن كل ما أرجوه منكم أن لا تطالبوني بالدفع قريباً، سأدفع لكم حين يكون ذلك ممكناً.

فكان الناس يأخذون الكمبيالات، ويعدون بالانتظار، ولكنهم لم يكونوا يفون بوعودهم طبعاً، بل كانوا يطالبون بالتسديد فوراً، وأورد هنا المثال، الذي تبين لي بالوثائق مدى صحته:

جاء أحد الكتّاب من ذوي الموهبة القليلة، وهو خ. الذي سبق له أن نشر أعماله في (الوقت)، جاء إلى فيدور ميخائيلوفيتش يرجوه أن يدفع له مبلغ مئتين وخمسين روبلاً، مكافأة عن قصة قصيرة كانت قد نشرت في المجلة في حياة ميخائيل ميخائيلوفيتش. وكما هي العادة فلم يكن لدى زوجي نقود، فاقترح عليه كمبيالة. راح خ. يعرب عن شكره وامتنانه، ووعد بالانتظار إلى أن تتحسن الأمور لدى فيدور ميخائيلوفيتش وطلب أن تكون الكمبيالة بدون تاريخ كي لا يمكن الطعن فيها لدى حلول الموعد المضروب. وكم كانت دهشة فيدور ميخائيلوفيتش كبيرة حينما طولب بتسديد قيمة هذه الكمبيالة بعد

أسبوعين . وكان هناك نية للحجز على الملكية . توجه فيدور ميخائيلوفيتش إلى خ . لاستيضاحه . وقد ارتبك صاحبنا ، وراح يختلق الأعذار ، ويؤكد أن صاحبة البيت هددته بالطرد من البيت ، ولم يجد حلاً آخر إلا أن يعطيها الكمبيالة ، بعد أن أخذ منها وعداً بالانتظار في المطالبة بالنقود ، كما وعد بالتحدث إليها من جديد ، وإقناعها ، إلى غير ذلك . ومن البديهي أن المحادثات لم تجد فتيلاً ، واضطر فيدور ميخائيلوفيتش إلى استدانة هذا المبلغ لقاء فائدة كبيرة ، من أجل تسديده .

وبعد حوالي ثمانية أعوام ، وبينما كنت أقلب أوراق فيدور ميخائيلوفيتش ، عثرت على كتيب الملاحظات الخاص بمجلة (الوقت) . ولكم أن تتصوروا مدى دهشتي وغضبي حين وجدت داخله إشعاراً بتوقيع الكاتب خ . باستلام مكافأة القصة إياها من ميخائيل ميخائيلوفيتش ! وحين عرضت الإشعار على زوجي كان جوابه :

ــ لم أكن أعتقد أبداً أن خ . قادر على التغرير بي ، يا للضيق إلى أين يمكن أن يدفع الإنسان .

كان رأيي أن القسم الأكبر من الديون ، التي التزم فيدور ميخائيلوفيتش بتسديدها ، كانت من هذا النوع ، كان حجمها يقارب العشرين ألفاً . ولكن تراكم الفوائد جعلها لدى عودتنا من الخارج حوالي خمسة وعشرين . وقد استغرق تسديدها ثلاثة عشر عاماً . فقط قبل عام واحد من وفاة زوجي تمكنا من تسديدها ، وأصبح بوسعنا أن نتنفس الصعداء : إذ لم نعد

نخاف أن يعذبونا بالتذكير والاستفسار والتهديدات بالحجز على أملاكنا، وبيعها، إلى غير ذلك.

ومن أجل دفع هذه الديون المزيفة اضطر فيدور ميخائيلوفيتش للعمل فوق طاقته، وللتقتير على نفسه وعلى أسرتنا كلها، ليس بالرفاه والراحة فقط، بل وبالحاجات الماسة جداً، وكم كان يمكن أن نكون أكثر سعادة وبهجة واطمئناناً، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر من حياتنا الزوجية، لو لم يكن سيف تسديد الديون مسلطاً فوق رأسنا أبداً.

وكم كانت أعمال زوجي الأدبية أفضل لولا هذه الديون، التي التزم بها، حيث كان بوسعه أن يكتب الروايات بهدوء، ويراجعها، ويشذبها قبل إرسالها للطبع. وغالباً ما يقارنون في الأوساط الأدبية، وفي المجتمع أعمال دستويفسكي بأعمال الكتّاب العظام الآخرين، ويلومونه على التعقيد الزائد والبلبلة وإثقال كاهل رواياته، في الوقت الذي نجد أعمال الآخرين مهذبة، فلدى تورغينيف ــ على سبيل المثال ــ تكاد تكون مصقولة، كما يصقل الجواهري الأحجار الكريمة، ونادراً ما يخطر ببال أحد أن يتذكر، ويزن تلك الظروف، التي أحاطت بحياة الكتّاب الآخرين وعملهم، وتلك التي أحاطت بحياة زوجي وأعماله. فقد كانوا جميعهم تقريباً (تولستوي، تورغينيف، وغونتشاروف) يتمتعون بصحة جيدة، ويعيشون حياة موسرة، ولديهم الإمكانات الكافية للتفكير بأعمالهم، وتشذيبها. على حين كان فيدور ميخائيلوفيتش يعاني من مرضين عضالين اثنين: كان مثقلاً بأسرة كبيرة وبالديون، وكان منصرفاً إلى الأفكار المعذبة بيوم الغد، بلقمة الخبز. فهل كانت هناك إمكانية، في مثل

هذه الظروف، لتشذيب الأعمال؟ فكم حدث خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة، من حياته أن كان فصلان ـــ ثلاثة قد صدرا في المجلة، بينما الرابع قيد الصف في المطبعة، والخامس لا يزال في البريد في طريقه إلى (البشير الروسي)، بينما الفصول الأخرى لا تزال في ذهن الكاتب. وكم حدث أن اكتشف فيدور ميخائيلوفيتش خطأه بعد قراءة الفصل المطبوع من الرواية، فكان يتملكه الأسى لأنه أفسد الفكرة. وكان يقول أحياناً: لو كان بالإمكان أن استرد هذا، لو كان بالإمكان تصحيحه! إنني أرى الآن مكمن الصعوبة، أرى لماذا كانت كتابة الرواية صعبة. ومن يدري فقد أكون بهذا الخطأ قد قتلت (فكرتي) نهائياً.

وكان ذلك حزناً حقيقياً، حزن الفنان، الذي رأى بوضوح مكمن خطأه، ويعجز عن إصلاحه. وللأسف أن هذه الفرصة لم تتح أبداً: فقد كانت النقود ضرورية للمعيشة، ولتسديد الديون، ولذا فقد كان يضطر، على الرغم من المرض، أحياناً في اليوم التالي للنوبة، إلى الانكباب على العمل والعجلة، وإلقاء نظرة عاجلة على المخطوط، المهم أن يرسل في موعده، ويكون بالإمكان الحصول على المكافأة بسرعة، ولم يصدف في حياته، باستثناء قصته الأولى (المساكين) أن كتب مؤلفاً واحداً بتأن، دون عجلة، بعد تفكير ملي بخطة الرواية، ومناقشتها بكل تفاصيلها. لقد ضن القدر على فيدور ميخائيلوفيتش بمثل هذه السعادة العظمى، وقد كانت تلك حلمه الدفين، ولكنه ظل بعيد المنال للأسف.

ثم إن هذه الديون، التي أخذها فيدور ميخائيلوفيتش على عاتقه،

كانت ذات ضرر اقتصادي أيضاً: ففي الوقت الذي كان فيه الكتّاب الموسرون (تورغينيف، تولستوي، وغونتشاروف) يعرفون أن المجلات ستتنافس على رواياتهم، وسيحصلون على خمسمئة روبل لكل ملزمة، كان على دستويفسكي، المحتاج، أن يعرض مؤلفاته على المجلات بنفسه. وكان ما يحصل عليه أقل بكثير، فقد حصل على مئة وخمسين روبلاً لكل ملزمة من رواياته (الجريمة والعقاب، الأبله، والشياطين) وعلى مئتين وخمسين روبلاً لكل ملزمة من رواية (المراهق)، وعلى ثلاثمئة روبل لكل ملزمة من روايته الأخيرة (الأخوة كارامازوف).

وكم أشعر بالمرارة، إذ أتذكر كيف سممت هذه الديون الغريبة حياتي الخاصة، إنها ديون إنسان لم يسبق لي أن رأيته في حياتي، أضف إلى هذا أنها ديون مزيفة، بكمبيالات ابتزها من زوجي أناس لا ضمير لهم. كانت كل حياتي آنذاك كالحة بسبب التفكير الدائم بكيفية الحصول على المبلغ الفلاني من النقود في موعد كذا، أين ولقاء كم سنرهن هذا الشيء أو ذاك؟ وكيف أتصرف بحيث لا يعرف فيدور ميخائيلوفيتش بقدوم الدائن، أو رهن هذا الشيء أو غيره؟ لقد استنزف صباي في هذا، وساءت صحتي، وأرهقت أعصابي.

ويزداد عذابي حين يخطر لي أنه كان بالإمكان تجنب نصف هذه المعاناة لو كان ثمة بين أصدقاء زوجي أناس طيبون، أسدوا له بعض النصائح في إصدار المجلة، هذا العمل الذي يجهله. وكنت لا أفهم، كيف استطاع أولئك الذين كان فيدور ميخائيلوفيتش يعتبرهم أصدقاءه، والذين كانوا يعرفون

مدى سذاجته كطفل، وثقته الزائدة ومرضه، أن يتركوه وحده في مواجهة هذه الادعاءات والديون، التي خلّفها موت أخيه. هل يعقل أنهم لم يستطيعوا مد يد العون له في تقصي صحة هذه الادعاءات، والمطالبة ببرهان على كل دين؟ إنني على قناعة تامة بأن العديد من الادعاءات لم تكن لترى النور لو عرف أصحابها أن فيدور ميخائيلوفيتش الطيب والوديع، لن يكون وحده الذي سيطلع عليها. وللأسف أنه لم يُعْثر بين أصدقاء زوجي، ومن يكنُّ له الاحترام والتقدير، ولو على إنسان طيب واحد، رغب في التضحية بوقته وتقديم الخدمة الحقيقية له. كانوا كلهم يشفقون عليه، ويتعاطفون معه، ولكن كل ذلك كان مجرد (كلام في كلام).

وقد يقول قائل إن أصدقاءه كانوا شعراء وروائيين، لا يفقهون شيئاً في الحياة العملية. وجوابي على هذا أن كل هؤلاء كانوا يديرون أعمالهم الشخصية بشكل رائع. وقد يعترض البعض أن فيدور ميخائيلوفيتش كان يحب العمل باستقلال، ولم يكن ليسمح بتوجيهات الآخرين. ومثل هذا الاعتراض غير صحيح أيضاً. فقد قام، عن طيب خاطر، بتسليمي كل شؤونه، وكان يصغي إلى نصائحي وينفذها. وإن كان في البداية لم يستطع ــ بالطبع ــ أن يعتبرني محنكة. وبهذه الثقة نفسها كان يمكن أن يتعامل فيدور ميخائيلوفيتش مع معونة أصدقائه، لو أنها عرضت عليه.

إنني أفكر بمثل هؤلاء الأصدقاء، وبمثل علاقات الصداقة هذه، وأنا أشعر بمرارة الأسى على فيدور ميخائيلوفيتش.

في الفترة الأولى، التي أعقبت عودتنا إلى روسيا، كنت آمل تسديد قسم من الديون بعد بيع البيت الذي خصص لي كمهر. وعلى أحر من الجمر رحت أنتظر عودة أمي من دريسدن، وكانت قد سافرت إلى هناك لحضور عرس ابنها، وعودة أختي من روما. وكانت في غياب أمي تشرف على كل منازلنا، وقد وعدت حال عودتها، في الربيع، أن تقدم لنا تقريراً شاملاً عن هذه الإدارة. ولكنها أصيبت بمرض التيفوس في الربيع، وفي الأول من أيار ١٨٧٢ توفيت في روما. وبعد وفاتها عرفنا أنه سبق لها أن فوضت زوجها بإدارة كل المنازل.

ولما كان زوجها دائم السفر من بطرسبورغ برفقتها، فقد عمد بدوره إلى تفويض أحد معارفه، ولم يرَ هذا السيد، الذي كان يستفيد من مداخيل هذه البيوت في غضون ثلاث ـــ أربع سنوات أن يدفع الضرائب لخزينة الدولة. وإذ تراكم مبلغ كبير تقرر بيع هذا المنزل بالمزاد العلني. ولم يكن لدينا المال اللازم لتسديد هذا المبلغ، وإنقاذ البيوت من المزاد، ولكننا كنا نأمل أن تباع بسعر جيد فتأخذ والدتي النقود، وتعطيني إياها بدل البيت الموعود. وللأسف أن آمالي خابت، فقد زعم ذلك السيد مدير منازلنا ـــ بالاتفاق سراً مع بعض الأشخاص ـــ أنهم استأجروا هذه المنازل منه لمدة عشر سنوات. وأخذ الأجرة مسبقاً. ولم تنكشف هذه الصفقة إلا في المزاد. وبالطبع فلم يكن ثمة من راغب في شراء المنازل. وحينذاك قام هذا الحقير بشرائها بعد دفع ضريبة الخزينة، أي أنه حصل لقاء عدة آلاف على ثلاثة منازل، وبناءين جانبيين كبيرين، وقطعة واسعة من الأرض. وهكذا فلم يبق لي ولا لوالدتي وأخي شيء.

طبعاً كان بالإمكان اللجوء إلى المحكمة، ولكن لم يكن لدينا المال اللازم لذلك. أضف إلى هذا أن إقامة الدعوى يعني محاكمة زوج أختي، وهذا يعني (الزعل)، وحرماننا من رؤية أولاد أختي اليتامى. الذين كنا نكن لهم كل الحب، كان من الصعب التخلي عن الأمل الوحيد في تحسين ظروفنا المحزنة.

في البداية كنت أسمح للدائنين بالتحدث مع فيدور ميخائيلوفيتش، ولكن نتائج ذلك كانت سيئة: فقد كانوا يتحدثون معه بوقاحة، ويهددون بالحجز على الأثاث، وزجه في قسم الديون، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يصل حد اليأس بعد هذه الأحاديث، ويبقى ساعات بكاملها يروح في الغرفة ويجيء، ويدعك شعر فوديه (كعادته حينما يضطرب بشكل كبير) وهو يقول:

ــ يا إلهي، ماذا نعمل الآن؟

وفي اليوم التالي كانت النوبة تعاوده.

كنت أشفق على زوجي المسكين جداً، ودون أن أخبره قررت أخذ مهمة التفاوض مع الدائنين على عاتقي. يا للشخصيات المدهشة، التي جاءت إلي في ذلك الوقت! وكانوا في أغلبهم من تجار الكمبيالات: أرامل الموظفين، صاحبات الغرف المفروشة، الضباط المتقاعدين، والوسطاء من الدرجة الدنيا. وكانوا كلهم قد اشتروا الكمبيالات بثمن بخس، ولكنهم يصرون على قبض كامل المبلغ. وكم هددوني بالحجز والسجن، ولكنني أصبحت أعرف كيف أتحدث إليهم. وكانت حججي هي الحجج نفسها، التي أوردتها

في مفاوضاتي مع غينتير شتين . وإذا كان الدائنون يرون أن التهديد لا يجدي نفعاً كانوا يوافقون . وكنا نوقّع بدل الكمبيالة باسم فيدور ميخائيلوفيتش اتفاقاً جديداً . ولكن كنت أجد صعوبة في دفع ما وعدت به في الموعد المحدد . وأية حيل لم ألجأ إليها : الاستدانة من الأقرباء ، رهن الحاجيات ، حرمان نفسي من الأشياء الضرورية جداً .

لم يكن حصولنا على المال منتظماً ، وكان يتوقف تماماً على نجاح عمل فيدور ميخائيلوفيتش . كنا نضطر إلى الشراء من المخازن بالدين ، ولا ندفع أجرة الشقة ، وحينما كانت تأتينا أربعمئة ــ خمسمئة روبل دفعة واحدة (كان زوجي يعطيني النقود دائماً) لم يكن يبقى لدي في اليوم التالي على الأغلب إلا خمسة وعشرين ــ ثلاثين روبلاً .

وأحياناً لم تكن زيارات الدائنين تمر دون أن يراها زوجي . فكان يسألني عمّن جاء ، ولأي غرض . وإذ كان يرى عدم رغبتي في إخباره كان يلومني على تكتمي . وقد انعكست هذه الشكاوى في عدد من رسائله . ولكنني لم أكن قادرة على أن أكون صريحة معه باستمرار . فقد كان بحاجة إلى الهدوء والطمأنينة من أجل العمل الناجح . وأحياناً كانت هذه المنغصات تقود إلى نوبات الصرع ، التي كانت تقف حجر عثرة على طريق هذا العمل . فكنت أضطر لأن أخفي عنه كل ما من شأنه أن يثير (زعله) أو حزنه ، حتى ولو خاطرت بالتظاهر بالتكتم . كم كان ذلك صعباً . لقد استمرت حياتي على هذا المنوال قرابة ثلاثة عشر عاماً .

وبكل مرارة أتذكر أيضاً طلبات أقرباء زوجي الوقحة. وعلى الرغم من ضآلة ما لدينا فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش يعتبر أنه لا يحق له أن يرفض مساعدة أخيه نيقولاي ميخائيلوفيتش وربيبه، وفي الحالات الطارئة ـ بقية الأقرباء. فبالإضافة إلى المبلغ المحدد (خمسين روبلاً شهرياً) كان (الأخ كولا) يحصل في كل زيارة على خمسة روبلات، كان إنساناً ظريفاً ومسكيناً، وكنت أحبه لطيبته ورزانته، ومع ذلك فقد كنت أغضب حين يكثر من زياراته بأعذار مختلفة: تقديم التهاني للأطفال بمناسبة أعياد الميلاد، أو الشفيع، والقلق على صحتنا وما إلى ذلك. لم يكن البخل هو السبب، بل الفكرة المعذبة في أن كل ما في البيت لا يزيد على عشرين روبلاً، وغدا موعد الدفع لفلان، وسيكون علي أن أعود إلى رهن الأشياء من جديد.

وكان بافل الكسندروفيتش يثيرني بشكل خاص، فلم يكن يطلب، بل يطالب، وكان على قناعة تامة بأن ذلك من حقه.

ولدى تسلم كل دفعة كبيرة من النقود كان فيدور ميخائيلوفيتش يعطي ربيبه مبلغاً محترماً. ولكن احتياجاته العاجلة كثيرة، فكان يأتي إلى زوج أمه من أجل النقود، على الرغم من أنه كان يعرف جيداً كم كانت حياتنا قاسية مادياً.

وذات مرة سألني، وهو داخل: كيف صحة بابا؟ كيف أحواله؟ من الضروري أن أتحدث إليه فأنا بحاجة ماسة إلى أربعين روبلاً.

فأجبته : ولكنك تعرف أن كاتكوف لم يرسل بعد شيئاً ، وأنه لا نقود لدينا أبداً ، اليوم رهنت عقدي بخمسة وعشرين روبلاً ، هاك الوصل ، إنظر .

ـــ وليكن ! ارهني شيئاً ما أيضاً .

ـــ ولكن كل ما لدي مرهون .

ولكن الربيب يصر : إنني بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ لغرض ضروري .

ـــ ستقوم بذلك حين نحصل على النقود .

ـــ لا أستطيع التأجيل .

ـــ ولكن ليس لدي نقود !!

ـــ وما شأني أنا ! هاتي من أي مكان .

ورحت أحاول إقناع بافل الكسندروفيتش أن لا يطلب من زوج أمه أربعين روبلاً . لأنني لا أملك هذا المبلغ بل خمسة عشر . كي يبقى لديّ ولو خمسة روبلات ، ليوم غد . وبعد توسل طويل تنازل ، وهو يعتقد على الأرجح أنه قدم لي خدمة كبيرة . وأعطيت ربيب زوجي خمسة عشر روبلاً ، وأنا أفكر بمرارة أن هذا المبلغ كان يكفينا ثلاثة أيام ، وغداً سيكون علي أن أذهب لرهن شيء آخر . لا أستطيع أن أنسى كم سبب لي هذا الإنسان الوقح من حزن ومنغصات .

وقد يتساءل البعض بدهشة : لماذا لم أحتج على مثل هذه المطالبة

الوقحة بالنقود؟ ولكن لو أنني تخاصمت مع بافل الكسندروفيتش إذن لسارع إلى شكواي إلى فيدور ميخائيلوفيتش، ولاستطاع أن يشوه كل شيء ويصور نفسه مظلوماً، ولحدث خلاف. وكل ذلك ذو تأثير سلبي على زوجي. كنت، وأنا أضن بهدوئه، وأفضل أن أعاني وحدي، وأن أحرم نفسي من كل شيء، المهم أن يبقى الوئام مخيماً على أسرتنا.

على الرغم من المنغصات التي سببها لنا إلحاح الدائنين وعلى الرغم من الحاجة الدائمة إلى النقود فإنني أذكر شتاء ١٨٧١ ــ ١٨٧٢ بكل متعة. كان وجودنا في الوطن، بين الروس، وكل ما هو روسي بحد ذاته سعادة عظيمة بالنسبة لي. وبدوره كان فيدور ميخائيلوفيتش مسروراً جداً بالعودة، وبإمكانية لقاء الأصدقاء، والأهم رصد الحياة الروسية الجارية، التي كان يشعر بأنه ابتعد عنها إلى حد ما. وقد جدد فيدور ميخائيلوفيتش التعارف مع العديد من الأصدقاء القدامى، ولدى قريبه البروفيسور م. إ. فلاديسلافليف صدف أن التقى العديد من الشخصيات العلمية، وقد تحدث بكل متعة إلى أحدهم وهو المستشرق ف. ف. غريغوريف...

وفي هذا الشتاء طلب ب. م. تريتياكوف، صاحب رواق اللوحات المشهور في موسكو، من زوجي أن يسمح برسم لوحة له، لتحفظ في الرواق. ومن أجل هذا الغرض جاء من موسكو الفنان المشهور ف. غ. بيروف. وقبل أن ينكب على الرسم ظل يزورنا في غضون أسبوع، حيث رأى فيدور ميخائيلوفيتش في الحالات المختلفة، وكان يحادثه ويدفعه إلى الجدل، وتمكن من رصد التعبير المميز في وجه زوجي، التعبير نفسه الذي كان يظهر

على وجهه حينما يكون غارقاً في أفكاره الأدبية. ويمكن القول أن بيروف تصيد في الرسم (لحظة الإبداع لديه). وقد سبق لي أن رأيت هذا التعبير على وجهه مراراً، حين كنت أدخل عليه وأرى وكأنه ينظر في أعماق ذاته فأغادر دون كلمة. وفيما بعد كنت أعرف أنه كان غارقاً في أفكاره لدرجة أنه لم ينتبه لدخولي، ولا يصدق أنني دخلت عليه.

كان بيروف ذكياً ولطيفاً، وكان زوجي يحب الحديث معه، وكنت دائماً أحضر هذه اللقاءات، وقد احتفظت بأفضل الذكريات عنه.

مرَّ الشتاء سريعاً، وحل ربيع ١٨٧٢، الذي حمل لنا الكثير من المصائب والمنغصات، التي تركت وراءها آثاراً عميقة لا تنسى بسرعة.

١٨٧٢ صيفاً

يقول المثل: «المصائب لا تأتي فرادى». وفي حياة كل إنسان تقريباً قد تمر فترة معينة غنية بالمصائب غير المنتظرة والفشل. وهذا ما حدث لنا. فقد بدأت مصائبنا في نهاية ١٨٧١، فبينما كانت طفلتنا ليليا (كان عمرها عامين ونصف العام) تركض في الغرفة، على مرأى منا، تعثرت ووقعت. ولما كان صراخها قوياً فقد اندفعنا ناحيتها، أنهضناها ورحنا نحاول تهدئتها، ولكنها استمرت في العويل، ولم تسمح بلمس يدها اليمنى، وهذا ما جعلنا نعتقد أن الرضة كبيرة. وقد هرع فيدور ميخائيلوفيتش والمربية والوصيفة في طلب

الطبيب . وفي الصيدلية المجاورة عرف فيدور ميخائيلوفيتش عنوان أقرب جراح ، وأحضره بعد نصف ساعة ، وفي الوقت نفسه تماماً عادت المربية برفقة دكتور آخر من مستشفى أوبوخوف . وبعد فحص اليد المرضوضة أخبرنا الطبيب الأول أن هناك خلعاً ، وللحال أعاد العظم إلى مكانه وضمد اليد . وقد أكد الطبيب الثاني قول الأول حول الخلع ، وأن العظم سيلتئم بسرعة ما دام أنه أعيد إلى مكانه . وقد طمأننا رأي هذين الطبيبين الخبيرين . ودعونا الجراح إلى عيادة المريضة ، فراح يتردد علينا كل صباح على مدى أسبوعين . وفي كل مرة كان يغير الضماد ، ويؤكد أن كل شيء على ما يرام . ولكنني وزوجي لفتنا نظره إلى وجود شيء غير طبيعي ، ذي لون أسمر داكن على ارتفاع قليل من الكف . ولكن الجراح راح يؤكد لنا أن يد الطفلة كلها قد تورمت وأن هذا نزيف عادي في حالات الخلع ولا بد أن يتلاشى شيئاً فشيئاً . ولما كنا عازمين على السفر فقد اقترح الجراح علينا أن لا نغير الضماد في الطريق ، إلى أن نصل ، وهكذا فقد كنا مطمئنين إلى نتائج هذه الحادثة ، وسافرنا في ١٥ أيار (مايو) ١٨٧٢ إلى ستاريا روسّا .

وقع اختيارنا على هذا المنتجع الصيفي بناء على نصيحة البروفيسور فلاديسلافليف ، زوج ماريا ميخائيلوفنا ، ابنة أخ فيدور ميخائيلوفيتش . فقد أكد لنا البروفيسور وزوجته أن الحياة في روسّا هادئة ، ورخيصة ، وأن صحة أولادهما تحسنت الصيف الماضي بسبب الحمامات الشمسية هنا . ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش حريصاً جداً على صحة الصغار فقد رغب في السفر بهم إلى روسّا ليتمكنوا من السباحة هناك .

انحفرت رحلتنا الأولى إلى ستاريا روسًّا كأحد أسعد الذكريات في حياتنا العائلية. صحيح أن شتاء ١٨٧١ــ ١٨٧٢ مر على خير وبشكل ممتع بالنسبة لنا، ولكننا منذ الصوم الكبير بدأنا نحلم بالسفر مع بداية الربيع إلى مكان بعيد، ناء، حيث بالإمكان العمل والعيش معاً، ليس في (الزحمة)، كما في بطرسبُورغ، بل كما اعتدت وزوجي في الخارج، قانعين بالحياة معاً، وها هو ذا حلمنا يتحقق.

غادرنا في صباح دافىء رائع. وبعد أربع ساعات كنا في محطة سوسنينكا. ومن هناك تسير السفن إلى نوفغورد عبر نهر فولخوف. وفي المحطة عرفنا أن الباخرة تبحر في الواحدة ليلاً، وأن علينا أن ننتظر هنا نهاراً كاملاً، فقصدنا نزلاً للإقامة. ولما كان الجو خانقاً في الغرفة فقد خرجنا مع الصغار والمربية العجوز نتنزه في القرية. وهنا حدث لنا حادث مضحك: فلم نكد نقطع نصف الشارع حتى صادفنا امرأة ومعها طفل ذو وجه مغطى بالبقع الحمراء والنقط. وتابعنا طريقنا فالتقينا بثلاثة أو أربعة صغار، وعلى وجوههم البقع الحمراء والنقط. وقد أثار هذا قلقنا ومخاوفنا من أن يكون ثمة في القرية مرضى بالجدري، ومن أن تنتقل العدوى إلى صغارنا. وللجال أوعز لنا فيدور ميخائيلوفيتش بالعودة إلى الفندق، وسأل صاحبة النزل عما إذا كانت هناك أمراض في القرية، وعن سبب البقع على وجوه الأطفال. وقد غضبت المرأة، وأجابت أنه لا توجد أية (أملاض) عندهم، وأن البعوض هو السبب في هذا. ولم نلبث أن اطمأن كل منا بصدد الجدري. إذ لم تمض ساعة واحدة حتى

اقتنعنا أن البعوض هو السبب فعلاً ، إذ اكتست أيدي ووجوه صغارنا بالطفح الناجم عن لسعه .

في منتصف الليل صعدنا متن الباخرة ، أرقدنا الصغار في الفراش ، أما نحن فقد بقينا جالسين على السطح حتى الثالثة تقريباً ، نمتع النظر بمرأى النهر وبالأشجار ، التي دبت فيها الحياة للتو ، ترتفع على ضفتي فولخوف ، وقبيل الفجر أصبح الجو بارداً ، فذهبت إلى القمرة ، بينما ظل فيدور ميخائيلوفيتش في الخارج : كم كان يحب الليالي البيضاء!

في حوالي السادسة صباحاً أحسست بمن يلامس كتفي ، فرفعت رأسي ، وجاء صوت فيدور ميخائيلوفيتش :

ــ آنيا ، اخرجي إلى السطح ، وانظري أية لوحة مدهشة .

كانت اللوحة مدهشة فعلاً ، تستحق نسيان النوم . وفيما بعد ، حينما كنت أتذكر نوفغورد ، كانت هذه اللوحة تتراءى أمام عيني باستمرار .

كان صباحاً ربيعياً رائعاً ، كانت الشمس تنير بشكل ساطع ضفة النهر المقابلة ، حيث كانت ترتفع جدران الكريملين البيضاء المسننة ، وتتوهج قباب كاتدرائية صوفيا المذهبة ، وفي الجو البارد يتردد قرع الأجراس ، يدعو إلى صلاة الصبح ، كان فيدور ميخائيلوفيتش الذي يحب الطبيعة ، ويفهمها في مزاج رائع ، وبشكل لا إرادي انتقلت عدواه إلي . بقينا لفترة طويلة جالسين ، وقد خيم علينا الصمت ، نحاذر إفساد هذه الروعة . وبشكل عام فقد استمر مزاجنا

المرح طيلة ذلك اليوم، فمنذ عهد بعيد لم نشعر بمثل هذه السعادة والطمأنينة.

حين استيقظ الصغيران انتقلنا إلى باخرة أخرى تتجه إلى ستاريا روسًا. ولما كان الركاب قلة فقد جلسنا بشكل مريح. كانت الرحلة في منتهى الروعة: فبحيرة ايلمين كانت هادئة كما المرآة، وبفضل السماء الصافية كانت تبدو زرقاء لازوردية. وكان يخيل إليك أنك في إحدى البحيرات السويسرية. سارت الباخرة في الساعتين الأخيرتين من الرحلة عبر مياه نهر باليستي، الكثير التعرج، فكانت ستاريا روسًا تبدو من بعيد بكنائسها، قريبة تارة، بعيدة تارة أخرى.

أخيراً في حوالي الثالثة ظهراً اقتربت باخرتنا من الرصيف. حملنا أمتعتنا، وامتطينا متن عربتين، وانطلقنا للبحث عن داتشا القس رومیانتسوف، التي استأجرناها عن طريق قريب فلاديسلافليف. وعلى العموم لم نضطر للبحث طويلاً: فلم نكد نترك ضفة نهر بيريريطيتسا، وندخل شارع بياتنيتسكيا، حتى قال لي الحوذي: «وهذا أبونا يقف لدى البوابة، إنه بانتظاركم على ما يبدو». وبالفعل فقد عرف أننا سنصل في حوالي ١٥ أيار (مايو) فراح القس وأسرته ينتظروننا، وهاهم الآن قرب البوابة، بعضهم جالس، والآخر واقف. ورحّبوا بنا بفرح. وللحال شعرنا أننا وصلنا إلى أناس جيدين. وبعد أن سلم القس على زوجي، الذي كان في العربة الأولى، اقترب من الثانية، حيث كنت أجلس وفيديا الصغير في حضني، والغريب أن الطفل ــ البريء إلى حد ما ــ الذي لا يقبل أن يحمله أحد، اندفع ناحية (أبونا)

بكل رغبة، وانتزع من على رأسه القبعة العريضة الحوافي، ورمى بها على الأرض. فضحكنا جميعاً. ومنذ هذه اللحظة بدأت أواصر الصداقة تربط بيننا وبين (أبونا) يوحنا روميانتسوف، وزوجته المحترمة يكاتيرينا بيتروفنا. وقد استمرت هذه الصداقة عشرات السنين، ولم تنته إلا بوفاتهما.

كنا كلنا نشعر بتعب السفر، وقد مضى اليوم الأول من حياتنا في ستاريا روسًا ونحن في مزاج مرح وسعيد.

ولكن يا إلهي كم يجهل الإنسان ماذا يخبىء له الغد! وإليكم ما حدث في اليوم التالي: فبعد تناول طعام الفطور، في حوالي الحادية عشرة أردت أن أدع الصغيرين يذهبان إلى الحديقة، ولكنني شعرت بالخجل حين رأيت ضمادة الصغيرة ملوثة جداً، فقررت تمزيق الغلاف، ونزع الضمادة، كما قال الجراح. ولكن ماذا رأيت! فخلال عدة أيام خف الورم، ولكن الكتلة، التي سبق وتحدثنا للجراح في بطرسبورغ عنها، برزت بشكل واضح، وكانت الكتلة لا تبدو لينة، كما في السابق، بل أصبحت صلبة. وكان واضحاً أن هناك التواء في اليد، وقد أذهلني ذلك وصدمني. وللحال ناديت فيدور ميخائيلوفيتش، الذي أعرب عن قلقه بدوره من أن تكون يد الصغيرة قد ساءت بسبب السفر الطويل. وطلبنا من الأب يوحنا أن يرشدنا إلى طبيب، وكان الطبيب يعيش غير بعيد فجاء بسرعة. ولم يكد يفحص يد الصغيرة حتى أعلن ـــ ويا لهول ما أعلن ـــ أن ما أصاب اليد ليس مجرد خلع، بل كسر في العظم، ولما كانت الجبارة غير صحيحة، ولم توضع اليد في ضمادة من الجص، فقد التأمت بشكل غير صحيح. وعن سؤالنا عما سيحدث لليد فيما بعد، أجاب

الطبيب بأن الالتواء سوف يزداد، وستشوه اليد. ومن المحتمل أن يكون نمو اليسرى طبيعياً، بينما قد تتأخر اليمنى في النمو، وبكلمة مختصرة فإن الصغيرة ستكون ذات يد مشوهة.

ولكم أن تتصوروا مدى تعاستنا أنا وزوجي حين سمعنا أن طفلتنا المحببة ستكون مشوهة. في البداية لم نصدق، وسألنا عما إذا كان في المدينة جراح، فأخبرنا الطبيب أن ثمة جراحاً عسكرياً، ولكنه لا يعرفه جيداً، ولا يضمن لنا خبرته. وهكذا فقد قررنا استدعاء الجراح، وطلبنا من الطبيب الانتظار. لم يلبث الطبيب أن عاد بالجراح بعد نصف ساعة، وكان قد عثر عليه يلعب البلياردو في الفندق. ولما كان قد اعتاد تطبيب الجنود فإنه لم يعامل الصغيرة بلطف، حتى إنها صرخت بألم، وراحت تبكي حين ضغط على يدها المريضة.

ولسوء حظنا أن الطبيب العسكري أكّد رأي زميله، أي أن ما حدث ليس خلعاً بل كسر في العظم، ولما كان قد مضى على ذلك حوالي ثلاثة أسابيع فإن العظم قد التأم، ولكن بشكل غير صحيح.

وحين سألنا الطبيبين ما العمل الآن؟ أعرب كلاهما عن ضرورة كسر العظم من جديد وإعادة التجبير بشكل صحيح. وحذرانا من أنه لا بد من إجراء العملية على جناح السرعة، قبل أن يلتئم العظم بشكل نهائي. وعلى سؤالنا عما إذا كانت العملية مؤلمة أجابا بالإيجاب، حتى إن الجراح أضاف

إنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية ما إذا كانت الطفلة، الشاحبة اللون، والضعيفة الجسم، ستتحمل مثل هذه العملية المعذبة.

وعلى سؤال فيدور ميخائيلوفيتش عما إذا كان بالإمكان إجراء العملية بعد التخدير أجاب الطبيبان بأن من الخطر تخدير الصغار. لأن نومهم قد يستمر إلى الأبد.

إن قلبي يكاد ينفطر أسى، إذ أتذكر كيف نزل هذا الخبر المفاجيء علينا نزول الصاعقة. ولما كنا لا نعرف كيف نتصرف فقد طلبنا من الطبيبين الملحاحين أن يمهلانا يوماً واحداً لنفكر بالأمر ملياً، كانت حالتنا مأساوية فعلاً: فمن جهة لم يكن معقولاً ترك الصغيرة تصاب بالتشوه، وعدم محاولة تقويم يدها. ومن جهة أخرى فإن الاتكال في هذه العملية على جراح قد يكون غير خبير (لا سيما وأننا دفعنا ثمن مثل هذه الثقة غالياً منذ عهد قريب). أضف إلى ذلك أنه يحب الشرب، هذا عداك عن أنه نفسه غير واثق من نجاح العملية، لا بل وحتى من قدرة الصغيرة على تحملها، كل ذلك جعلنا في حالة يرثى لها. يا إلهي كم عانيت وزوجي في ذلك اليوم البائس، ونحن نضرب أخماساً لأسداس! كان فيدور ميخائيلوفيتش يروح ويجيء في الشرفة المطلة على الحديقة، وكأن على رأسه الطير، وهو لا يكف عن فرك فوديه. وكنت أخشى أن يصاب بالنوبة بين لحظة وأخرى. ولم أتمالك نفسي من البكاء وأنا أنظر إليه وإلى الصغيرة المريضة. وكانت الصغيرة تلتصق بي وهي تبكي. يا له من كابوس رهيب.

وقد أنقذنا من ورطتنا تلك الأب يوحنا رومیانتسیف ، الذي قال لنا : ما لكم ولهذين الطبيبين ، فهما لا يعرفان ، ولا يفقهان شيئاً ، إنهما سيعذبان صغيرتكما ، الأفضل أن تنقلاها إلى بطرسبورغ ، فإذا كانت بحاجة لعملية أجريتماها هناك .

كانت لهجة الأب يوحنا في غاية الإقناع ، وقد أورد من الحجج ما ساعدنا في اتخاذ القرار بالسفر إلى بطرسبورغ . ولكن كان ثمة بعض السلبيات الأساسية في هذا السفر : فقد كنا نأمل في قضاء الصيف وحيدين في هدوء ، وتحسين صحتنا استعداداً للشتاء القادم ، والآن ، وبعد أن عثرنا على الداتشا ، وتكبدنا وعثاء السفر الطويل ، نجد نفسنا مضطرين للعودة على أعقابنا إلى بطرسبورغ الخانقة . حيث لم يكن لدينا بيت (سبق أن سلمناه عشية السفر) أضف إلى هذا أننا دفعنا أجرة الداتشا مئة وخمسين روبلاً ... وكان يصعب علينا فراقها بعد أن لمسنا طيبة أصحابها ومودتهم .

وقد اقترح الأب الحل التالي : أن نسافر أنا وزوجي برفقة الصغيرة ، بينما يبقى فيديا الصغير مع المربية والطباخة في الداتشا . وقد وعد الأب وزوجته بالسهر على الصغير والمربيتين طيلة غيابنا . كانا كلاهما ، الأب وزوجته ، يتعاطفان معنا إلى حد كبير . وبكل صدق واندفاع أعربا عن استعدادهما للعناية بفيديا ، مما جعلنا مطمئنين أنهما سيسهران على راحته .

ولكن ثمة ناحية أخرى كانت تثير قلقنا ومخاوفنا : فلم يكن ابننا قد تجاوز الشهر العاشر ، وكنت لا أزال أُرضعه ، وأنوي الاستمرار في ذلك حتى

ظهور أسنانه اللبنية، لا سيما أن صحتي كانت جيدة، وكذلك صحته، والآن لا بد من البعد عن الصغير الذي لا يعرف أي طعام آخر، وكنا نتصور أن مثل هذا التغيير المفاجىء في مجمل نظامه قد يترك أثراً سلبياً عليه. فقد يمرض، ثم إن التوقف المفاجىء عن الإرضاع قد يضر بصحتي أنا. كل ذلك كان يضايقنا كلينا. ومع ذلك فقد تغلبت شفقتنا على صغيرتنا وخوفنا عليها، وقررنا العودة إلى بطرسبورغ غداً.

لكم كان محزناً سفرنا، فطيلة الصباح لم أفارق صغيرنا الغالي. وكان فيدور ميخائيلوفيتش لا يكف عن القدوم إلى غرفة الصغار. ويبدو أنه لا يشبع من النظر إلى الصبي. أخيراً، وحين حلت لحظة الفراق أرضعت الصغير للمرة الأخيرة، وضممته إلى صدري وقد خيل إلي أنني لن أراه بعد الآن، ومن ثم جلسنا جميعاً وصلينا أمام الأيقونة، وباركنا صغيرنا الذي كانت الابتسامة تعلو ثغره، ثم ركبنا الباخرة، ونحن في غاية القلق والأسى.

... كان الحزن يخيم على رحلتنا إلى بطرسبورغ. ولم تعد المناظر الأخاذة تجذب اهتمامنا، الذي كان مكرساً برمته للسهر على صغيرتنا. وكي لا تقلب في الليل على يدها المكسورة، فتزيد في الطين بلة، تناوبنا الجلوس قرب سريرها، فبعد كل ساعتين كان كل منا يحل محل الآخر، ونحن ننتظر على أحر من الجمر نهاية طريقنا الطويل...

لم نكد نصل بطرسبورغ حتى انطلق فيدور ميخائيلوفيتش إلى إيفان مارطينوفيتش بارتش، كبير الأطباء في مستشفى مكسميليان. وكان يعتبر

واحداً من أفضل جراحي العاصمة، ومن معارف زوجي القدامى . ولكن زوجي لم يكن قد رآه بعد عودته من الخارج . وحينما أصيبت صغيرتنا في تلك الليلة المشؤومة عزمنا على الذهاب إلى بارتش . ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان يعرف أنه لن يأخذ أجرته . ولم يكن لدينا ما نهديه إياه . ثم إن الطبيب ، الذي قصدناه كان ماهراً ومعروفاً ، أضف إلى ذلك أننا كنا نعتبر الحادثة بسيطة ، مجرد خلع بسيط ، وأنه من غير اللائق مراجعة جراح كبير مثل بارتش لمثل هذا الخلع . وفيما بعد ظل فيدور ميخائيلوفيتش يشعر بالمرارة ، ويلوم نفسه ، ويلومني أيضاً بسبب (تهاوننا) .

أكد بارتش صحة تشخيص الطبيبين في ستاريا روسًا ، وضرورة كسر العظم من جديد ، كي يلتئم بشكل صحيح . وحين أعرب فيدور ميخائيلوفيتش عن مخاوفه من صعوبة العملية وعدم قدرة الصغيرة على تحملها قال الطبيب مطمئناً :

ــ لكنها لن تشعر بأي شيء ، فسوف أجري العملية بعد تخديرها .

ــ لكن الطبيبين في ستاريا روسًا أكدا أن تخدير الصغار محفوف بالعواقب الوخيمة .

ــ ليفكر أطباء ستاريا روسًا كما يحلو لهم . أما نحن فنقوم حتى بتخدير الرضيع ، وكل شيء يجري على ما يرام .

وهنا انتبه الطبيب إلى أنني نفسي مريضة . وبالفعل فقد كنت محمومة ، وكان رأسي يكاد ينفجر ألماً . فراح زوجي يؤنبني لأنني أخفيت عنه ذلك .

وقال الطبيب : أقول لك سيدتي ! طفلتك سأشفيها . ولكنني لن أبدأ العملية قبل أن تتعافي ، فقد يندفع الحليب إلى رأسك ، والمزاح هنا غير وارد . سأكتب لك الآن دواء ، وبينما سيذهبون لإحضاره حاولي أن تنامي .

وإذ عرف الطبيب أننا ننزل في شقة أخي ، حيث تقيم والدتي المريضة ، اقترح علينا النزول في المستشفى لمدة ثلاثة أسابيع ، في غرفة مستقلة . ولم يكن يتوقع اندمال الكسر قبل ثلاثة أسابيع ، وقد اشترط بقاءنا في بطرسبورغ لإجراء العملية ، خوفاً من مضاعفات السفر ، وكان يريد أن يشرف على العلاج حتى النهاية .

وهكذا قررنا الانتقال إلى المستشفى غداً ، كما وعد الطبيب بإجراء العملية غداً أيضاً .

حل اليوم الثقيل والمفعم بالشكوك بالنسبة لنا . وقد وصلنا المستشفى في الثانية عشرة ، ولم يلبث أن انضم إلينا مايكوف ، عراب الصغيرة . وكان الطبيب قد طلب من فيدور ميخائيلوفيتش حضور أحد أقاربنا لمشاهدة العملية ، وقد طلب زوجي ذلك من مايكوف .

تقرر أن تخدر الصغيرة بعد أن تغفو ، بعد الفطور كما هي العادة . ولكن السفر والجو غير المألوف حالا بينها وبين النوم . وإذ ذاك تقرر تخديرها وهي مستيقظة .. وحين عرف الطبيب أننا وفيدور ميخائيلوفيتش ننوي حضور العملية اعترض على ذلك :

ــ عفوكما ، ولكن الأم ستفقد وعيها ، بينما سيصاب الأب بنوبة ،

وسيكون علي التخلي عن العملية من أجل إيقاظكما. كلا، إن عليكما أن تخرجا، وإذا كانت ثمة ضرورة استدعيتكما بنفسي.

رسمنا إشارة الصليب فوق صغيرتنا أكثر من مرة، ثم قبلناها، وحين بدأ مفعول التخدير أخذها بارتش من حضني، وأرقدها في السرير بكل عناية. خرجت أنا وزوجي من الغرفة، وقد استولى علينا الخوف من أن لا نرى صغيرتنا حية بعد الآن. قادنا الخادم إلى غرفة مستقلة، وتركنا وحيدين. كان فيدور ميخائيلوفيتش كالح الوجه كا المنديل، وكانت يداه ترتجفان، وكنت بدوري أكاد ألّا أستطيع أن أقف على قدمي من شدة الاضطراب والقلق.

ــ فلنصلِّ يا آنيا، فلنتوسل إليه تعالى أن يمد لنا يد العون ــ قال زوجي بصوت متقطع. ثم ركعنا.

وأعتقد أننا لم نصلِّ أبداً بمثل هذا الخشوع. وعلى حين غرة تناهى إلى آذاننا وقع خطوات عجلى. ودخل مايكوف.

ــ اذهبا إلى هناك، فالطبيب يستدعيكما.

وللحال خطرت لي ولفيدور ميخائيلوفيتش الفكرة نفسها: أن ليليا لم تتحمل التخدير وأن الطبيب يدعونا لوداعها. لم يسبق لي أن عانيت من مثل هذا الكابوس الرهيب: فقد عادت إلى ذهني صورة موت ابنتنا الكبرى. أخذني زوجي من يدي، وضغط عليها بتشنج، وانطلقنا بسرعة، نكاد نعدو عبر الممر. ولدى دخولنا الغرفة رأينا بارتش (كان بدون سترة وكاه الأبيضان مطويان) مضطرباً على الأرجح، وأشار إلينا أن نقترب من السرير حيث كانت

الصغيرة غافية. كانت يدها المكسورة مستقيمة الآن تماماً، ولم يكن ثمة أثر للكتلة التي أثارت مخاوفنا. كانت ملقاة بهدوء على الوسادة الصغيرة.

وقال بارتش: انظرا، فاليد الآن مستقيمة تماماً، ولكنكما، على ما أعتقد، لم تصدقاني؟ أما الآن فابتعدا، اتركاني أنجز عملي.

وهكذا ففي حضورنا نحن الثلاثة، ضمد بارتش يد الصغيرة ووضع الجبس، كل ذلك بمنتهى السرعة (سبع دقائق) لدرجة أننا لم نشعر إلا والعملية انتهت. وكان الدكتور غلاما لا يكف عن رصد نبض الصغيرة. ومن ثم وجد بارتش أن الوقت قد حان لإيقاظ الطفلة. وطلب مني أن أناديها باسمها بصوت عال. ولفترة طويلة لم تستطع أن تستيقظ، ولكن ما إن استردت وعيها حتى نظرت إلى يدها المضمدة، وقالت إن لديها يداً من السكر (لون الجبس).

لكم كنا سعيدين حين انتهى كل شيء، وغادرنا الطبيبان، وبقينا مع صغيرتنا الحبيبة. من الصعب وصف ذلك الشعور بالسرور والاطمئنان الذي استولى علينا. لقد خيل إلينا أن كل مصائبنا ومشاغلنا قد انتهت، ولن تعود أبداً، ولكن للأسف أن هذا لم يحدث في الواقع.

أمضى فيدور ميخائيلوفيتش يوماً آخر في بطرسبورغ. ولما كانت نتيجة العملية (أي هل التأم العظم بشكل صحيح في هذه المرة) لا تظهر قبل ثلاثة أسابيع، فقد قرر فيدور ميخائيلوفيتش عدم الانتظار والسفر للتو إلى روسًا، إلى فيدياه، الذي كان الشعور بالحنين إليه لا يفارقه. أما بالنسبة لي فحدث ولا حرج: لقد تخليت عن ابننا بمثل هذه القسوة، وكانت فكرة نزول

مصاب به لا تكف تعذبني. ولذا فقد كنت سعيدة بعزم زوجي على العودة إلى البيت. كنت أعرف مدى حنانه ورعايته. وكنت على يقين من أنه سيصون صغيرنا ويسهر على راحته.

بعد ثلاثة أسابيع من العذاب والمشاكل، (فقد توفيت أختي، وتفاقم مرض والدتي)، عدت مع ليليا إلى روسًا. حيث بدأ فصل جديد من الهدوء والاطمئنان في حياتنا، ولكنه كان قصيراً جداً: فقد ألم بي رشح قوي (كان الصيف ماطراً وبارداً)، وظهر خراج في حنجرتي، وارتفعت درجة حرارتي إلى حوالي الأربعين. وظللت على هذه الحال على مدى عدة أسابيع. وفي أحد الأيام المشؤومة أعلن الطبيب العسكري شينك أنه لن يكون مسؤولاً عن حياتي إذا لم ينفجر الخراج خلال يوم واحد، لأن قواي في انحطاط، وقلبي ضعيف. ولم يكد فيدور ميخائيلوفيتش يسمع هذا حتى سيطر عليه اليأس. وكي لا يثير قلقي لم يبك في حضوري. بل ذهب إلى الأب يوحنا، وجلس إلى الطاولة، ووضع يديه على وجهه، وراح يذرف الدموع. اقتربت زوجة القس منه، وسألته عما قال الطبيب.

ـــ إن آنا غريغوريفنا تحتضر ـــ قال فيدور ميخائيلوفيتش بصوت متقطع من البكاء ـــ ماذا سأفعل دونها؟ هل أستطيع الحياة دونها، إنها كل شيء بالنسبة لي!

ولكم أن تتصوروا مدى يأسي إبان مرضي: كنت أرى أن حالتي تزداد سوءاً، فمنذ عدة أيام لم أستطع النطق بكلمة، وكنت أعبر عما أريد بالكتابة.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يخبىء البطاقة، التي كان الطبيب يسجل عليها حرارتي مرتين في اليوم. ولكن الممرضة، التي لم تكن تفهم شيئاً نزلت عند طلبي، وأطلعتني على هذه البطاقة. وللحال أدركت مدى خطورة الوضع، كم كنت أخشى الموت، فأترك زوجي وطفلي العزيزين. وكان مستقبلهما يبدو لي كئيباً. إذ ماذا يمكن أن ينتظرهما دون أم، وفي ظل أب مريض وفقير؟ ثم إن والدتي مسنة ومريضة، وأختي توفيت. ولم يبق الأمل إلا في أخي الطيب، في أنه لن يتخلى عن صغيريّ. وكنت أشفق كثيراً على زوجي الطيب: فمن يمكن أن يحبه، ومن سيسهر عليه، وسيشاطره أعماله ومصائبه؟ أشرت إلى زوجي أن يقترب وإلى صغيريّ، فقبلتهم، وباركتهم، وكتبت أوصي زوجي كيف يتصرف في حال وفاتي. ولكن نوعاً من اللامبالاة سيطر علي في اليومين الأخيرين السابقين للأزمة: فلم أعد أشعر بالأسى لا على فيدور ميخائيلوفيتش ولا على الصغيرين، لكأنني فارقت هذا العالم.

ولحسن الحظ أن الأزمة حلت في تلك الليلة: فقد انفجر الخراج في حنجرتي، وبدأت أتماثل للشفاء. وبعد حوالي أسبوعين عاد الخراج من جديد، ولكن بدرجة ضعيفة، وكان ذلك الحبة الأخيرة في سبحة المصائب التي حلت بنا في عام ١٨٧٢.

كثيرة هي المصائب، التي عانيت منها في حياتي، فقد منيت بالأرزاء الهائلة: وفاة زوجي وابني اليوشا، ولكن مثل هذه السبحة من المصائب لم تتكرر.

الفصل الخامس

١٨٧٢ ــ ١٨٧٣

عام ١٨٧٢

مع بداية خريف ١٨٧٢ ، وكنا قد تنفسنا الصعداء نوعاً ما ، بعد ما جره علينا ذلك الصيف المنحوس من محن. عدنا من ستاريا روسًا إلى بطرسبورغ ، حيث نزلنا في دار الجنرال ميفيس (السرية الثانية من فوج اسماعيلوف) . كانت شقتنا تقوم في الطابق الثاني في عمق الباحة . وكانت مؤلفة من خمس غرف صغيرة ، ولكنها موزعة بشكل مريح ، بالإضافة إلى غرفة نوم ذات ثلاث نوافذ . أما مكتب فيدور ميخائيلوفيتش فكان متوسط الحجم ، ويقوم بعيداً عن غرفتي الصغيرين ، بحيث لا يضايقانه بلعبهما ، وهو منكب على عمله .

وعلى الرغم من أن زوجي أمضى الصيف كله في كتابة الرواية فقد كان غير راضٍ عنها، فتخلى عن الخطة السابقة، وأعاد صياغة الجزء الثالث من جديد.

في تشرين الأول (أكتوبر) سافر زوجي إلى موسكو، واتفق مع هيئة التحرير على نشر الجزء الثالث من الرواية في الكتيبين الأخيرين من (روسكي فيسنيك). وأشير هنا إلى أن الرواية حققت نجاحاً كبيراً بين جمهور القراء، ولكنها جرت على زوجي الكثير من الأعداء في العالم الأدبي.

بصدد ذكريات عام ١٨٧٢

كنت وأنا أفكر في وضعنا المادي السيء أحلم بزيادة دخلنا من خلال العودة إلى الاختزال، الذي كنت أتقنه جيداً، فرحت أطلب من الأقرباء والأصدقاء تأمين مثل هذا العمل في إحدى المؤسسات.

... وفي شتاء ١٨٧٢ أخبرني أخي عن قرب انعقاد مؤتمر، لست أدري في أي مجال، في إحدى مدن المنطقة الغربية. وأنهم بحاجة إلى أحد المختزلين، وللحال كتبت رسالة إلى رئيس المؤتمر، الذي يتوقف الاختيار عليه. وبالطبع أنني قمت بهذا بموافقة فيدور ميخائيلوفيتش، الذي كان يعتبر أن قيامي بأمور التدبير المنزلي وتربية الصغيرين ومساعدته في عمله، يعني الكثير بالنسبة للأسرة. ولكنه إذ رأى مدى رغبتي وحماستي في كسب المال بعرق

جبيني لم يرفض طلبي . وفيما بعد اعترف لي أنه كان يأمل في أن يأتي جواب رئيس المؤتمر بالرفض . ولكن الجواب جاء بالإيجاب ، وتضمن الشروط اللازمة . التي لم تكن مغرية ، ولكن ما كان يهمني ليس النقود ، بل بدء العمل ، فإذا ما قمت بعملي على خير وجه ، وحصلت على تزكية من رئيس المؤتمر فسيكون بوسعي الحصول على أعمال أخرى ، أفضل بكثير .

لم يعرب زوجي عن استيائه من سفري ، لأن والدتي وعدت بالقدوم والإشراف على البيت والصغيرين في أثناء غيابي . ثم إن فيدور ميخائيلوفيتش لم يكن بحاجة إليَّ لأعماله الأدبية ، فقد كان منكباً آنذاك على التعديل في رواية (الشياطين) . ومع ذلك فإنه لم يكن راضياً أبداً عن السفر المزمع . فراح يبتكر مختلف الذرائع ، للحيلولة دون سفري : راح يتساءل كيف يمكن أن أسافر ، وأنا المرأة الشابة ، إلى المدينة البولونية وحدي ، حيث لا أعرف أحداً ؟ وكيف سأدبر أموري هناك ؟ وما إلى هذا . وحين سمع أخي هذه الاحتجاجات تذكر أن أحد رفاقه القدامى ، الذي يعرف المنطقة الغربية جيداً ، سيسافر لحضور المؤتمر ، فدعاني مع زوجي لزيارته ، وتناول الشاي لديه ، للتعرف عليه والحصول على المعلومات منه .

ذهبنا إلى أخي في الأمسية المحددة . وكان زوجي ، الذي مضت عليه فترة طويلة لم يتعرض للنوبة ، في مزاج رائع . بدأنا نتجاذب أطراف الحديث مع أخي وزوجته ، بانتظار صديقه ، لم يسبق لي أن رأيته ، ولكنني سمعت عنه الكثير من أخي . كان شاباً طيباً ، ولكنه ليس ذكياً جداً ، أصله من القوقاس . ونظراً لحماسته وسرعته لقَّبه زملاؤه بـ (الآسيوي المتوحش) . وكان هذا اللقب يثير

غضبه . وكدليل على أنه (أوروبي) راح ينتقي لنفسه أرباباً من كل فن ، ففي الموسيقى كان يؤله شوبان ، وفي الرسم ريبين ، وفي الأدب دستويفسكي . خرج أخي لاستقبال الضيف في المدخل ، ولم يكد المسكين يعرف أن بوسعه أن يتحدث مع دستويفسكي ، لا بل ويقدم له خدمة ، حتى كاد يطير فرحاً . ولكنه ارتبك للحال وشعر بالرهبة . إذ لم يكد يدخل غرفة الضيوف ، ويرى فيدور ميخائيلوفيتش ، حتى ارتبك ، وبصعوبة انحنى لزوجي ولربة البيت بصمت . كان في حوالي الثالثة والعشرين ، طويل القامة ، أجعد الشعر ، جاحظ العينين ، أحمر الشفتين .

وحين رأى أخي مدى ارتباكه سارع إلى تقديمه . انتزع (الآسيوي) يدي وقبلها . ثم هزها عدة مرات ، وهو يقول : كم أنا سعيد أنك مسافرة إلى المؤتمر وأن بإمكاني أن أساعدك !

إذا كان سروره قد أضحكني فإنه قد أثار غضب زوجي . الذي لم يكن يحب أن يقبل أحد يدي . ولم يكد أخي يلاحظ أن مزاج زوجي قد تغير (كان الانتقال من مزاج إلى آخر عند زوجي حاداً دائماً) ، حتى سارع إلى تحويل مجرى الحديث إلى موضوع المؤتمر . كان (الآسيوي) لا يزال على ارتباكه . ولما كان يخشى النظر إلى فيدور ميخائيلوفيتش فقد كان يوجه معظم أجوبته إلي ، ولا زلت أذكر بعض هذه الأجوبة اللطيفة ، ولكنها غير مناسبة ، فعلى سؤالي :

هل الوصول إلى الكسندرية صعب ؟

أجاب: كوني مطمئنة يا آنا غريغوريفنا، سأكون برفقتك، وإذا سمحت سأسافر معك في مقطورة واحدة.

وسأل زوجي: هل ثمة في الكسندرية فندق لائق يمكن أن تنزل فيه امرأة شابة؟

نظر إليه الشاب بفرح، وصاح بحماسة:

ـــ إذا رغبت آنا غريغوريفنا فإن بوسعي النزول معها في فندق واحد، ولو أنني كنت أنوي النزول عند رفيق لي.

ـــ أتسمعين يا آنا؟ إن الشاب موافق على النزول معك! إن هذا رائع!!! ـــ صاح فيدور ميخائيلوفيتش بصوت قوي وضرب الطاولة بكل ما أوتي من قوة. فسقط كأس الشاي من أمامه على الأرض، وانكسر. وأسرعت ربة البيت تسند المصباح المشتعل، وقد تمايل من شدة الضربة، أما فيدور ميخائيلوفيتش فقد قفز من مكانه، واندفع إلى المدخل، حيث وضع معطفه عليه، وانطلق خارجاً.

ارتديت معطفي على عجل، واندفعت في أثره: ولدى خروجي من البيت رأيت زوجي يجري في الإتجاه المعاكس لمنزلنا. فجريت في أعقابه. ولحقت به بعد حوالي خمس دقائق، ولكنه لم يتوقف، على الرغم من توسلاتي. فسبقته، وتناولت طرفي معطفه الملقى على كتفيه، وصحت به: إنك مجنون يا فيديا! إلى أين تجري؟ إن هذا ليس طريقنا! توقف، وارتدِ المعطف كما يجب، وإلا أصبت بالرشح.

أثر منظري المضطرب في زوجي ، فتوقف وارتدى المعطف ، وزررته له ، ثم تأبطت ذراعه ، وقدته في طريق العودة . وظل فيدور ميخائيلوفيتش لائذاً بالصمت .

فقلت له مستنكرة : هل عدت إلى غيرتك ، أليس كذلك ؟ هل اعتقدت أنني خلال دقائق قليلة وقعت في حب (الآسيوي المتوحش) ووقع في حبي ؟ وأننا نستعد للهرب . أليس كذلك ؟ ألا تشعر بالخجل ؟ هل يعقل أنك لا تدري كم تؤلمني بغيرتك ؟ منذ خمس سنوات ونحن متزوجان ، وأنت تعرف مدى حبي لك ، ومدى اهتمامي بسعادتنا ، ولكنك تغار علي من أول عابر سبيل ، وتضعني ، وتضع نفسك في موقف مضحك !

راح زوجي يعتذر ، ويسوّغ فعلته ، ووعد بأن لا يعود إلى الغيرة أبداً . ولم أستطع الغضب منه طويلاً : فقد كنت أعرف أنه غير قادر على ضبط نفسه حين يشعر بالغيرة . فرحت أضحك وأنا أتذكر الشاب المبتهج ، وغضب فيدور ميخائيلوفيتش المفاجىء ، وهروبه . وإذ لاحظ التغير في مزاجي راح يلوم نفسه ، ويتساءل كم من الأشياء حطم ، وعما إذا كان قد حطم العاشق الولهان .

كانت الأمسية رائعة ، فسرنا إلى البيت على الأقدام . على الرغم من طول الطريق ، الذي استغرق زهاء ساعة . وفي البيت كان أخي بانتظارنا . إذ لم يكد يرى خروجنا المباغت حتى تملكه الخوف ، واندفع إلى منزلنا ، ولكنه فوجىء بعدم وجودنا في البيت . وقد أمضى ساعة بكاملها بانتظارنا ، وهو

يضرب أخماساً بأسداس، ولكم أن تتصوروا مدى دهشته حين رآنا معاً وفي مزاج رائق جداً. شربنا الشاي معاً، وضحكنا كثيراً، إذ تذكرنا ما حدث. وعلى سؤالنا كيف برر لهذا القوقاسي هروبنا الغريب أجاب أخي:

ـ حين سألني عما جرى قلت له: ليأخذك الشيطان إذا كنت لا تعرف.

أدركت بعد هذه القصة أن علي أن أتخلى عن فكرة السفر. صحيح أنه كان بوسعي أن أقنع زوجي بالسماح لي بالسفر. ولكنه كان من شأنه أن يستسلم للقلق والأفكار المزعجة. ومن ثم فقد يفقد صبره، ويلحق بي. فتكون الفضيحة. هذا بالإضافة إلى إنفاق المال عبثاً، ونحن بأمس الحاجة له.

هكذا انتهت محاولتي كسب المال من الاختزال.

عام ١٨٧٣ نشر (الشياطين) التحرير، التعارف

بعد إنجاز رواية (الشياطين) أمضى فيدور ميخائيلوفيتش بعض الوقت في حيرة كبيرة، لا يدري ماذا يعمل. ولما كان العمل في هذه الرواية قد أرهقه، فقد بدا له أن البدء للحال برواية جديدة غير ممكن. أما تنفيذ الفكرة التي ولدت لدينا، ونحن في الخارج بإصدار (يوميات الكاتب) على شكل مجلة شهرية. فكان أمراً صعباً. حيث كان إصدار المجلة، والقيام بأود الأسرة (هذا عداك عن تسديد الديون) يتطلب مبلغاً كبيراً، أضف إلى ذلك أننا لم

نكن نعرف مدى النجاح الذي ستحققه المجلة لأنها الأولى من نوعها في الأدب الروسي، من حيث الشكل والمضمون. وفي حال فشل (اليوميات) سنجد نفسنا في طريق مسدود.

كان فيدور ميخائيلوفيتش نهباً للتردد. ولست أدري ماذا كان يمكن أن يختار لولا أن الأمير فلاديمير ميشيرسكي لم يعرض عليه أن يأخذ على عاتقه مهام محرر مجلة (المواطن) الأسبوعية. وكانت هذه المجلة، التي تأسست منذ عام مضى، تصدر تحت إشراف غرادوفسكي، وتضم من حولها مجموعة من الشخصيات، ذات الأفكار والقناعات المتجانسة، ومن بينهم: ك. ب. بوبيدانوستسيف، أ. ن. مايكوف، ت. إ. فيليبوف، ن. ن. ستراخوف، أ. أو. بورتسكي، ويفغيني بيلوف. وكان فيدور ميخائيلوفيتش يكن لهم كل الود والإعجاب. وكان العمل معهم يبدو له جذاباً. أضف إلى ذلك رغبته، في خلال المجلة، في أن يشاطر قرّاءه تلك الآمال والشكوك التي كانت تعتمل في عقله. وعلى صفحات (المواطن) كان يمكن ترجمة فكرة (يوميات الكاتب) إلى واقع، ولو لم يكن في القالب، الذي أعطي لها فيما بعد.

ومن الناحية المادية كان العرض جيداً نسبياً: فقد كانت أجور المحرر ثلاثة آلاف، عداك عن مقالات (يوميات الكاتب)، والمقالات (السياسية) فيما بعد. كنا نتقاضى إجمالياً قرابة خمسة آلاف في العام. ثم إن الحصول على مبلغ معين من المال شهرياً كان جيداً. حيث كان يسمح لفيدور ميخائيلوفيتش بعدم الانصراف عن الموضوع بمشاغل تأمين المبالغ اللازمة للحياة، تلك المبالغ التي تركت آثارها القاسية على صحته ومزاجه.

وبشكل عام فإن فيدور ميخائيلوفيتش، إذ وافق على هذا العرض، نزولاً عند رغبة أولئك الذين يكن لهم الود، لم يخف عليهم أنه سيقوم بذلك مؤقتاً، على شكل راحة من العمل الروائي، ورغبة في التعرف بشكل أقرب على الواقع الجاري، وأنه لن يلبث أن يتخلى عن هذا العمل الذي لا ينسجم وطبيعته، حال عودة الرغبة في الإبداع إليه.

لا تزال بداية ١٨٧٣ ماثلة في ذهني، لأنها تزامنت مع ظهور طبعتنا الأولى من رواية (الشياطين). فقد جاءت هذه الطبعة اللبنة الأولى في نشاطي مع فيدور ميخائيلوفيتش، ومن ثم لوحدي بعد وفاته، في مجال النشر، والذي استمر ثمانية وثلاثين عاماً.

كان بيع حق نشر رواية (الأبله)، ومن ثم رواية (الشياطين)، في كتاب مستقل، أحد الآمال في تحسين ظروفنا المالية (الهدف الأول). وحين كنا في الخارج كان من الصعب القيام بهذا البيع، ولكن حظنا لم يكن بأوفر بعد عودتنا إلى روسيا. صحيح أنه أصبح بإمكاننا الاتفاق مع الناشرين شخصياً. ولكن كل من كنا نفاتحه بالأمر منهم يعرض علينا سعراً زهيداً. فتاجر الكتب أ. بازونوف دفع لنا مئة وخمسين روبلاً لقاء نشر رواية (الزوج الخالد) في كتاب مستقل (بألفي نسخة)، بينما لم يعرضوا علينا لقاء نشر (الشياطين) سوى خمسمئة روبل، وعلى دفعات خلال عامين.

كانت فكرة نشر أعماله تراود فيدور ميخائيلوفيتش مُذ كان شاباً. وقد كتب عن ذلك لأخيه، كما حدثني عن ذلك حين كنا في الخارج. وقد

شغفتني هذه الفكرة، فرحت أتقصى شيئاً فشيئاً شروط النشر والتوزيع. وذات مرة، وبينما كنت أوصي على بطاقات زيارة لزوجي، دار الحديث بيني وبين صاحب المطبعة، وسألته عن شروط النشر، فأجاب بأن القسم الأكبر ينشر لقاء مبلغ نقدي، أما إذا كان المؤلف ذا اسم أدبي معروف، وتلقى كتبه الإقبال، فإن أية مطبعة مستعدة لإعطاء مهلة نصف عام. وفي حال عدم التسديد خلال هذه المهلة تضاف فائدة معينة إلى المبلغ. وبهذه الشروط نفسها يمكن الحصول على الورق اللازم للطباعة. كما أنه ذكر لي الكلفة التقديرية للرواية التي ننوي نشرها. أي ثمن الورق والطباعة والتجليد. وبموجب حساباته فإن رواية (الشياطين) ٣٥٠٠ نسخة، يمكن أن تكلف حوالي أربعة آلاف روبل، ونصح صاحب المطبعة بأن لا يقل سعر النسخة عن ثلاثة روبلات ونصف، فيكون المجموع ١٢٢٥٠ روبلاً، ثلاثون بالمئة منها لصالح الموزعين. وهذا يعني في حال نفاذ الطبعة، حصولنا على مبلغ كبير.

في تلك الآونة لم يكن أي من الكتّاب يقوم بنشر كتبه، وإذا ما واتت الجرأة أحدهم، فإنه كان يدفع الثمن ـــ الخسارة. كانت ثمة عدة شركات كتبية: بازونوف، وولف، ايساكوف وغيرهم، وكان هؤلاء يشترون حق نشر الكتب وتوزيعها في مختلف أنحاء روسيا. وكان باعة الكتب هؤلاء يأخذون الكتب الصادرة عن الجمعيات العلمية، أو التي أصدرها الأفراد بحسم خمسين بالمئة، وغالباً ما كانت هذه الكتب تعاد بعد فترة من الزمن في رزمها، دون أن تفتح، وأحياناً بعد أن يصيبها التلف.

حينما أخبرنا أصدقاءنا ومعارفنا بنيتنا أن نصدر الرواية سمعنا الكثير من

الاعتراضات والنصائح بعدم ركوب هذا المركب المجهول بالنسبة لنا، والذي قد يقودنا بسبب افتقارنا إلى الخبرة في هذا المجال، إلى الهلاك، ويرتب علينا آلافاً جديدة من الديون. ولكننا لم نرعو، وقررنا ترجمة فكرتنا إلى الواقع...

في نهاية ١٨٧٢ أنجز طبع الكتاب. وجاؤونا بقسم من النسخ إلى البيت. كان فيدور ميخائيلوفيتش مرتاحاً جداً لشكل الكتاب، وكنت مسحورة به بدوري، وعشية صدور الكتاب أخذ فيدور ميخائيلوفيتش نسخة، وذهب إلى أحد الباعة البارزين عله يشتري كمية من النسخ. ولكن البائع قلب الكتاب بين يديه ثم قال:

ـــ حسناً، أرسل مئتي نسخة إلى اللجنة.

ـــ وسأل زوجي: وما مقدار الحسم؟

ـــ لا أقل من خمسين بالمئة.

ولم يجبه فيدور ميخائيلوفيتش بشيء، وحين عاد إلى البيت حزيناً حدثني عن فشله. وقد شعرت بالقلق أيضاً، أما عرض البائع بإرسال مئتي نسخة إلى اللجنة فلم يعجبني أبداً: كنت أعرف أنه حتى في حال بيع الكتب فإننا لن نحصل على المال بسرعة.

حل اليوم الأغر في حياتنا ـــ الثاني والعشرون من كانون الثاني (يناير) ١٨٧٣، حين ظهر إعلاننا عن صدور رواية (الشياطين) في (الصوت). وفي حوالي العاشرة جاءني ساع من مكتبة بوبوف، فخرجت لسؤاله عما يريد:

ـــ لقد قرأنا إعلانكم، نريد عشر نسخ.

ـــ سعر النسخ العشر خمسة وثلاثون روبلاً وبعد حسم عشرين بالمئة يبقى ثمانية وعشرون روبلاً.

ـــ كلا، خمسة وعشرون على الأقل!

ـــ غير ممكن صدقاً ـــ قلت له ذلك، وقد دب القلق في نفسي، فماذا إذا ذهب، وفوت علي الزبون الأول؟

ـــ إذا كان كذلك فهاكِ المبلغ...

بعد ذلك جاء صبي، وأخذ عشر نسخ بالسعر نفسه. ومن مكتبة غلازونوف جاءني ساع يطلب خمساً وعشرين نسخة في حال رفع الحسم إلى خمسة وعشرين بالمئة. ونظراً للكمية الكبيرة فقد وافقت. وهكذا استمر البيع بالوتيرة نفسها، وفي حوالي الثانية عشرة جاء أحد الوكلاء ليأخذ مني نسخة إلى اللجنة، ولكنني رفضت إرسال الكتب إلى اللجنة، وقلت له إن البيع يتمُّ نقداً... وعلى الرغم من الإلحاح فإنني لم أتنازل... وبعد ساعة أرسل صاحب المكتبة واشترى خمسين نسخة نقداً بحسم ثلاثين بالمئة.

كنت أشعر برغبة عارمة في أن يشاطرني فيدور ميخائيلوفيتش هذه السعادة. ولكنني كنت مضطرة لأن أنتظر خروجه من غرفته.

وبالمناسبة أقول إن خصلة غريبة كانت في طباع زوجي:

فمع استيقاظه في الصباح كان يبدو وكأنه لا يزال تحت تأثير أحلام

الليل وكوابيسه، التي كانت تعذبه أحياناً، فكان يلوذ بالصمت التام ولا يحب أن يحدثه أحد، ولذا فقد اعتدت أن لا أزعجه في الأصباح، مهما كانت الأسباب. بل أنتظر إلى أن يشرب في غرفة الطعام فنجاني قهوة ساخنين جداً، ويذهب إلى مكتبه. وحينذاك كنت أدخل عليه، وأنقل إليه كل الأخبار، بحلوها ومرها. وفي هذه الفترة يكون مزاج فيدور ميخائيلوفيتش ممتازاً: يهتم بكل شيء، ويسأل عن كل شيء، وينادي الصغار، ويداعبهم ويلاعبهم. وهذا ما حدث اليوم: فقد كان يتحدث مع الأطفال، فأرسلتهم إلى غرفتهم، أما أنا فجلست في مكاني المعهود، قرب الطاولة، وإذ رأى فيدور ميخائيلوفيتش صمتي سألني وهو يبتسم:

ــ كيف تجري تجارتنا يا آنوتشكا؟

ــ بشكل رائع.

ــ وهل حالفك الحظ في بيع نسخة واحدة؟

ــ ليس واحدة، بل مئة وخمس عشرة.

ــ معقول؟ إذن تهانينا! أضاف فيدور ميخائيلوفيتش ساخراً، ظناً منه أنني أمزح.

ــ إنها الحقيقة، ألا تصدقني؟

ثم أخرجت قائمة المبيعات ورزمة من أوراق النقد، بحدود ثلاثمئة روبل. ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش يعرف أن المبلغ الموجود في البيت قليل، فإن

المبلغ الذي رآه أقنعه بأنني لا أمزح... وبعد الرابعة بدأ الزبن يتوافدون. بمن فيهم أولئك الذين جاؤوا في الصباح، كان من الواضح أن الكتاب رائج، مما أثلج قلبي، صحيح أنني كنت مسرورة بالحصول على المال، ولكن الأهم من هذا أنني عثرت على عمل يهمني ــ بنشر أعمال زوجي العزيز، كما كنت سعيدة بنجاح المشروع خلافاً للتحذيرات والنصائح.

وبدوره كان فيدور ميخائيلوفيتش مغتبطاً، وخاصة حينما نقلت له كلام أحد وكلاء الأعمال من أن (الجمهور ينتظر الرواية، ويسأل عنها منذ عهد بعيد). كان فيدور ميخائيلوفيتش يهتم إلى حد كبير بتعاطف الجمهور، لأن الجمهور وحده كان يقف إلى جانبه باهتمامه وتعاطفه على مدى نشاطه الأدبي. أما بالنسبة للنقاد فباستثناء بيلينسكي ودبرالوبوف وبورينين لم يبذلوا إلا القليل من أجل الكشف عن موهبته: إما لأنهم كانوا يتجاهلون أعماله، أو أنهم كانوا يقفون موقف العداء منها، والآن، وبعد مرور أكثر من خمسة وثلاثين عاماً على وفاة فيدور ميخائيلوفيتش تستغرب، وأنت تقرأ ما كتب من نقد لمؤلفاته، أنه نقد في غاية السطحية والطيش، ولكنه عدواني بشكل عميق.

وقد وصلت غبطتي ذروتها حينما جاءني بائع الكتب كوجانتشيكوف، وعرض شراء ثلاثمئة نسخة دفعة واحدة بكمبيالات تستحق الدفع بعد أربعة أشهر، وبحسم قدره ثلاثون بالمئة. كان هذا العرض مغرياً. لا سيما وأنه يريد توزيع هذه النسخ في الريف، وبالتالي فلم يكن يعيق تجارتنا في المدينة. ولكن الذي جعلنا نتردد هو البيع بكمبيالات. وقد جاءني فيدور ميخائيلوفيتش يستشيرني بهذا الخصوص، ولما كنت أجهل طبيعة الكمبيالات التجارية، فقد

طلبت من زوجي البقاء معه قليلاً ، إلى أن أسأل صاحب المطبعة الذي كان يسكن غير بعيد . ولحسن الحظ أنني وجدته ، وقد نصحني أن لا أفوت مثل هذه الفرصة ، وأكد لي أن كمبيالات كوجانتشيكوف نقود ، وأعلن أنه على استعداد لأخذ هذه الكمبيالات استيفاء لديون مطبعته علينا . عدت إلى البيت بهذا النبأ ، وللحال كتب لنا كوجانتشيكوف ثلاث كمبيالات بمبلغ سبعمئة وخمسة وثلاثين روبلاً . وتسلم من فيدور ميخائيلوفيتش طلباً إلى المطبعة بصرف هذه النسخ له .

وبكلمة مختصرة فقد كانت بداية نشاطنا في ميدان النشر في منتهى الروعة . وقبل نهاية العام كانت الآلاف الثلاثة من النسخ قد نفد . واستمر بيع النسخ الخمسمئة الباقية على مدى عامين ــ ثلاثة . وقد در علينا هذا المشروع قرابة أربعة آلاف روبل . مما سمح لنا بتسديد بعض الديون المستحقة . والتي كانت تقض مضجعنا .

في البداية انكب فيدور ميخائيلوفيتش ، بكل اهتمام ، على العمل في تحرير (المواطن) ، وكان معجباً بجدة هذه المهام التحريرية ، وبالتعرف على العديد من النماذج المختلفة في هيئة التحرير . وبدوري سررت في البداية بالتغير في أعمال زوجي ، ظناً أن تحرير هذه المجلة الشهرية ليس محفوفاً بالمصاعب ، ومن شأنه أن يمكن فيدور ميخائيلوفيتش من الراحة قليلاً ، بعد قرابة ثلاث سنوات من العمل في رواية (الشياطين) .

وشيئاً فشيئاً بدأنا ندرك أنه أخطأ إذ وافق على القيام بمثل هذا النشاط

الغريب عنه . فقد كان يعمل بكل نزاهة وإخلاص، ولم يكن يكتفي بقراءة كل المقالات الواردة . بل وكان يقوم بتصحيح الكثير من المقالات الرديئة ، بما فيها مقالات الناشر ، وكان ذلك يستنزف الكثير من وقته ، وما زلت أحتفظ بمسودتين ــ ثلاث لقصائد كتبت بشكل أخرق . ولكنها تبشر بموهبة واعدة . وبعد تصحيح فيدور ميخائيلوفيتش لها جاءت في قالب رائع .

وإلى جانب قراءة المقالات وتصحيحها كان فيدور ميخائيلوفيتش يتحمل عبء المراسلة مع الكتّاب . فقد كان الكثيرون منهم يتشبثون بكل كلمة ، وفي حال الاختصار ، أو التغيير كانوا يكتبون له رسائل حادة ووقحة أحياناً . ولم يكن فيدور ميخائيلوفيتش يسكت على ذلك ، فكان يرد لهم الصاع صاعين . وفي اليوم التالي كان يندم على ذلك . ولما كنت أنا من يقوم عادة بإرسال هذه الرسائل ، فقد كنت أؤجل إرسالها ، وفي اليوم التالي ، وحين يعرب عن أسفه لما حصل ، ويندم على ما كتب ، كان يكتشف أن هذه الرسالة ، أو تلك لم ترسل بعد (بالمصادفة) فكان حينذاك يكتب لهم بلهجة رزينة ورصينة . ولا زلت أحتفظ في أرشيفي بعشرات الرسائل (الحامية) من هذا النوع ، والتي كان من شأنها أن تفرق بين زوجي وبين أناس لا يريد أن يفرق بينه وبينهم . ولكنه تحت تأثير الأسى والإثارة لم يكن يستطع تمالك نفسه ، فيعرب عن رأيه ، دون أن تأخذه رحمة بعزة نفس من يراسله . وباستمرار كان فيدور ميخائيلوفيتش ممتناً لي على هذه الرسائل، التي يتأجل إرسالها (مصادفة) .

وكم أرهق فيدور ميخائيلوفيتش بالمحادثات الشخصية . لقد كان هناك

سكرتير تحرير. ولكن أغلب الكتاب كانوا يرغبون في التحدث مع رئيس التحرير، وغالباً ما كانت تحدث مشادات (حامية). ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش نزيهاً وشريفاً قولاً وفعلاً فقد كان يعبر عن رأيه بصراحة، وكم جر على نفسه بذلك من عداوات بين الصحفيين.

وإلى جانب هذه المنغصات الاستكتابية فقد ذاق فيدور ميخائيلوفيتش الكثير من المعاناة المعنوية، لأن الأشخاص الذين لا يتعاطفون مع اتجاه (المواطن)، أو الذين لا يحبون الأمير ميشيرسكي نفسه. كانوا يسحبون مشاعر الكراهية هذه على دستويفسكي. وهكذا فقد ظهر لديه العديد من الأعداء في مجال الأدب، فقط لأنه رئيس تحرير مثل هذه المجلة المحافظة. والغريب أن الكثيرين لم يستطيعوا أن يغفروا لدستويفسكي ذلك، سواء قبل وفاته، أو بعدها. حتى إن صدى هذه الضغينة لا يزال يتردد في الصحف.

في بداية عهده في هيئة التحرير ارتكب فيدور ميخائيلوفيتش خطأ نشر كلمة القيصر إلى النواب (في مقالة للأمير ميشيرسكي بعنوان نواب قرغيزيا في س. بطرسبورغ).

وبموجب قانون الرقابة آنذاك لم يكن يجوز نشر خطب أعضاء الأسرة الحاكمة، فما بالك بكلام الإمبراطور نفسه. إلا بإذن من وزير البلاط الإمبراطوري. ولكن زوجي كان يجهل هذه المادة من القانون، وهكذا فقد قدم للمحاكمة، دون مشاركة المحلفين. وجرت المحاكمة في ١١ حزيران (يونيو) ١٨٧٣ في محكمة منطقة س. بطرسبورغ. وبالطبع فقد اعترف

زوجي بذنبه، وحكم عليه بغرامة قدرها خمسة وعشرون روبلاً مع السجن يومين. وكان الجهل بموعد تنفيذ عقوبة السجن يثير قلق زوجي كثيراً، وبخاصة لأنه كان يحول بينه وبين زيارتنا في روسًا. وبخصوص هذا الاعتقال اضطر فيدور ميخائيلوفيتش للتعرف على أناتولي كوني، الذي كان يشغل منصب رئيس محكمة منطقة س. بطرسبورغ آنذاك، والذي بذل قصارى جهده من أجل أن يقضي فيدور ميخائيلوفيتش هذه العقوبة في أكثر الأوقات مناسبة له. ومنذ ذلك الحين بدأت علاقات الود والصداقة تربط بين زوجي وبين أ. كوني، والتي استمرت حتى وفاة زوجي.

ومن أجل أن نكون قريبين من مبنى (المواطن) اضطررنا لاستبدال الشقة، والانتقال إلى ليغوفكا، على ناصية زقاق غوسيف، في منزل سليفتشانسكي. ولم نوفق في اختيار الشقة الجديدة، فقد كانت الغرف صغيرة وتوزيعها سيئاً، ولما كنا قد انتقلنا في منتصف الشتاء، فقد كان لا بد من التغاضي عن الكثير من النواحي غير المريحة، بما فيها طبيعة صاحب البيت المزعجة. فقد كان عجوزاً، ذا عادات غريبة كانت تخلق لنا الكثير من الأسى. وقد تحدث زوجي عنها في رسالته لي، التي تحمل تاريخ ١٩ آب.

في ربيع ١٨٧٣ وبناء على نصيحة الأطباء ذهبت مع الصغيرين إلى روسًا، لمتابعة الحمامات الشمسية، التي بدآها العام الماضي، والتي عادت عليهما بالكثير من الفائدة. ولما كان منزل الأب رومانتسيوف مؤجراً فقد نزلنا في دار العقيد العجوز الكسندر غريبي.

كان فراق الأسرة مرًّا بالنسبة لفيدور ميخائيلوفيتش، الذي زارنا أربع مرات خلال الصيف. وقد اضطر، بسبب غياب الأمير ميشيرسكي، أن يأخذ على عاتقه كل مهام المجلة المادية. وبالتالي فقد اضطر للبقاء في العاصمة في الأشهر الحارة، وتحمل الجوانب المزعجة لصيف بطرسبورغ.

كل الظروف المذكورة آنفاً أثرت بشكل سلبي على أعصاب فيدور ميخائيلوفيتش وعلى صحته عموماً، لدرجة أنه بدأ في خريف ١٨٧٣ يشكو من عمله، ويحلم بالعودة إلى عمله المفضل في المجال الأدبي.

الفصل السادس

١٨٧٤ ـ ١٨٧٥

عام ١٨٧٤ : الاعتقال، نيكراسوف

لم تكن الأشهر الأولى من عام ١٨٧٤ مواتية بالنسبة لنا. فقد أصبحت إصابات فيدور ميخائيلوفيتش بالزكام كثيرة، بسبب اضطراره لمغادرة البيت مهما كان الطقس رديئاً، لمتابعة شؤون (المواطن). وقبيل صدور العدد كان يمضي ساعات بكاملها في قسم التصحيح المدفأ بشكل زائد. ولم يلبث السعال الخفيف أن تطور إلى ضيق في التنفس. وقد نصح البروفيسور كوشلاكوف بالهواء المضغوط علاجاً. وبدأ فيدور ميخائيلوفيتش يتردد على عيادة الطبيب سيمونوف ثلاث مرات في الأسبوع. وقد عاد عليه العلاج

بالهواء المضغوط بفائدة كبيرة، وإن كان قد انتزع الكثير من وقته. حيث كان لا بد من الاستيقاظ باكراً، والوصول في الموعد المحدد، وانتظار المراجعين المتأخرين، لكي يجلسوا سوية تحت جرس واحد. كل ذلك ترك بصماته السلبية على مزاج زوجي.

ومما زاد في الطين بلة أن تراكم أعمال التحرير، وانحراف صحته لم يسمحا له بقضاء فترة الاعتقال المذكورة آنفاً، ومدتها يومان، وأخيراً اتفق زوجي مع كوني، وحدد موعد الاعتقال بالنصف الثاني من آذار (مارس). وفي صباح الحادي والعشرين منه جاءنا الـ (أوكلودوتشني)[1]، وكان فيدور ميخائيلوفيتش بانتظاره. وفي طريقهما عرجا على محكمة المنطقة. على أن أذهب بعد ساعتين إلى القسم، وأسأل عن المكان الذي سيسجن فيه. وإذ عرفت أنه في سجن سينايا، حملت إليه حقيبة صغيرة، ولوازم الفراش. كانت الأمور آنذاك خالية من التعقيد، فقد سمحوا لي بالدخول عليه فوراً. وقد وجدته في مزاج مفعم بالمرح والحيوية، وراح يسألني عما إذا كان الصغيران قد اشتاقا إليه، وطلب حمل بعض الهدايا لهما، وإخبارهما أنه سافر إلى موسكو لإحضار الهدايا. وفي المساء لم أكد أضع الصغيرين في الفراش حتى شعرت برغبة لا تقاوم في العودة إليه. وهكذا فقد ذهبت إليه، ولكن الوقت كان متأخراً، ولذا فلم يسمح لي بالدخول. ولكنني تمكنت من إرسال الخبز الطري ورسالة له مع الحارس. وقد شعرت بالأسى لكوني لم أتمكن من الحديث

---

(١) واضح أن الكاتبة تقصد (أوكلوتوتشني) أي الشرطي في روسيا القيصرية، المسؤول عن حي أو منطقة ما. (المترجم)

معه ، كي أطمئنه على الصغيرين . وحين وقفت تحت نافذة السجن رأيت زوجي يجلس خلف الطاولة ، يطالع كتاباً . بقيت في وقفتي خمس دقائق ، أشعرته بوجودي بهدوء ، وللحال وقف زوجي ، ونظر باتجاه النافذة ، ولم يكد يراني حتى علت الابتسامة محياه ، وراح يهز برأسه ، وفي هذه اللحظة اقترب الحارس مني فاضطررت إلى الانصراف . وقد عرجت على أ . مايكوف ، الذي كان يعيش غير بعيد عن سادوفايا ، ورجوته أن يزور زوجي غداً . وكان من الطيبة أنه أخبر ف . سولوفيوف ، وذهبا لزيارة زوجي في اليوم التالي ، كما ذهبت لزيارته مرتين في ذلك اليوم . (في المساء وقفت قرب النافذة ، على غرار مساء البارحة ، ووجدت زوجي بانتظاري في هذه المرة) . وفي حوالي الثانية عشرة من اليوم الثالث (استقبلنا البابا العائد من موسكو) بكل سرور . وقد عرج في طريقه على المخزن ، واشترى بعض اللعب لهما . عاد فيدور ميخائيلوفيتش من السجن مرحاً جداً ، وأخبرني أنه أمضى هذين اليومين بشكل رائع ، كان يشاركه الجناح حرفي ، كان يمضي الكثير من ساعات النهار في النوم ، مما مكن زوجي من قراءة رواية (البؤساء) رائعة هيجو المعروفة . وكان دستويفسكي يكن له كل احترام وتقدير . يقول زوجي : من حسن الحظ أنهم اعتقلوني ، وإلا فهل كان يمكن أن يتوفر لدي الوقت الكافي لاستعادة انطباعاتي الرائعة القديمة عن هذا المؤلف الرائع ؟

مع مطلع ١٨٧٤ قرر فيدور ميخائيلوفيتش ، وبشكل نهائي ، التخلي عن عمله في تحرير (المواطن) . وقد صدر العدد الأخير ، الذي يحمل اسمه في الخامس عشر من نيسان (ابريل) .

ومن جديد وجد فيدور ميخائيلوفيتش نفسه وقد شد إلى العمل الأدبي البحت. فقد ولدت في رأسه أفكار وأنماط جديدة. وشعر بالحاجة لأن يجسدها في مؤلف جديد. ولكن المشكلة أين يمكن نشر الرواية في حال عدم وجود شاغر في (روسكي فيسنيك) للعام القادم. ثم إن زوجي كان يشعر بالحرج من عرض مؤلفاته بنفسه. ولكن حادثاً طارئاً وضع النهاية السعيدة للمسألة التي كانت مثار قلقنا.

ففي صباح أحد الأيام، وقرابة الثانية عشرة، أعطتني الفتاة بطاقة زيارة، تحمل اسم (نيقولاي الكسييفيتش نيكراسوف). ولما كنت أعرف أن فيدور ميخائيلوفيتش قد ارتدى ثيابه، ولن يلبث أن يخرج، فقد أوعزت بدعوة الزائر إلى غرفة الضيوف. أما البطاقة فأرسلتها إلى زوجي. وبعد حوالي خمس دقائق دعا فيدور ميخائيلوفيتش الضيف إلى مكتبه، بعد أن اعتذر لهذا الإبطاء.

شعرت برغبة عارمة في معرفة السر الكامن وراء قدوم نيكراسوف، الذي كان صديق زوجي في شبابه. ومن ثم عدوه الأدبي. فأنا أذكر أن (المعاصر) كانت تصب الشتائم على فيدور ميخائيلوفيتش منذ الستينيات. أي إبان صدور (فريميا) و(ايبوخا). ثم إن السنوات الأخيرة شهدت أكثر من تهجم معاد في المجلة من جانب ميخائيلوفسكي، سكابيتشيفسكي، يليسييف. كما كنت أعرف أيضاً أن فيدور ميخائيلوفيتش لم يلتق نيكراسوف في أي مكان منذ عودتنا من الخارج. وبالتالي فإن لقدومه مغزى ما. كان فضولي كبيراً لدرجة أنني لم أتمكن من تمالك نفسي، فوقفت قرب الباب المؤدي من المكتب إلى غرفة الطعام. ولكم أن تتصوروا مدى اغتباطي إذ

سمعت نيكراسوف يدعو زوجي للعمل معهم، ويطلب إعطاء رواية لمجلة (أوتيتشيستفينيي زابيسكي) للعام القادم، لقاء مئتين وخمسين روبلاً للملزمة، في الوقت الذي كان فيدور ميخائيلوفيتش لا يحصل حتى ذلك الوقت إلا على مئة وخمسين للملزمة.

على الأرجح أن نيكراسوف ظن، إذ رأى منزلنا المتواضع، أن فيدور ميخائيلوفيتش سيكون في غاية السعادة لمثل هذه الزيادة في المكافأة، وسيوافق للتو. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش شكره على هذا العرض وقال:

ـــ لا أستطيع يا نيقولاي الكسييفيتش إعطاءك جواباً إيجابياً لسببين اثنين: أولاً إن علي أن أكتب لـ (روسكي فيسنيك) أسأل عما إذا كانوا بحاجة إلى روايتي؟ فإذا كانت لديهم مادة للعام القادم، أكون حراً، وبوسعي أن أعدك بالرواية. فأنا أعمل مع (روسكي فيسنيك) منذ عهد بعيد. حيث ألقى كل الاهتمام، ولن يكون من اللائق، من جانبي، أن أتركهم دون عرض عملي عليهم، لن يستغرق إيضاح ذلك سوى أسبوع أو أسبوعين. وأعتقد أنه لا بد أن أخبرك أنني اعتدت أخذ سلفة على عملي، والسلفة بحدود ألفين ـــ ثلاثة آلاف.

وقد أعرب نيكراسوف عن موافقته التامة على ذلك. وأضاف فيدور ميخائيلوفيتش: أما المسألة الثانية فتكمن في رأي زوجتي باقتراحك. إنها الآن في البيت وسأذهب لسؤالها.

وجاء زوجي إلي. وهنا جرى حادث محرج. فلم يكد فيدور ميخائيلوفيتش يدخل علي حتى قلت له أستعجله:

ـــ وما الداعي للسؤال؟ وافق يا فيديا، وافق فوراً. وسأل زوجي بدهشة: وعلى ماذا أوافق؟

ـــ آه يا إلهي؟ على اقتراح نيكراسوف طبعاً.

ـــ ومن أين تعرفين اقتراحه؟

ـــ لقد سمعت الحديث كله، كنت أقف خلف الباب.

ـــ إذن فقد كنت تسترقين السمع؟ ولكن ألا تخجلين من نفسك يا آنيتشكا؟ قال فيدور ميخائيلوفيتش بأسى.

ـــ وما الداعي إلى الخجل؟ فأنت لا تخفي عني أسراراً، وكنت ستخبرني من كل بد، وما أهمية أنني استرقت السمع؟ فهي ليست أمور الآخرين. بل أمورنا نحن.

ولم يجد فيدور ميخائيلوفيتش ما يرد به على منطقي هذا.

وقال فيدور ميخائيلوفيتش بعد عودته إلى المكتب:

ـــ لقد تحدثت مع زوجتي، وهي في غاية الغبطة لأن روايتي ستظهر في مجلتكم.

كان نيكراسوف، على ما يبدو، مستاء لأن موافقتي ضرورية لمثل هذا الموضوع فقال:

ــ لم يكن يخطر لي أبداً أنك (تحت حذاء) زوجتك.

واعترض فيدور ميخائيلوفيتش: وما الغريب في الأمر؟ فنحن نعيش في تفاهم تام. وقد كلفتها بكل أموري، وأنا أثق برجاحة عقلها وحنكتها في العمل، فكيف لا أسألها النصيحة في مثل هذه المسألة الهامة لنا كلينا؟

ــ نعم، بالطبع، أنا أفهم... قال نيكراسوف ثم انتقل إلى موضوع آخر. وبعد أن جلس قرابة عشرين دقيقة ذهب بعد أن طلب إعلامه حال وصول الجواب من (روسكي فيسنيك).

وبغية معرفة رأي المجلة بأسرع وقت ممكن قرر فيدور ميخائيلوفيتش أن لا يعتمد على المراسلة، بل أن يذهب إلى موسكو بنفسه. وبالفعل فقد سافر إلى هناك في نهاية نيسان (أبريل). لم يكد كاتكوف يسمع بعرض نيكراسوف حتى وافق على إعطاء المبلغ نفسه. ولكن ما إن طلب فيدور ميخائيلوفيتش سلفة بمبلغ ألفي روبل حتى ذكر كاتكوف أنه دفع للتو مبلغاً كبيراً لمؤلف جديد (رواية آنا كارينينا) وأن المجلة تواجه بعض المصاعب المالية. وهكذا فقد حلت مسألة الرواية لصالح نيكراسوف.

عام ١٨٧٤ السفر إلى الخارج

بعد قضاء شهر أيار معنا في ستارايا روسّا عاد فيدور ميخائيلوفيتش إلى بطرسبورغ، كي يسافر من هناك إلى إيمس للعلاج. وفي بطرسبورغ راح الأمير ميشيرسكي وقريب له يعملان على إقناع زوجي بالسفر إلى سودين لا إلى إيمس. وكان الدكتور فون بريتسيل، طبيبه المعالج، من أنصار هذا الرأي. وهذا ما أثار ارتباك فيدور ميخائيلوفيتش حتى إنه طلب النصيحة في برلين من البروفيسور المشهور فريوريخ، الذي اكتفى بفحصه دقيقتين، وضع السماعة على صدره ثم أعطاه عنوان الطبيب غوتينتاغ في إيمس، وطلب منه مراجعته، ولم يشعر فيدور ميخائيلوفيتش بالارتياح لتسرع الطبيب الألماني المشهور، وهو الذي اعتاد أن يفحصه الأطباء الروس بكل اهتمام.

وصل فيدور ميخائيلوفيتش إلى برلين في التاسع من حزيران (يونيو). ولما كانت المصارف مغلقة فقد قصد المتحف الملكي لمشاهدة أعمال كاولباخ، التي كُتِبَ عنها وقيل الكثير. ولكن هذه الأعمال لم تنل إعجاب فيدور ميخائيلوفيتش، حيث وجدها مجرد (مبالغة باردة). ولكن لوحات الفنانين الآخرين تركت انطباعاً ممتازاً لدى زوجي، وشعر بالأسف لأننا لم نر معاً هذه التحف الفنية في أثناء زيارتنا الأولى لبرلين.

نزل فيدور ميخائيلوفيتش في الفندق، ثم قصد الطبيب أورت، الذي

فحصه بكل عناية، ووجد أنه مصاب بالتهاب الغشاء المخاطي، وأن هذا المرض ليس بالبسيط، إذ كلما تطور ازدادت صعوبة التنفس. ونصح الطبيب بشرب الماء، ووعد بالشفاء الأكيد، بعد أربعة أسابيع من العلاج.

وفي اليوم نفسه تمكن زوجي، بعد بحث طويل، من العثور على غرفتين لقاء اثني عشر تاليراً في الأسبوع، كما وافقت ربة البيت على أن يدفع لها تاليراً ونصف يومياً لقاء القهوة الصباحية والغداء والشاي وعشاء خفيف.

أما كيف كان فيدور ميخائيلوفيتش يمضي وقته فقد كتب لي يقول: «لم أقرأ إلا بوشكين، ويا لها من متعة، ففي كل يوم كنت أكتشف شيئاً جديداً... مساء البارحة، وبينما كنت أتنزه التقيت الإمبراطور غليوم لأول مرة: إنه عجوز طويل القامة، ذو مظهر وجيه، الجميع ينهض هنا (والنساء)، ويرفعون قبعاتهم وينحنون. أما هو فلا ينحني لأحد. أحياناً يكتفي بالتلويح بيده. بينما قيصرنا على العكس، إنه ينحني هنا للجميع، وهذا ما يقدره الألمان جداً. وقد أخبروني أن الألمان والروس (وبخاصة النسوة في مجتمعنا الرفيع)، يحاولون جهدهم أن يلتقوا بالقيصر لكي ينحنوا أمامه».

لم يمض إلا أسبوع واحد حتى بدأ فيدور ميخائيلوفيتش يشعر بالشوق والحنين إلى البيت. فلم يسبق له أن ابتعد عنا لفترة طويلة. أضف إلى هذا أنه كان آنذاك قادراً على القدوم إلينا في الحالات الطارئة، ومما زاد الطين بلة أن رسائلي إليه لم تكن منتظمة، ولم تكن تصل في الوقت، الذي ينتظرها فيه. ولما كنت أعرف أنه سيشعر بالقلق، فقد كنت أحمل الرسائل إلى البريد بنفسي،

وأطلب من مدير البريد إرسالها فوراً، وكنت أشكو لهم من بطء العمل في مركز بريد ستاريا روسًا. ولكن عبثاً، فقد ظلت الرسائل تتأخر يومين ـ ثلاثة في ستاريا روسًا. ولم نعرف سبب هذا التأخير إلا في ربيع ١٨٧٥.

ومن بين المعارف الذين التقاهم زوجي في إيمس الأميرة شاليكوفا. وإلى هذه العجوز الطيبة اللطيفة يعود الفضل في مساعدة زوجي في تحمل عذاب الوحدة بمرحها وطيبتها. وكم شعرت بالامتنان لها. ومما زاد في حنين زوجي أنه، وهو الذي اعتاد أن يقوم بنزهات طويلة يومية (مرتين)، قد حرم من هذه المتعة. حيث لم يكن ثمة فائدة من التنزه في البارك الصغير، المزدحم بالرواد، أما تسلُّق المرتفع فكان مستحيلاً بسبب وضعه الصحي. وكان يشعر بالقلق أيضاً إزاء مسألة حياتنا هذا الشتاء. فالسلفة الكبيرة نسبياً، التي حصلنا عليها من نيكراسوف أُنفقت: بعضها لتسديد بعض الديون، وبعضها الآخر لدفع نفقات سفر زوجي. ولم يكن بالإمكان طلب مبلغ آخر قبل تسليم جزء من الرواية. كل هذه الظروف أثرت على زوجي، وأساءت إلى أعصابه (وقد يكون بسبب شرب الماء أيضاً). واشتهر بين الجمهور بأنه الروسي (الصفراوي)، الذي يلقي مواعظه على الجميع، وكانت رسائلي إليه، بما تحمله من قصص عن الصغيرين (وشيطنتهما) وكلماتهما تعيد إليه الطمأنينة. ففي رسالته، التي تحمل تاريخ ٢١ تموز (يوليو) كتب يقول: «عزيزتي آنيا: إن نكاتك عن الصغار تجددني فعلاً، لكأنني كنت بينكم».

لم يكن لدى زوجي من المال ما يكفي للسفر إلى باريس، ولكنه لم يستطع كبح جماح رغبته في زيارة قبر ابنتنا الكبرى سونيا، التي ظلت ذكراها

حية في فؤاده . وهكذا فقد سافر إلى جنيف ، وزار مقبرة الأطفال مرتين ، وجلب لي من جوار قبرها غصنين من أشجار السرو ، التي نمت خلال السنوات الست الماضية ، وأصبحت تظلل قبرها .

في حوالي العاشر من آب عاد فيدور ميخائيلوفيتش إلى ستاريا روسًا ، بعد أن أمضى يومين ــ ثلاثة في بطرسبورغ .

١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ في ستاريا روسًا
صيفاً وشتاءً

في رسائله من إيمس في عام ١٨٧٤ أعرب فيدور ميخائيلوفيتش أكثر من مرة عن قلقه إزاء الأيام الصعبة التي تنتظرنا في المستقبل القريب ، وبالفعل فقد كان الوضع يستحق التفكير منا نحن ، فلم تكن حياتنا من الناحية المادية بالسهلة .

لقد سبق وأشرت إلى زيارة نيكراسوف لنا في شهر نيسان (أبريل) ، حيث طلب من فيدور ميخائيلوفيتش نشر روايته القادمة في (أوتيشيستفينيي زابيسكي) لعام ١٨٧٥ . وكان زوجي في غاية السرور بعودة العلاقات الودية مع نيكراسوف ، لا سيما وأنه كان يقيّم موهبته عالياً . كما اغتبطنا لكون نيكراسوف عرض سعراً يفوق ما اعتاد زوجي الحصول عليه بمئة روبل .

ولكن لهذا الأمر جانبه السلبي بالنسبة لفيدور ميخائيلوفيتش. فمجلة (أوتيشيستفيني زابيسكي) كانت مجلة المعسكر المضاد، وحتى عهد قريب كانت تخوض مع زوجي صراعاً مرّاً، إبان عمله في مجلتي (فريميا) و(إيبوخا). وبين أعضاء أسرة التحرير كان ثمة عدد من خصوم زوجي الأدبيين: ميخائيلوفسكي، سكابيتشيفسكي، يليسيف، وبليشيف، إلى حد ما. وكان بوسعهم أن يطالبوا زوجي بتعديل الرواية، بحيث تأتي متناسبة مع توجههم. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان من أولئك الناس، الذين لا يتراجعون عن قناعاتهم الجذرية. ولكن المجلة قد ترفض نشر آرائه. وكان من شأن زوجي لدى أول خلاف، مهما كان صغيراً، أن يطالب بسحب روايته، مهما كانت العواقب وخيمة بالنسبة لنا. وهكذا فقد كتب لي في رسالته، التي تحمل تاريخ العشرين من كانون الأول (ديسمبر) يقول: «إن بوسع نيكراسوف الآن أن يضيق علي كثيراً، إذا ما كان ثمة ما يتعارض وتوجههم. ولكن حتى لو اضطررنا في هذا العام إلى طلب الصدقة فلن أتراجع عن اتجاهي سطراً واحداً».

ماذا كان يمكن أن نفعل لو حصل الشقاق مع المجلة، كانت هذه الفكرة تقض مضاجعنا كلينا. هذا عداك عن أنه كان علينا أن نعيد فوراً مبلغ السلفة، الذي أنفقنا جزءاً منه، وكان الدفع العاجل يشكل مشكلة عويصة بالنسبة لنا. أضف إلى ذلك المشكلة التالية: من أين لنا بالمال لتغطية نفقات المعيشة إلى أن يتمكن فيدور ميخائيلوفيتش من العثور على جهة أخرى تتبنى

نشر روايته؟ فقد كانت (روسكي فيسنيك) المجلة الوحيدة آنذاك، التي كان بوسع زوجي النشر فيها بسبب قناعاته.

وتحسباً لكل طارىء قررت ضغط مصروف الأسرة قدر الإمكان. ومهما تواضعنا في حياتنا فقد كنا ننفق سنوياً ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبل، عداك عن تسديد عبء الديون والفوائد، لأن أجرة شقتنا (المتواضعة أبداً) كانت سبعمئة ـ ثمانمئة روبل. ويصل هذا المبلغ إلى الألف، إذا أضفنا تكاليف حطب التدفئة. وهكذا فقد خطر لي أن نقضي الشتاء في روسًا، سيما وأننا قررنا القدوم إليها في الربيع القادم، حيث استفاد الصغيران من حماماتها. وهذا يعني أننا لوعدنا إلى العاصمة فلفترة ثمانية ـ تسعة أشهر. سيذهب شهر ونصف ـ شهران في البحث عن الشقة والاستقرار، وستذهب أشهر الربيع في الاستعداد للسفر من جديد. كل هذا الوقت سيذهب هدراً. في الوقت الذي كان فيه زوجي بأمس الحاجة للإسراع في إنجاز الرواية، والتفرغ بعد ذلك لتحقيق الحلم المنشود ـ إصدار المجلة المستقلة ـ (يوميات كاتب).

كانت أسعار الحاجيات المعيشية في ستاريا روسًا أقل منها في بطرسبورغ بثلاث مرات. هذا عداك عن رخص أجور الشقق، والاستغناء عن المصاريف الأخرى، التي لا بد منها في العاصمة.

يعتبر شتاء ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥، الذي قضيناه في ستاريا روسًا، من أروع صفحات ذكرياتي. فقد كان الصغيران في صحة جيدة، وطيلة الشتاء

لم نستدع الطبيب، وهذا ما لم يحدث في العاصمة، كما أن صحة فيدور ميخائيلوفيتش كانت ممتازة: فقد خف السعال، وأصبح التنفس أكثر عمقاً. وبفضل الحياة الهادئة، الخالية من المفاجآت غير السارة، (الكثيرة في بطرسبورغ) تحسنت أعصاب زوجي، وأصبحت النوبات أقل حدوثاً، وأكثر ضعفاً. وكنتيجة لذلك قل غضبه وتوتر أعصابه، وأصبح دائم المرح والانشراح. ولم يكن المرض، الذي قاده إلى القبر بعد ست سنوات، قد استفحل بعد. ولما كان لا يعاني من ضيق التنفس فقد كان يسمح لنفسه بمشاركة الصغيرين لعبهما وجريهما. إنني أذكر جيداً، ويذكر أولادي ومعارفنا في ستاريا روسًا كيف كان فيدور ميخائيلوفيتش يلعب مع الصغيرين في الأماسي، وعلى أنغام الأرغن يرقص معهما ومعي رقصات الكادريل، الفالس، والمازوركا. وكان يتقن الأخيرة بشكل جيد، كأي (بولوني عتيق)، وأعجبه أنني أشرت إلى ذلك ذات مرة بإطراء.

كانت حياتنا في ستاريا روسًا موزعة بالساعات، وكنا نتقيد بهذا النظام تماماً. ولما كان زوجي يعمل ليلاً فلم يكن ينهض قبل الحادية عشرة، ولدى خروجه لشرب القهوة، كان يدعو الصغيرين فيركضان إليه باندفاع، ويرويان له كل ما حدث لهما في ذلك الصباح، ويحدثانه عن مشاهداتهما في النزهة. وكان زوجي ينظر إليهما ببهجة، ويخوض معهما الحديث بكل حيوية. ولم يسبق لي أن رأيت، قبل ذلك ولا بعده، إنساناً يجيد ـــ كما يجيد زوجي ـــ دخول عالم الأطفال وإشغالهم بحديثه المشوق. وفي تلك الساعات كان فيدور ميخائيلوفيتش نفسه يصبح طفلاً.

بعد الظهر كان فيدور ميخائيلوفيتش يدعوني إلى مكتبه ليملي علي ما تمكن من كتابته ليلاً. كان العمل معه متعة دائمة بالنسبة لي، وكنت بيني وبين نفسي أشعر بالاعتزاز لأنني أساعده، ولأنني أول قرائه، وأسمع أعماله على لسانه.

عادة ما كان فيدور ميخائيلوفيتش يملي علي الرواية من المخطوط مباشرة. ولكن إذا كان غير راضٍ عن عمله، أو مرتاباً به، كان قبل الإملاء يقرأ الفصل كله دفعة واحدة. فيكون الانطباع أقوى منه لدى الإملاء العادي.

إملاؤنا

بالمناسبة بضع كلمات عن إملائنا.

كان فيدور ميخائيلوفيتش يعمل في الليل دائماً، حينما يخيم الصمت التام على البيت، ولا شيء يعيق مجرى أفكاره. وفي النهار كان يملي علي من الثانية وحتى الثالثة، ولا زلت أتذكر تلك الساعات كأسعد الساعات في حياتي... وفي نهاية إملائه كان يسألني.

ـــ ما رأيك يا آنيتشكا؟

كنت أريد أن أكون صادقة في تقويمي، فلا أغدق المديح والإطراء جزافاً، ولم أكن أخفي انطباعاتي. ولا زلت أذكر كم ضحكت لدى قراءة

أحاديث السيدة خوخلاكوفا، أو الجنرالة في (الأبله)، أو كيف مازحت زوجي بصدد مرافعة المدعي العام في (الأخوة كارامازوف).

ــ للأسف أنك لست مدعياً عاماً، وإلا لكنت أرسلت بمرافعتك أكثر الناس براءة إلى سيبيريا.

وسأل فيدور ميخائيلوفيتش: إذن لقد نجحت مرافعة المدعي العام برأيك؟ فقلت له مؤكدة: إلى حد كبير، ومع ذلك فإنني ما زلت آسف لأنك لم تعمل في المجال القضائي، إذن لكنت الآن جنرالاً، وكنت أنا جنرالة، لا مساعداً متقاعداً.

وحينما راح يملي علي مرافعة فيتيوكوفيتش ووجه إلي سؤاله المعهود أجبته، على ما أذكر، بقولي:

ــ والآن أسألك يا عزيزي لماذا لم تعمل محامياً؟ وإلا لكنت قادراً على جعل أكثر المجرمين خطراً أنصع بياضاً من الثلج. إن هذا العمل يليق بك جداً. لقد جاءت شخصية فيتيوكوفيتش في منتهى الجودة.

ولكن كان يصدف أن أستسلم للبكاء أحياناً. أذكر أنه حينما كان يملي علي مشهد عودة أليوشا مع الصبيان، بعد دفن ايليوشيتشكا، أنني انفعلت إلى درجة أنني كنت أكتب بيد وأمسح بالأخرى دموعي. وحين لاحظ فيدور ميخائيلوفيتش ذلك اقترب مني، ودون أن ينطق بكلمة، قبل رأسي.

عام ١٨٧٥ السفر إلى بطرسبورغ وإيمس

في بداية شباط (فبراير) اضطر فيدور ميخائيلوفيتش إلى السفر إلى بطرسبورغ حيث أمضى أسبوعين، وكان الهدف من السفر هو رؤية نيكراسوف، والاتفاق على مواعيد صدور الرواية. كما كان من الضروري استشارة البروفيسور كوشلاكوف. لأن زوجي كان ينوي السفر في ذلك العام إلى إيمس بغية متابعة العلاج الناجع.

وفي اليوم التالي لوصوله العاصمة حدث له حادث مؤسف، أثار قلقه، فقد استدعي إلى المخفر، ولما لم يكن بوسعه القدوم في الساعة المحددة (التاسعة) فقد جاء ظهراً. ولكنه لم يجد أحداً، فعاد في المساء حيث تبين أنهم يستدعونه بسبب هويته المؤقتة، وطالبوه بهوية حقيقية، ولكن لم تكن لديه. وقد راح يؤكد لمساعد رئيس المخفر أنه يعيش بهذه الهوية المؤقتة منذ عام ١٨٥٩، ويحصل على أساسها على جواز السفر، ولم يسبق لأحد أن طلب منه هوية أخرى... يقول زوجي في رسالته، التي تحمل تاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٨٧٥: «.. وقد راح مساعد رئيس المخفر يجادلني:

— لن نعطيك جواز سفر، يجب أن نراعي القوانين.

— ولكن ماذا علي أن أفعل؟

ـ هات الهوية الدائمة.

ـ ومن أين لي بها الآن؟

ـ تلك مشكلتك.

ـ ولكن في بطرسبورغ ٢٠٫٠٠٠ إنسان بدون هويات، بينما أنت تعتقل إنساناً يعرفه الجميع، كما تعتقل متشرداً.

ـ نعرف أن روسيا كلها تعرفك. ولكن القانون قانون. ثم لماذا هذا القلق؟ فغداً، أو بعد غد نعطيك شهادة بدل جواز سفر، فما الفارق لديك؟

ـ إيه، تباً لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟

وهكذا انتهت هذه الحادثة، ولكنها كلفت زوجي القلق الذي لا لزوم له. وفي نهاية أيار (مايو) اضطر زوجي للسفر إلى بطرسبورغ من جديد. ومن هناك إلى الخارج. وفي هذه المرة لم يكن راغباً في السفر إلى إيمس، وقد بذلت قصارى جهدي لإقناعه بضرورة العلاج.

وفي نهاية الفترة المحددة لعلاج زوجي جرى حادث كان له وقع المصيبة عليَّ: ففي ٢٣ حزيران (يونيو) وصلتني رسالة من بطرسبورغ جاء فيها أن (وقائع س. بطرسبورغ) نشرت خبراً حول استفحال مرض فيدور ميخائيلوفيتش. ولم أصدق ما جاء في هذه الرسالة فأسرعت إلى قاعة المطالعة،

وبحثت في صحف البارحة ، وفي العدد ١٥٩ من الصحيفة المذكورة عثرت على الخبر التالي :

« سمعنا أن مرض كاتبنا المشهور ف . م . دستويفسكي قد استفحل » .
ولكم أن تتصوروا مدى وقع هذا الخبر علي . وتصورت أنه أصيب بنوبة مزدوجة ، وللحال أسرعت إلى البريد ، وأرسلت برقية إلى زوجي ، ثم عدت إلى البيت ، ورحت أنتظر الجواب ، وأستعد للسفر إليه ، ولحسن الحظ أن الجواب قد جاء في حوالي السادسة ، وكان مطمئناً . والله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها لم تأت ، سافرت في تلك الظروف العصيبة . وحتى اليوم لم أعرف من هو الذي سرب ذلك الخبر إلى الصحيفة ، والذي كلفني عدة ساعات من العذاب .

وبالإضافة إلى القلق على الأولاد وعليّ كان فيدور ميخائيلوفيتش يعاني من توقف العمل في رواية (المراهق) . وأنه لن يتمكن من إنجازها في الموعد المحدد . ففي رسالته ، التي تحمل تاريخ ١٣ حزيران (يونيو) ، كتب فيدور ميخائيلوفيتش يقول : « إن أكثر ما يعذبني أن العمل غير ناجح : فحتى الآن لا زلت جالساً نهباً للعذاب والريبة ، ولا أستطيع البدء . كلا ، إن المؤلفات الأدبية لا تكتب على هذا النحو ، إنها لا تكتب بناء على طلب ، وتحت التهديد ، بل لا بد من الوقت والإرادة . ولكن يبدو أنني سأبدأ العمل الحقيقي عما قريب ، ولكن كيف ستكون النتيجة ، لست أدري ، ففي مثل هذا السأم يمكن أن أفسد (الفكرة) نفسها .

ثم إن فيدور ميخائيلوفيتش كان قلقاً بشأن استئجار الشقة الشتوية . صحيح أن حياتنا في روسًا كانت جيدة ، ولكن كان من الصعب البقاء فيها ، وخاصة لأن فيدور ميخائيلوفيتش كان ينوي البدء بمشروع مجلة (يوميات كاتب) مع مطلع ١٨٧٦ .

عام ١٨٧٥ . الفأر

عشنا في ستاريا روسًا فترة كان مزاج فيدور ميخائيلوفيتش خلالها في منتهى المرح والطيبة ، وعلى ذلك تدل مزحته التالية :

ففي مطلع ربيع ١٨٧٥ خرج فيدور ميخائيلوفيتش من غرفة نومه في الصباح ، وهو مكفهر الوجه . فاستبد بي القلق ، وسألته عن صحته فأجاب :

ـــ إنني بصحة جيدة ، ولكن ثمة فأراً صغيراً في فراشي . فحين استيقظت شعرت أن شيئاً ما قد ركض فوق قدمي . ولم أكد أرفع الغطاء حتى رأيته . يا له من منظر كريه . قال فيدور ميخائيلوفيتش بقرف ، ثم أضاف : يجب البحث في الفراش . فأجبته : نعم ، من كل بد .

اتجه فيدور ميخائيلوفيتش إلى غرفة الطعام لتناول القهوة ، أما أنا فقد ناديت الخادمة والطباخة ، ورحنا نفتش السرير : رفعنا الغطاء والشراشف والوسائد وبدلنا البياض . ولما لم نعثر على شيء ، فقد رحنا نبعد الطاولات ورفوف الكتب عن الجدران علّنا نعثر على عش الفأر .

حين سمع فيدور ميخائيلوفيتش بالجلبة، التي نحدثها صاح ينادي. ولما لم أرد النداء أرسل أحد الصغار ورائي، فأجبت أنني سأجيء حال الانتهاء من ترتيب الغرفة، وحينذاك طلب فيدور ميخائيلوفيتش موافاته إلى غرفة الطعام من كل بد، فأتيت إليه فوراً.

ـــ هل عثرت على الجرذ؟ سأل فيدور ميخائيلوفيتش بلهجة التقزز السابقة نفسها.

ـــ وأين يمكن العثور عليه؟ لقد هرب، ولكن الغريب في الأمر أننا لم نعثر على أي شق في غرفة النوم. لقد جاء من الممر على الأرجح.

ـــ أول نيسان يا آنيتشكا، أول نيسان. أجاب فيدور ميخائيلوفيتش، واكتسى وجهه الطيب بابتسامة مرحة ومحببة. لقد تذكر زوجي كذبة أول نيسان، وأراد أن يمازحني، وقد انطلت علي الكذبة، لأنني نسيت تاريخ ذلك اليوم، وبالطبع فقد ضحكنا كثيراً.

عام ١٨٧٥ ولادة ليوشا، العودة إلى بطرسبورغ

في السادس من تموز (يوليو) عاد فيدور ميخائيلوفيتش من إيمس إلى بطرسبورغ، حيث أمضى يومين ـــ ثلاثة، ولما كان من الصعب خلال هذه المدة القصيرة العثور على شقة مناسبة، فقد تخلى عن البحث، بعد أن شاهد

عدة شقق. وسافر إلى روسًّا، يشده الشوق والحنين إلى البيت والأسرة، وبعد أن فكرنا ملياً قررنا البقاء في روسًّا حتى الولادة، لا سيما وأن أصحاب البيت أحبوا صغيرينا كثيراً، وراحوا يتوسلون إلينا أن لا نسافر في (عز الصيف).

وقد وافق فيدور ميخائيلوفيتش على البقاء بكل ارتياح، لأن ذلك كان يسمح له بالانكباب على روايته. كنا نعمل كثيراً كي يستطيع لدى قدومه إلى بطرسبورغ، أن يطلب من نيكراسوف المال لقاء (المراهق) وكنا بحاجة ماسة للمال لبدء حياتنا الجديدة في العاصمة.

كان كل شيء يسير على ما يرام.. وفي العاشر من آب (أغسطس) رزقنا الله بصبي أسميناه (ألكسي)، وإن هي إلا أيام قليلة حتى استعدت قواي، وأصبح بوسعي أن أعود إلى مساعدة زوجي في الاختزال.

كان الجوُّ خلال شهر آب (أغسطس) جيداً، وفي منتصفه قررنا السفر، خوفاً من أن يسوء. كان الطريق شاقاً، لأن ضحالة نهر بوليستا كانت تحول بين السفن والاقتراب من المدينة. وتضطرها للرسو في بحيرة إيلمان، مقابل قرية أوستريكا، التي تبعد حوالي ثمانية عشر فرسخاً عن روسًّا. وفي أحد الأصباح الدافئة الرائعة انطلقنا في قافلة طويلة: في العربة الأولى فيدور ميخائيلوفيتش والصغيران، وفي الثانية أنا والرضيع برفقة المربية، أما في الثالثة فكانت الطباخة تجلس فوق كومة الحقائب والأكياس و(الصرر). كنا نسير بمرح على إيقاع الأجراس الرنانة، وبين الفينة والأخرى كان فيدور

ميخائيلوفيتش يوقف الخيل ليعرف كيف تجري الأمور عندي، وليتباهى بمرحه مع الصغيرين.

وصلنا أوستريكا بعد حوالي ساعتين ونصف. ولكن الخيبة كانت بانتظارنا. فقد جاءت الباخرة البارحة، ونقلت عدداً كبيراً من الركاب. ولما كان القبطان يعتقد بأن عددهم سيكون اليوم قليلاً، فقد وعد بالقدوم غداً، ولم يكن بوسعنا أن نفعل شيئاً. كان لا بد من الانتظار هنا يوماً بكامله. ومن منزلين ــ ثلاثة ركضت ربات البيوت يدعوننا للنزول في منازلهن. وبعد أن اخترنا أكثرها نظافة انتقلنا إليه، وللحال سألت ربة البيت عن أجرة المنامة، فأجابت بكل طيبة: «لا تقلقي يا سيدتي، نحن لن نأخذ زيادة، وأنت لن تجعلينا مغبونين».

كانت الغرفة متوسطة الحجم، وفيها سرير عريض جداً، وضعنا الصغار فيه بالعرض، أما أنا فنمت على الكراسي، بعد أن أُلصِقت ببعضها، وأمضى فيدور ميخائيلوفيتش ليلته على الأريكة، كما كان يفعل في طفولته، أما المربية والطباخة فقد نامتا في مستودع القش.

وفي الصباح، وكانت الساعة تقترب من الثامنة، قيل لنا إن دخان الباخرة يبدو من بعيد، وإنها لن تلبث أن تقترب من أوسترينكا بعد ساعة ــ ساعة ونصف. وحين ذهبت لأدفع أجرة الغرفة لم أجد العجوز، بل وجدت ابنها، وكان واضحاً أنه سكير. وفي ورقة الحساب كتب بخط رديء رقم أربعة عشر روبلاً مع بعض الكوبيكات: روبلان ثمن الدجاجة، واثنان ثمن الحليب،

وعشرة أجرة المبيت . وقد أثار ذلك غضبي ، ورحت أجادله ، ولكنه لم يتراجع ، وراح يهدد بالحجز على أغراضنا في حال رفضنا الدفع . ولم يكن هناك مناص من الدفع ، ولكنني لم أتمالك نفسي ، فوصفته بـ (الحرامي) .

كان النهار رائعاً ، وكانت مياه بحيرة إيلمان بلون الفيروز ، وتذكرك بالبحيرات السويسرية ، وقد أمضينا ساعات السفر الأربع على السطح .

في حوالي الساعة الثالثة وصلنا نوفغورد ، وقد قصدت محطة السكك الحديدية ، برفقة فيدور ميخائيلوفيتش ، وبعد ساعة جاؤوا بالمتاع ، وقد أشرفت بنفسي على تفحصه . كان لدينا حقيبتان جلديتان كبيرتان سوداء وصفراء ، وعدد من الأكياس و(الصرر) ، وقد وجدتها كلها .

انصرم النهار بسرعة كبيرة ، وفي حوالي الساعة السابعة اقترب الحارس مني وقال أنه من الأفضل أخذ البطاقات وتسليم المتاع قبل أن يتوافد المسافرون ، ولم أكد أشتري البطاقات ، وأعود لأدل الحارس على حقيبتينا الكبيرتين و(الصرتين) لوضعهما في عربة الشحن ، حتى فوجئت بالحارس يقول لي ، وهو يشير إلى الحقيبة السوداء ، أنها ليست حقيبتنا ، وأن مسافراً آخر طلب منه وضعها في عربة الشحن .

فقلت ، وأنا أتفحص الحقيبة : ليست حقيبتنا ؟ غير معقول ! . ولكم أن تتصوروا مدى الصدمة ، صحيح أن الحقيبة من حجم حقيبتنا نفسه ولونها ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت تخص إنساناً آخر .

ــ يا إلهي ، ولكن أين حقيبتنا إذن ؟ هلا بحثت عنها ؟ ولكن الحارس

أكد أن لا حقيبة سوداء أخرى هنا. وأصبحت نهباً للقلق واليأس: ففي الحقيبة الضائعة توجد أغراض فيدور ميخائيلوفيتش: ثيابه الخارجية والداخلية. ولكن الأهم من ذلك كله مخطوط رواية (المراهق)، التي كان على زوجي أن يحملها غداً إلى المجلة ليحصل على النقود، التي كنا بأمس الحاجة إليها. وبالتالي فإن الضياع لم يقتصر على جهد الشهرين الأخيرين، بل كان يستحيل كتابة المخطوط من جديد، لأن الضياع قد شمل أيضاً الدفاتر التي استخدمها فيدور ميخائيلوفيتش في وضع تصاميم الرواية. كان وقع المصيبة كبيراً، وقد هرعت إلى الصالة العامة، حيث كان فيدور ميخائيلوفيتش مع الصغار. ولم يكد يرى وجهي المرتبك حتى خاف أن يكون الرضيع قد أصيب بمكروه، وبصعوبة بالغة تمكنت من العثور على الكلمات، لأضع زوجي في صورة ما حدث.

استولى الذهول على فيدور ميخائيلوفيتش، حتى إن لونه اصفر، وتمتم بصوت واه:

ــ نعم إنها مصيبة كبيرة، ماذا سنفعل الآن؟

فقلت له، وقد خطر لي فجأة: لعل ذلك الشاب الخبيث، ابن صاحبة البيت، لم يحمل الحقيبة إلى السفينة نكاية بي، لأنني وصفته بالحرامي.

ــ إنك لعلى صواب. ولكن لا يمكن ترك الحقيبة، يجب العثور عليها، فلا يمكن أن تضيع. هاك ما سنفعله: تسافرين مع الأولاد إلى بطرسبورغ.

(إن البقاء في الفندق مع الأولاد والخادمة غير وارد، ثم إن المال لا يكفي)، بينما أبقى أنا هنا، وغداً أقصد ليرهي (محافظ مدينة نوفغورد، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يعرفه)، وأطلب منه شرطياً يرافقني على الباخرة المسافرة غداً إلى أوستريكي. وإذا كانت الحقيبة لدى صاحب البيت أعطانا إياها خوفاً من التفتيش. أما أنت فاهدأي بالله عليك، انظري إلى شكلك! ارحمي نفسك من أجل الصغير! هيا اذهبي، واغسلي وجهك بالماء البارد، ثم عودي إلينا بسرعة.

.. كنت أقف في صالة الأمتعة، أستند إلى الحاجز، والدموع تنهمر من عيني، وفجأة خطرت لي فكرة: ماذا لو أن الحقيبة قد بقيت على رصيف المرساة؟ إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنها محفوظة، فلماذا لا أتفقدها هناك؟ ولكن الحارس رفض الذهاب، بحجة أنه مناوب، وهكذا فقد قررت الذهاب بنفسي...

ولحسن الحظ أنني وجدت الحقيبة، وعدت بها مع أحد الحمالين، وكم توسلت إليه أن يسرع، فقد مضى وقت طويل، ولا شك في أن زوجي في غاية القلق والخوف. فهو لا يعرف إلى أين ذهبت... ولكن أحد الحمالين أخبره أنني ذهبت إلى المرساة، فوقف ينتظرني. ولم أكد أراه من بعيد حتى صحت مطمئنة:

ــ فيدور ميخائيلوفيتش، هذه أنا، لقد عدت بالحقيبة.

الفصل السابع

١٨٧٦ـ١٨٧٨

عام ١٨٧٦ مزحتي

في الثامن عشر من مايو أيار جرى لي حادث أشعر بالرهبة لدى تذكره. وإليكم القصة: كانت مجلة (اتيشيستفيني زابيسكي) تنشر آنذاك رواية (قوة الشخصية) للكاتبة صوفيا سميرنوفا، التي كان زوجي يعرفها، ويقدر موهبتها الأدبية عالياً. وذات مساء ذهب لحضور اجتماع، وما إن أوى الصغار إلى الفراش حتى انكببت على قراءة (قوة الشخصية). وكان ثمة في الرواية رسالة مغفلة، أرسلها أحد الأوغاد إلى بطل الرواية، وإليكم نص الرسالة، كما وردت في عدد نيسان (أبريل) في المجلة:

«سيدي المبجل بيوترايفانوفيتش المحترم :

صحيح أنك لا تعرفني ، ولكنني أشاطرك مشاعرك ، ولذا أتجاسر على أن أخط لك هذه السطور . إن نبلك وطيبتك معروفان بما فيه الكفاية بالنسبة لي ، ولذا فإن قلبي يستنكر من فكرة أنه ، على الرغم من نبلك ، فإن أحد الأشخاص ، الأقرباء منك ، يخدعك بشكل غير لائق . وإذا ما تُركت هذه المرأة بعيدة عنك ولو لمسافة ألف فرسخ ، فإنها تكاد تطير من فرط السعادة وتحلق بعيداً ، ولا تريد العودة إلى البيت الأبوي . لقد تركتها لنفسك ولنفسها بين براثن الإنسان الذي تخشاه ، ولكنه يغريها بشكله المرائي . وقد استولى على قلبها ، وليس أقرب إلى قلبها من عينيه . حتى الصغار لم تعد ترتاح إليهم إذا لم يقل لها كلمة حنان . إذا كنت تريد معرفة هوية خصمك اللدود هذا ، فإنني لن أذكر لك اسمه . ولكن بإمكانك أن تعرفه من خلال معرفة أكثر الأشخاص تردداً عليكم . واحذر ذوي الشعر الأسود . وإذا رأيت ذا الشعر الأسود يريد اجتياز عتبة بيتك فراقبه جيداً . منذ زمن بعيد قطع عليك ذو الشعر الأسود الطريق . ولكن حل هذا اللغز ليس بمقدورك .

أما بالنسبة لي فليس ثمة ما يدفعني إلى الكشف عن هذا السر لك سوى نبلك وطيبتك . وإذا كنت لا تصدقني فانظر في (الميداليون) ، المعلق في عنق زوجتك ، تر من تحمل في هذا الميداليون فوق فؤادها . المخلصة لك والمجهولة لك إلى الأبد» .

وأشير هنا إلى أنني كنت في الآونة الأخيرة في مزاج رائع . فمنذ عهد

بعيد لم يتعرض زوجي لنوبات الصرع. وكان الصغار قد أبلّوا من المرض، وكانت ديوننا تسدد شيئاً فشيئاً. وكان نجاح (يوميات كاتب) يسير باطراد (Creszendo ـــ إيطالية). كل ذلك كان وراء مزاجي المرح. وتحت تأثيره، قررت، بعد قراءة الرسالة المغفلة أن أسجل هذه الرسالة، بعد حذف سطرين ـــ ثلاثة، وتغيير اسم المرسل إليه واسم أبيه، وإرسالها إلى فيدور ميخائيلوفيتش. وقد خطر لي أنه لن يلبث أن يتذكر أنه قرأ هذه الرسالة البارحة في الرواية. وحينذاك سنضحك سوية، وخطرت لي فكرة أخرى: أن يأخذ فيدور ميخائيلوفيتش الرسالة على محمل الجد. وفي هذه الحالة شعرت بالرغبة في معرفة ردة فعله على تلقي الرسالة المغفلة: هل سيطلعني عليها؟ أم أنه سيلقي بها في سلة المهملات؟ ولما كان من عادتي أن أقرن القول بالفعل فقد سارعت إلى تنفيذ خطتي. في البداية خطر لي أن أكتب الرسالة بخطي، ولكن خطي معروف له جيداً. ولذا فقد كان لا بد من التمويه، وهكذا فقد رحت أكتب بخط آخر، حيث الأحرف كبيرة. ولكن تبين أن ذلك في غاية الصعوبة، وقد أتلفت عدداً من أوراق الرسائل قبل أن أتمكن من كتابة الرسالة بخط متناسق.

وفي صباح اليوم التالي ألقيت بالرسالة في صندوق بريدنا. وعند الظهيرة جاءت ضمن البريد الوارد.

وفي ذلك اليوم تأخر فيدور ميخائيلوفيتش في العودة إلى البيت. حيث لم يعد حتى الخامسة. وجلسنا نتناول طعام الغداء سوية. وكان زوجي في غاية المرح، حيث ضحك كثيراً، وتحدث مع الصغار. وبعد الطعام ذهب

ـ كالعادة ـ إلى مكتبه مع كأس الشاي. أما أنا فقد ذهبت إلى غرفة الصغار. وبعد عشر دقائق قصدت مكتب زوجي لأعرف مفعول الرسالة المغفلة.

دخلت الغرفة. جلست في مكاني المعهود، قرب الطاولة، وأدرت الحديث عن موضوع يتطلب جواب زوجي. ولكنه ظل محافظاً على صمته واكفهراره. وهو يزرع الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات بودية[١]. وإذ رأيت مدى حزنه شعرت بالرثاء له والشفقة عليه. ولكي أقطع حبل صمته سألته:

ـ لماذا أنت كئيب هكذا يا فيديا؟

ألقى علي فيدور ميخائيلوفيتش نظرة غضب، وقطع الغرفة مرتين أخريين، ثم توقف في مواجهتي تماماً:

ـ هل تحملين (الميداليون)؟ سأل بصوت يرثى له.

ـ نعم.

ـ أرني إياه.

ـ ولماذا؟ فقد سبق لك أن رأيته مراراً.

ـ أرني الميـدالـيون. صاح بأعلى صوته، وأدركت أن نكتتي قد تجاوزت كل حد. وبغية تهدئة خاطره رحت أفك أزرار ياقة الثوب. ولكن قبل

---

(١) نسبة إلى البود وهو وزن روسي يعادل ١٦٫٣٨ كيلوغرام. (المترجم)

أن أخرج الميداليون، لم يستطع فيدور ميخائيلوفيتش تحمل مرجل الغضب، الذي يستعر في داخله، فاتجه ناحيتي بسرعة، وجذب السلسلة بكل قوة، كانت سلسلة رفيعة كان قد اشتراها لي بنفسه من البندقية. وللحال انقطعت وبقي الميداليون في يد زوجي. دار بسرعة من حول الطاولة، وراح يحاول فتحه، ولما لم يكن يعرف المكان الذي يجب أن يضغط فيه على النابض فقد ظل يحاول فتحه طويلاً. ورأيت كيف كانت يداه ترتجفان وكاد الميداليون أن يسقط من يديه على الطاولة. فعرضت عليه، بصوت ودي، أن أفتحه. ولكنه رفض خدمتي بحركة غضب من رأسه. وأخيراً تمكن زوجي من النابض، وفتح الميداليون فرأى رسم صغيرتنا ليوبوتشكا، وفي الجهة الأخرى رسمه هو. فوقف ذاهلاً ينظر إلى الرسم، وقد عقدت لسانه الدهشة.

فسألته: ماذا وجدت؟ إيه يا لك من أحمق يا فيديا. كيف استطعت أن تصدق رسالة مغفلة.

التفت فيدور ميخائيلوفيتش إلي بحيوية:

ــ ومن أين عرفت بالرسالة المغفلة؟

ــ كيف من أين؟ وأنا التي أرسلتها.

ــ أنت مرسلها؟ ما هذا الذي تقولين؟ هذا غير معقول!

ــ سأبرهن لك الآن.

أسرعت باتجاه الطاولة الأخرى، حيث كتاب (أوتيشيستفينيي

زابيسكي)، وقلبت صفحاته، ثم أخذت أوراق الرسائل التي استخدمتها للتدرب على تغيير خطي.

لم يتمالك فيدور ميخائيلوفيتش أن يحرك يديه ذاهلاً.

ـــ وهل أنت من ألّف هذه الرسالة؟

ـــ كلا لست أنا، كل ما في الأمر أنني نسختها من رواية صوفيا ايفانوفنا. فأنت قد قرأتها البارحة. ولذا فقد ظننت أنك لن تلبث أن تكتشف المقلب.

ـــ وماذا يمكن أن أتذكر! إن كل الرسائل المغفلة تكتب بهذا الأسلوب. ولكن الشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو لماذا أرسلتها إلي؟

فأوضحت: كل ما في الأمر أنني أردت المزاح.

ـــ وهل يجوز مثل هذا المزاح؟ لقد استولى علي الذهول خلال هذه النصف ساعة.

ـــ ومن كان يعرف أن لدي مثل هذا (العُطَيل) الذي يتسلق الجدار دون تفكير.

ـــ الرجال في مثل هذه الحالات لا يفكرون. واضح أنك لم تعرفي الحب الحقيقي، والغيرة الحقيقية.

ـــ الآن عرفت الحب الحقيقي، والذنب ذنبك أنت في أنني لا أعرف

الغيرة الحقيقية: لماذا لا تخونني؟ ــ قلت ضاحكة، رغبة في ترطيب الجو ــ أرجوك أن تخونني. صدقني أنني أطيب منك: فلم أكن لأمسك بسوء، أما بالنسبة لها، تلك الشيطانة، إذن لفقأت عينيها!.

فقال فيدور ميخائيلوفيتش بصوت مذنب: وأنت ما تزالين تضحكين يا آنيتشكا! ولكن فكري ماذا كان يمكن أن يحدث! ففي سورة الغضب كان يمكن أن أخنقك! حقاً إن الله ستر رأفة بأطفالنا. ولنفرض أنني لم أعثر على الرسم، وبقيت حتى نهاية حياتي عرضة لذرة من الشك بإخلاصك، إذن لبقيت طيلة حياتي أقاسي وأعاني من ذلك. أتوسل إليك أن لا تمزحي بهذا الشكل، فلست مسؤولاً عن نفسي إذا ما كنت غاضباً.

وفي أثناء الحديث شعرت بعض الصعوبة في تحريك عنقي، وحين مسحته بالمنديل رأيت خيطاً من الدم يغطيه، واضح أن انتزاع السلسلة أدى إلى خدش الجلد. ولم يكد زوجي يرى الدم على المنديل حتى تملكه اليأس.

ــ يا إلهي ماذا فعلت! اغفري لي يا عزيزتي آنيتشكا! لقد جرحتك! هل تتألمين؟ قولي لي، تتألمين كثيراً؟

... ولا زلت حتى تاريخه أحتفظ (بالميداليون) والرسالة المغفلة ــ تاريخ ١٨ أيار (مايو) ١٨٧٦ ــ.

عام ١٨٧٦ البحث عن البقرة

في صيف ١٨٧٦ كان يقطن في ستاريا روسًا البروفيسور نيقولاي بيتروفيتش فاغنر، وقد ترك لدى زوجي انطباعاً جيداً، فكانا غالباً ما يلتقيان، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يكن له كل التقدير والإعجاب، باعتباره في غاية الحماسة لاستحضار الأرواح.

وذات مرة التقيت بفاغنر في الحديقة العامة. وقد قال لي:

ــ لقد أدهشني فيدور ميخائيلوفيتش البارحة!

فسألته بفضول: كيف؟

ــ البارحة، بينما كنت في جولتي خطر لي أن أعرج عليكم، وعلى الناصية التقيت زوجك فسألته:

ــ هل تتنزه يا فيدور ميخائيلوفيتش؟

ــ كلا إنني في عمل.

ــ وهل أستطيع مرافقتك؟

فأجابني بلهجة غير ودية: تعال إذا كنت تريد.

كان يبدو مشغولاً، وكان من الواضح أنه لا يرغب في الحديث. وعند الناصية التقينا امرأة فسألها فيدور ميخائيلوفيتش:

ــ هل رأيت بقرة بنية يا خالة؟

ــ كلا يا باتوشكا لم أرها.

بدا لي السؤال عن البقرة البنية غريباً، ولما سألته عن حاجته إليها أجابني:

ــ ما حاجتي إليها؟ إنني أبحث عنها.

فسألت مستغرباً: تبحث عنها؟

ــ نعم أبحث عن بقرتنا، فهي لم تعد من الحقل، وقد ذهب الجميع للبحث عنها، وأنا أبحث عنها أيضاً.

وحينذاك فقط أدركت لماذا كان فيدور ميخائيلوفيتش لا يكف يتلفت يمنة ويسرة، ويبدو عليه الضياع.

وسألت فاغنر: وما الذي أدهشك في ذلك؟

ــ كيف لا؟ أليس من المدهش أن ترى الكاتب العظيم، الذي يجب أن يكون كل عقله وخياله مكرسين للمثل السامية، وهو يطوف الشوارع بحثاً عن بقرة بنية اللون!

ــ من الواضح أنك لا تعرف يا نيقولاي بيتروفيتش المحترم، أن زوجي

ليس مجرد كاتب موهوب ، بل ورب أسرة رؤوم ، يهتم بكل ما يجري في البيت . فلو لم تعد البقرة مساء البارحة إذن لبقي صغارنا دون حليب ، أو لاضطررنا لإعطائهم حليباً من بقرة أخرى ، قد تكون مريضة ، وهكذا فقد راح فيدور ميخائيلوفيتش يبحث عنها .

وأشير هنا إلى أن البقرة لم تكن لنا . وكل ما في الأمر أن الفلاحين كانوا يتسابقون ، حين قدومنا إلى ستاريا روسّا صيفاً ، إلى تأجيرنا بقرة لقاء ١٠ ــ ١٥ روبل للصيف الواحد . وإذا نفقت البقرة كان علينا أن ندفع ثمنها ٩٠ روبلاً . وحينما كانت البقرة لا تعود مع القطيع كان جميع من في المنزل ــ باستثناء الرضيع ــ يشارك في البحث عنها .

حول ذكريات ١٨٧٨

في السادس عشر من أيار (مايو) ١٨٧٨ رزئنا بمصاب جلل . فقد توفي صغيرنا ليوشا . وقد حلت المصيبة على حين غرة : فقد كان الصغير معافى ومرحاً . ففي صباح الوفاة ، وبينما كان يردد بعض الكلمات ، ويضحك بصوت عال ، بدأ وجهه يتشنج بشكل خفيف ... شعرت بخوف كبير ، وللحال أرسلت في طلب طبيب الأطفال تشوشين ، الذي كان يقطن غير بعيد عنا . فجاء على جناح السرعة . ويبدو أنه لم يول المرض اهتماماً خاصاً . وكتب شيئاً ما ، ثم انصرف ، بعد أن أكد لنا أن كل شيء سينتهي على خير .

وإزاء استمرار التشنجات لم أجد بداً من إيقاظ فيدور ميخائيلوفيتش، الذي استبد به القلق. وقررنا مراجعة طبيب الأمراض العصبية. وهكذا فقد ذهبت إلى البروفيسور أوسبينسكي، الذي وعد بالقدوم حال الانتهاء من فحص مراجعيه... وعند الثانية وصل الطبيب ـ أخيراً ـ ولم يكد ينتهي من فحص الصغير حتى قال لي مطمئناً: «لا تخشي شيئاً، سيزول كل شيء قريباً». وحين عاد فيدور ميخائيلوفيتش من وداع الطبيب كان وجهه في منتهى الشحوب، وركع على ركبتيه قرب الأريكة، حيث كان يرقد الصغير، وركعت بدوري إلى جانب زوجي، وأردت أن أسأله عما قاله الطبيب (عرفت فيما بعد أنه أخبر زوجي بأن صغيرنا يحتضر). ولكنه أشار إلي أن ألوذ بالصمت. وبعد حوالي الساعة لاحظنا أن التشنجات بدأت تقل بشكل ملحوظ، فاعتقدت أن كل شيء يسير نحو الزوال، كما وعد الطبيب، ولكم أن تتصوروا شعوري حين رأيت أن تنفس الصغير قد توقف، وانتزعه الموت من بين أيدينا. فقبله فيدور ميخائيلوفيتش ثلاث مرات، ثم رسم إشارة الصليب وأجهش في البكاء. ورحت أبكي بدوري، وكذلك الصغيران، اللذان كانا يكنان له كل الحب.

هد هذا الموت فيدور ميخائيلوفيتش، الذي كان شديد التعلق به، وكأنه كان يعرف أنه سيفقده قريباً، ومما زاد في وطأة هذا المصاب أن الصغير توفي بسبب داء الصرع، الذي انتقل إليه بالوراثة...

حين عدنا إلى بطرسبورغ في الخريف لم نستطع البقاء في الشقة الغنية

بالذكريات عن طفلنا الحبيب، فانتقلنا إلى جادة كوزنيتشنوي، منزل رقم (٥)، حيث توفي زوجي بعد عامين ونصف.

كانت الحياة تجري كالمعتاد: فكان فيدور ميخائيلوفيتش يعمل جاهداً في وضع خطة روايته الجديدة. (كان وضع خطة الرواية يشكل أهم حلقة في أعماله الأدبية وأكثرها صعوبة. لأن خطط بعض الروايات (الشياطين) على سبيل المثال، كانت تعدل أكثر من مرة). كان العمل يجري بسرعة كبيرة لدرجة أنه تمكن حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٨ من وضع الخطة، وإنجاز حوالي عشر ملازم من رواية (الأخوة كارامازوف). وقد نشرت هذه الملازم في الكتاب، الصادر عن (روسكي فيسنيك) في شهر كانون الثاني (يناير) ١٨٧٩.

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٨ (الرابع عشر منه) شارك فيدور ميخائيلوفيتش في الأمسية الموسيقية ــ الأدبية لصالح دورات بيستوجوف، حيث قرأ قصة (تيللي) من روايته (مذلون ومهانون). وقد أثارت قراءته إعجاب الجميع وذلك بفضل الصدق والبساطة، لكأن الصبية المراهقة هي ــ لا الكاتب نفسه ــ التي تتحدث عن حياتها المرة. لقد استطاع بأسلوبه البسيط أن يترك لدى الشباب انطباعاً لا يمحى. وكانت الفتيات أكثر ترحيباً به. ولا زلت أذكر أن زوجي كان في غاية الرضى عن وجوده في ذلك الوسط الشبيبي البهيج.

عام ١٨٧٨

حين ظهر في العدد ما قبل الأخير من (يوميات كاتب) الإعلان عن أن فيدور ميخائيلوفيتش سيتوقف عن إصدار المجلة بسبب مرضه، بدأت الرسائل تتدفق عليه من المشتركين والقراء، بعضها يعرب عن أسفه لمرضه، ويتمنى له الشفاء العاجل، والبعض الآخر يأسف لتوقف المجلة التي كان كل ما يقض مضاجع المجتمع آنذاك يجد صداه على صفحاتها. وقد اقترح البعض عليه أن يصدر المجلة بشكل غير دوري. إذا كان إصدارها شهرياً يشكل عبئاً ثقيلاً عليه، المهم أن يظلوا، ولو بين الفينة والأخرى، يطلعون على تقييمه النزيه للأحداث البارزة في الحياة الجارية. كان عدد مثل هذه الرسائل التي وردتنا في مطلع العام يربو على المئة، وقد تركت لديه انطباعاً طيباً، حيث بينت له أن ثمة من يشاطره أفكاره، وأن المجتمع يثمن عالياً صوته غير المنحاز ويثق به. وهذا ما يتجلى في رسالة فيدور ميخائيلوفيتش إلى صديقه س. د. يانوفسكي:

«لن تصدق مدى التعاطف الذي كان يكنه لي الروس خلال عامي الإصدار. كانت الرسائل ترد بالمئات بعضها مُبارِكاً، وبعضها يعرب عن الحب الصادق. ومنذ الإعلان عن توقف الإصدار في تشرين الأول (أكتوبر) أصبحت ترد يومياً من شتى أصقاع روسيا، ومن كل طبقات المجتمع (على اختلافاتها). بعضها يأسف، وبعضها يتوسل أن أستمر. ولكن الخوف من

أن أتهم بالغرور يمنعني من الحديث عن مدى ذلك التعاطف الذي أبداه لي الجميع . لا تستطيع أن تتصور مدى ما تعلمته خلال هذين العامين من مئات الرسائل الواردة من الشعب الروسي . والشيء المهم في ذلك أنني اكتشفت أن الشعب الروسي الحقيقي ، غير المشوه بآراء مثقفي بطرسبورغ . وصاحب الآراء الحقيقية والصائبة ، التي يتحلى بها الإنسان الروسي ، هو أكثر نسبياً مما كنت أعتقد منذ عامين مضيا . كان أكثر لدرجة أنني لم أكن أتصور مثل هذه النتيجة حتى في أكثر رغباتي حماسة وخيالي جموحاً . صدقني أن لدينا في روسيا الكثير مما هو ليس كئيباً ، كما كان يبدو سابقاً ، والمهم أن الكثير يدل على التعطش للحياة الجديدة الصائبة ، ويدل على الثقة العميقة بالتغيير القريب في نمط تفكير الانتيلجينسيا المتخلفة عن الشعب ، والتي لا تفهمه مطلقاً . أنت غاضب من كرايفسكي ، ولكنه ليس الوحيد ، كلهم أنكروا الشعب ، وضحكوا ويضحكون من حركته ، ومن ذلك التعبير المتألق والمقدس عن إرادته ، ومن ذلك الشكل الذي يعبر فيه عن إرادته . وسيختفي هؤلاء السادة مع ذلك ، فقد شاخوا جداً ، ودب فيهم الوهن . إن على هؤلاء الذين لم يتقبلوا الشعب أن ينضموا الآن ـــ دون شك ـــ إلى أصحاب البورصة واليهود ، تلك نهاية حملة تفكيرنا (التقدمي) . ولكن الجديد آت . ففي الجيش بينت شبيبتنا ونساؤنا (شقيقاتنا) شيئاً آخر يختلف عن كل ما كان متوقعاً ومنتظراً . سنبقى بالانتظار .

(إن كرايفسكي يخدم أشخاصاً معروفين ، كما أنه ، برأيي ، كان يريد أن يمتاز بالأصالة منذ حرب الصرب . فقد تذوق ذلك مرة ، ولم يعد بقادر على

التخلي عن ذلك) وبشكل عام فإن الفائدة قليلة لدينا هنا، حتى في كل الصحف، باستثناء (الوقائع الموسكوفية) وافتتاحياتها السياسية، التي تلقى اهتماماً كبيراً في الخارج. أما بقية الصحف فيقتصر دورها على انتهاز الفرص. وفي مئات الرسائل، التي وردتني خلال هذين العامين كان الجميع أكثر ما يمتدحونني على نزاهة التفكير وصدقه، وهذا يعني أن هذا بالذات هو ما يفتقرون إليه، وهذا بالذات ما يتعطشون إليه، وهذا بالذات ما يفتقدونه. إن المواطنين في صفوف ممثلي الانتيليجينسيا لدينا قلة».

في السادس من شباط (فبراير) ١٨٧٨ تلقى فيدور ميخائيلوفيتش من أكاديمية العلوم الرسالة التالية:

«إن أكاديمية العلوم الإمبراطورية، رغبة منها في الإعراب عن احترام أعمالك الأدبية، اختارتك يا صاحب السعادة في عداد أعضائها المراسلين في قسم اللغة الروسية وفقه اللغة».

وقد تم الاختيار في جلسة مهيبة للأكاديمية عقدت في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٧.

كان فيدور ميخائيلوفيتش في منتهى الارتياح لهذا الاختيار، وإن كان قد جاء متأخراً إلى حد ما (في العام الثالث والثلاثين من بدء نشاطه) بالمقارنة مع أقرانه الأدباء.

ولا زلت أذكر أن فيدور ميخائيلوفيتش حضر في مطلع ١٨٧٨ عدة حفلات غداء، كانت تقيمها جمعية الأدباء شهرياً في مطاعم مختلفة. وكانت

بطاقات الدعوة تحمل توقيع الكيميائي المعروف منديليف . وفي هذه الحفلات كان الحضور يقتصر على الأدباء من شتى الأحزاب . وهنا كان فيدور ميخائيلوفيتش يلتقي بألد أعدائه الأدباء. وخلال شتاء (١٨٧٨) حضر فيدور ميخائيلوفيتش أربع حفلات من هذا النوع، وكان يعود منها دائماً في غاية التأثر ، ويروح يحدثني باهتمام عن لقاءاته المفاجئة ، وتعرفه على الآخرين .

عام ١٨٧٨ . قدوم المعجبة

حدث ذلك في يوم ربيعي من عام ١٨٧٨ ، فبينما كنا نتناول طعام الغداء، وكان فيدور ميخائيلوفيتش مرحاً بعد النزهة الصباحية، لا يكف يمازح الصغار ، تردد رنين الجرس عالياً ، وهرعت الخادمة لفتح الباب ، وعبر الباب المشقوق تناهى إلينا صوت نسائي :

ـ ألا يزال حياً ؟

ويبدو أن الخادمة لم تفهم السؤال فلم تجب بشيء .

ـ أسألك عما إذا كان فيدور ميخائيلوفيتش لا يزال حياً ؟

ـ نعم حي . ـ أجابت الخادمة بارتباك .

نهضت أريد معرفة الأمر ، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش الذي كان يجلس أقرب مني إلى الباب ، سبقني ، فهب واقفاً ، وكاد أن يركض باتجاه المدخل .

وقد اندفعت للقائه امرأة، لم تعد شابة، وصاحت، وهي تمد يديها نحوه:

ــ أنت حي يا فيدور ميخائيلوفيتش؟ كم أنا سعيدة أنك ما زلت على قيد الحياة.

فصاح فيدور ميخائيلوفيتش، بدوره، وقد استولى عليه الذهول:

ــ ماذا بك يا سيدتي؟ إنني حي وفي نيتي أن أحيا طويلاً.

وقالت المرأة باضطراب: أما عندنا في خاركوف فيقولون إن زوجتك تخلت عنك، وإن خيانتها أقعدتك مريضاً، وليس ثمة من يمد لك يد العون، وللحال جئت إليك للعناية بك، لقد أتيت من المحطة مباشرة.

وخرجت بدوري إلى المدخل فرأيت فيدور ميخائيلوفيتش وقد استولى عليه الغضب:

ــ أتسمعين يا آنيا، إن بعض الأوغاد يروج أنك تخليت عني، فكيف يبدو لك ذلك؟ آه، كيف يبدو لك ذلك؟!

ــ اهدأ يا عزيزي، لا داعي للقلق! يبدو أن هناك سوء تفاهم، اذهب من هنا فالمدخل بارد. وهكذا فقد قدته باتجاه غرفة الطعام، ولم يمانع، ولفترة طويلة ظل صوته الساخط يتناهى إلي من غرفة الطعام.

أما أنا فقد بقيت مع المرأة المجهولة، وقد تبين أنها معلمة، طيبة القلب، ولكنها ليست ذكية جداً، وقد أغرتها ــ على ما يبدو ــ فكرة السهر على

الكاتب المشهور، الذي تخلت عنه زوجته غير الصالحة، والسير في وداعه إلى العالم الأفضل، ومن ثم التبجح بقية حياتها أنه توفي بين يديها. شعرت بالشفقة على هذه الغريبة، التي كانت مضطربة إلى حد كبير، واعتذرت منها، ثم ذهبت إلى غرفة الطعام، وقلت لزوجي إنني أريد أن أقدم لها طعام الغداء.

فلوح فيدور ميخائيلوفيتش بيديه، ثم همس: «أدعيها، ولكن دعيني أذهب أولاً». ثم هب من مكانه، وذهب إلى مكتبه.

عدت إلى الغريبة، وعرضت عليها أن ترتاح، وتتناول طعام الغداء، ولكن يبدو أن استقبال زوجي لها أثار حزنها، فرفضت، وطلبت من الخادمة أن تحمل لها السلة المجدولة الكبيرة إلى العربة. ولم أصر على دعوتي، ولكنني سألتها عن اسمها وأين ستقيم.

حين عدت إلى زوجي وجدته لا يزال نهباً للاضطراب.

ـــ هل ترين؟ يا لحقارة مزاعمهم: لقد تخليت عني! يا للتهمة الحقيرة! ترى أي عدو ألف ذلك؟

عام ١٨٧٩

مرت الأشهر الأولى من العام الجديد دون منغصات، فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش منكباً على الرواية، وكان العمل سهلاً. وفي مطلع آذار (مارس) شارك زوجي في عدة أمسيات أدبية. ففي ٩ آذار قرأ (قصة

بالسر) من رواية (الأخوة كارامازوف)، بحضور أفضل كتابنا: تورغينيف، سالتيكوف، بوتيخين وغيرهم. وكانت القراءة رائعة، وقد دوت القاعة بعاصفة من التصفيق، كانت الأمسية ناجحة جداً، لدرجة أنه تقرر إحياؤها من جديد في ١٦ آذار، بالمشاركين أنفسهم.

وفي حوالي العشرين من آذار (مارس) وقع لزوجي حادث كاد يكون ذا عواقب وخيمة. فبينما كان يتنزه، قبل الغداء كعادته، لحق به في شارع نيقولاي أحد السكارى، وضربه على مؤخرة رأسه بقوة جعلته يقع أرضاً، ويصاب بجرح في وجهه. وقد اجتمع خلق كثير، وجاء الشرطي، وقاد المخمور إلى القسم، كما طلب من زوجي الذهاب إلى هناك أيضاً. وفي القسم طلب فيدور ميخائيلوفيتش من ضابط الشرطة أن يخلي سبيل الرجل، لأنه يصفح عنه. وقد وعد الضابط بذلك، ولكن ظهور الخبر في صحف الغد، ونظراً لشهرة المعتدى عليه في الأوساط الأدبية، فقد حول الضبط إلى السيد ترافيموف، رئيس المحكمة المدنية. وبعد حوالي أسبوعين طلب فيدور ميخائيلوفيتش إلى المحكمة. وفي أثناء الجلسة تبين أن المدعى عليه هو الفلاح فيدور أندرييف، وقد أوضح أنه كان مخموراً، وأنه لم يضرب (السيد) بل كل ما حصل أنه لامسه فسقط أرضاً. وأعلن فيدور ميخائيلوفيتش في المحكمة أنه سامح المتهم، وطلب أن يعفى من العقاب. وقد أخذ القاضي هذا الطلب بعين الاعتبار، ولكنه حكم على الفلاح بغرامة قدرها ١٦ روبلاً، أو السجن لمدة أربعة أيام. وقد أشفق زوجي على الفلاح، ودفع له مبلغ الغرامة.

وفي النصف الثاني من تموز (يوليو) ١٨ منه، سافر فيدور

ميخائيلوفيتش إلى الخارج . وفي الرابع والعشرين وصل إيمس . وعلى الرغم من مرور ثلاث سنوات فقد تعرف عليه الطبيب . وفي ٢٥ منه كتب زوجي يقول : « لقد وجد أن جزءاً من الرئة ليس في محله ، ولا في وضعه الطبيعي ، وكذلك قلبي ، والسبب هو انتفاخ الرئتين . ولكنه أكد أن القلب سليم . ولكن إذا كان انتفاخ الرئتين هكذا ، وهو في بدايته ، فماذا سيحدث فيما بعد؟ وبشكل عام فإنني أعلق الكثير من الآمال على المياه » .

كنت آمل أن يلتقي فيدور ميخائيلوفيتش أحد معارفنا هناك . وأن ذلك اللقاء قد يخفف من صعوبة الفراق . ولكن للأسف أن آمالي خابت ، فخلال الأسابيع الخمسة من وجوده في إيمس لم يلتق شخصاً واحداً يعرفه ، فكان لا يكف عن الشكوى والتذمر من جو الوحدة الثقيل : « ومما زاد في الطين بلة أنني لم أجد في قاعة المطالعة سوى (الوقائع الموسكوفية) المتأخرة جداً ، ومجلة (الصوت) ، التي تثير غضبي . وإن التسلية الوحيدة هي الأطفال ، وهم هنا كثيرون . فأنا أتأملهم وأتحدث معهم ، وحتى ذلك لا يخلو من الفظائع : اليوم التقيت طفلاً في زحمة رفاقه الذاهبين إلى المدرسة ، في حوالي الخامسة من عمره ، يسير وقد غطى عينيه براحة يده وهو يبكي . وأسأل عما به فيقول لي بعض المارة من الألمان إنه أصيب بالتهاب في عينيه مِنذ شهر (ألم لا يطاق) أما والده ، الحذّاء ، فلا يريد مراجعة الطبيب ، كي لا ينفق عدة بفينيكات على الدواء . لقد أثر بي ذلك كثيراً ، واضطربت أعصابي ، وأنا في غاية الأسى ... إن الملل لا يطاق يا آنيا ، إنه أصعب من الأشغال الشاقة ، كلا لقد كانت الأشغال الشاقة أفضل » . كانت رسائله إلي في منتهى الحزن

والأسى. ففي رسالته، التي تحمل تاريخ ١٣ آب (أغسطس) كتب يقول: «حزنت كثيراً لدى تلقي النبأ عن إيميليا فيدورفنا المسكينة، صحيح أن مرضها لم يكن يبشر بالخير. ولكن بموتها انتهى كل ما كان على الأرض يربطني بذكرى أخي. ولم يبق إلا فيديا. فيدور ميخائيلوفيتش، الذي حملته بين ذراعي. أما أبناء أخي الباقون فقد شبوا، وترعرعوا ليس في ظلي. اكتبي إلى فيديا عن حزني العميق. فلست أدري إلى أين أكتب له... تصوري أي حلم رأيت في الخامس من الشهر (لقد كتبت التاريخ): رأيت أخي. كان يرقد في السرير، والشريان في عنقه مقطوع، وهو ينزف دماً، وأفكر برعب: لا بد من الإسراع في طلب الطبيب. ولكن كل دمه سينزف قبل وصول الطبيب. يا له من حلم مخيف، والمهم أنني رأيته في الخامس من آب (أغسطس) عشية وفاتها. لا أعتقد أنني أخطأت في حقها كثيراً. فقد ساعدتها حين كان بالإمكان، وتوقفت عن الاستمرار في مساعدتها حين ظهر لديها مساعدون أقرب ــ ابنها وصهرها. وفي العام الذي توفي فيه أخي لم أكتف بالتضحية بآلافي العشرة، دون تفكير ودون أسف، من أجل قضيتهم، بل وضحيت بقواي واسمي الأدبي، الذي قرنته بذلك الإصدار الفاشل، وعملت كا الثور، حتى المرحوم أخي لا يمكن أن يلوموني على ذلك». ويضيف في نهاية الرسالة: «غداً يبقى أسبوعان على صمتي هنا، لأن هذا ليس مجرد عزلة، بل صمت. لقد فقدت القدرة على الحديث، حتى إنني أحدث نفسي بنفسي، كا المجنون».

١٨٧٩ ــ ١٨٨٠

في شتاء ١٨٧٩ ازداد اهتمام المجتمع وإعجابه بفيدور ميخائيلوفيتش ــ بفضل نجاح (الأخوة كارامازوف) ــ ، وبدأ يتلقى دعوات الشرف ، وبطاقات حضور الحفلات والأمسيات الأدبية ، والمشاركة في إحياء هذه الأمسيات ، ونظراً لوضعه الصحي السيء فقد كنت أرافقه إليها باستمرار ، وكنت أشعر برغبة عارمة في حضور هذه الحفلات لسماع إلقائه الفني ، وعاصفة التصفيق ، التي كانت تدوي في القاعة ، وباستمرار كنت أجلب معي إلى الأمسية الكتاب ، الذي يقرأ منه فيدور ميخائيلوفيتش ، ودواء ضد السعال ، وشالاً أدثر به عنق زوجي لدى خروجه في الجو البارد . وكان فيدور ميخائيلوفيتش ، إذ يراني مثقلة دوماً بأحمالي كان يسميني « حامل سلاحه الأمين » .

وللأسف أن غيرة زوجي كانت غالباً ما تضعني في موقف حرج . وإليكم أحد الأمثلة .

ففي إحدى هذه الأماسي الأدبية تأخرنا قليلاً ، ووجدنا أن جميع المشاركين في الأمسية قد سبقونا . ولدى دخولنا راح الجميع يرحب بفيدور ميخائيلوفيتش ، أما الرجال فقد قبلوا يدي ، ويبدو أن هذه العادة النبيلة قد أثارت حفيظة زوجي ، فقد سلم على الجميع بجفاف ، وانزوى جانباً . وللحال

أدركت السر ، فاكتفيت بمبادلة الحاضرين عدة جمل ، ثم جلست إلى جانب زوجي بغية تنقية الجو . ولكنني لم أتمكن من ذلك ، فعلى سؤالين ــ ثلاثة لم يجب فيدور ميخائيلوفيتش بشيء ، ومن ثم قال بنزق ، بعد أن نظر إلي :

ــ روحي إليه !!

فسألت ذاهلة : إلى من ؟

ــ لا تـ ـعـ ـر فـ ـيـ ـن ؟

ــ لا أعرف إلى من أروح ؟ قلت ، وأنا أضحك .

ــ إلى ذلك ، الذي قبَّل يدك للتو بِوَلَه .

ولما كان جميع الرجال الحاضرين قد قبلوا يدي احتراماً فإنني لم أعرف بالطبع إلى من يوجه زوجي التهمة في هذه الجريمة .

كان حديثنا يدور بصوت منخفض . ولكن الجالسين قربنا سمعوه بكل وضوح . وشعرت بالخجل ، وخوفاً من الفضيحة قلت له :

ــ أرى يا فيدور ميخائيلوفيتش أنك (لست على بعضك) . ولا تريد الحديث معي ، ولذلك سأذهب إلى الصالة . وأجلس هناك . وداعاً . ثم خرجت ، وإن هي إلا دقائق خمس حتى اقترب مني ب . أ . غايديبورف ، وقال أن فيدور ميخائيلوفيتش يناديني . وقد أسرعت إليه ، ظناً مني أنه لا يستطيع العثور على بداية المقطع المطلوب في الكتاب . ولكن زوجي استقبلني بعداء :

ـــ فقدتِ صبركِ؟ أتيت ترومين رؤياه؟

فقلت ضاحكة:

ـــ طبعاً، ورؤياك أيضاً، هل تحتاج شيئاً؟

ـــ لست بحاجة لأي شيء.

ـــ ولكنك دعوتني؟

ـــ ولم يخطر لي ذلك. لا تتوهمي من فضلك.

ـــ إذا كنت لم تنادني، إذن فالوداع، أنا خارجة.

وبعد حوالي عشر دقائق جاءني أحد المشرفين على الأمسية وأخبرني أن زوجي سأل عن المكان، الذي أجلس فيه. ولعله إذن يود رؤيتي. ولكنني قلت له إنني عدت للتو من عنده. ولا أريد أن أضايقه قبيل القراءة. ولم أذهب إليه. وفي الاستراحة الأولى جاءني المشرف من جديد بناء على إلحاح زوجي بالحضور إليه. فذهبت إليه، ولم يكد يراني حتى انحنى علي، وهمس لي، وقد علا الارتباك والشعور بالذنب وجهه: عفوك يا آنيتشكا. هاتي يدك للتوفيق، لقد جاء دوري الآن...

كانت مثل هذه القصص تتكرر في كل أمسية. وفي كل مرة كان فيدور ميخائيلوفيتش يعترف بخطئه ويطلب الصفح، ويقسم أغلظ الأيمان بأنه لن يعود إليها. ولكنه لم يكن يستطيع البر بقسمه. فكان في كل مرة يرسل المشرفين ليعرفوا أين أجلس ومع من أتحدث. وغالباً ما كان يقترب من الباب

المشقوق، المطل على الصالة، ويبحث عني في المكان الذي حدده له المشرفون. وذات مرة نفذ صبري فقلت له:

ــ إذا ما بحثت اليوم عني في القاعة فإنني سأغادر مكاني وأخرج من هنا.

ــ إذن سأقفز عن المنصة وألحق بك.

وقد قال هذا بلهجة جدية. وأدركت أنه لن يتورع عن مثل هذه الفضيحة في حال خروجي.

الفصل الثامن

العام الأخير

تجارة الكتب

شهد مطلع ۱۸۸۰ حدثاً هاماً في حياتنا ـ افتتاح مؤسستنا الجديدة: (تجارة الكتب ف. م. دستويفسكي لأبناء المدن الأخرى حصراً).

على الرغم من أن أمورنا بدأت تتحسن من عام إلى آخر. وبعد تسديد أغلب الديون، التي تراكمت على فيدور ميخائيلوفيتش منذ الستينيات، فإن وضعنا المالي كان لا يزال هشاً: فالحياة أكثر كلفة وتعقيداً، ولم نكن قد تمكنا، بعد، من أن نخبىء شيئاً لـ (اليوم الأسود). وكان ذلك يثير قلقنا جداً، لا سيما وأن العمل بالنسبة لفيدور ميخائيلوفيتش كان يزداد صعوبة. ثم

إن مرضه (التضخم الرئوي) كان في تفاقم مستمر، وكان يخشى أن يؤدي ذلك إلى توقف في العمل الأدبي. وهكذا، وتحسباً للطوارىء، أردت أن يكون لدي بعض الاحتياطي من النقود، أو عمل إضافي للحصول عليها. ولكن فرص العمل بالنسبة للنساء قليلة حتى في وقتنا الراهن، فما بالك بتلك الأزمنة.

وبعد أن فكرت بالأمر ملياً، واستعرضت الأعمال التي يمكن أن أقوم بها، واستشرت ذوي الخبرة، وقع اختياري على فتح تجارة الكتب لأبناء المدن الأخرى، لا سيما وأنني كنت قد اكتسبت خبرة في هذا المجال من خلال بعض الطبعات. وكان لهذا المشروع ناحيتان إيجابيتان، الأولى، والأهم بالنسبة لي، أنه لم يكن يتطلب مني الابتعاد عن البيت، ويسمح لي بمتابعة السهر على صحة زوجي، وتربية الصغار، وتدبير شؤون البيت. أما الناحية الثانية فكانت تكمن في أن تجارة الكتب لم تكن مقرونة بإنفاق إلا القليل من المال، فلم تكن ثمة حاجة إلى استئجار مخزن واقتناء السلع، بل كان يكفي، كبداية، شراء تلك الكتب التي تلقينا النقود لإرسالها. وكل ما كان يجب الإنفاق عليه هو شراء (حقوق التجارة)، واستئجار صبي، يقوم بشراء الكتب، وخياطة الطرود، وحملها إلى البريد. وكان هذا يتطلب ٢٥٠ ـــ ٣٠٠ روبل في العام، وهو مبلغ يمكن أن نغامر به...

وبالطبع فإن نجاح مثل هذا المشروع كان يتوقف على اقترانه باسم دستويفسكي، وهكذا فقد اضطر فيدور ميخائيلوفيتش، بعد حصوله على (حقوق التجارة)، إلى أن يتحول إلى تاجر. ولم يتوانَ أعداؤه عن التهكم منه

والسخرية به. ولكن ذلك لم يجرح عزة نفسه، لأنه اقتنع بفكرتي، وباركها، وكان يؤمن بنجاح المشروع...

ولكن هذه التجارة لم تستمر طويلاً، فبعد وفاة زوجي توقفت عن ممارسة تجارة الكتب ـــ في بداية آذار (مارس) ١٨٨١ ـــ.

بداية ١٨٨٠ الأمسيات الأدبية
زيارات المعارف

على العموم كانت بداية عام ١٨٨٠ طيبة بالنسبة لنا. فقد قلت نوبات زوجي، وكانت صحة الأطفال جيدة. كما كانت رواية (الأخوة كارامازوف) ناجحة. وعلى الرغم من انكباب فيدور ميخائيلوفيتش على هذه الرواية فقد كان يشارك مشاركة فعالة في الأمسيات الأدبية. ولم يكن يرفض المشاركة في أية أمسية مهما كان مشغولاً. المرض وحده كان يحول بينه وبين المشاركة فيها. وكان الجمهور يستقبله بحماسة، فلا يكاد يظهر حتى تدوي عاصفة التصفيق، التي تستمر عدة دقائق... والواقع أن فيدور ميخائيلوفيتش كان مقرئاً من الدرجة الأولى، وإليكم ما قاله فينغر بهذا الصدد: «كان من حسن حظي أنني حضرت إحدى الأمسيات الأدبية التي جرت في عام ١٨٧٩.. ليس ثمة من مقرىء آخر يمكن أن يقارن بفيدور ميخائيلوفيتش. في تلك الأمسية اشترك دستويفسكي، وتورغينيف، وسالطيكوف شيدرين،

وغريغوريفيتش ، وبولونسكي ، وألكسي بوتيخن . وقد كان إلقاء الجميع جيداً باستثناء سالطيكوف وبولونسكي . ولكن فيدور ميخائيلوفيتش كان يبزهم كلهم ، فبصوت واضح ومؤثر راح يقرأ واحداً من أكثر فصول (الأخوة كارامازوف) روعة ، (اعتراف قلب جامح) ما رواه ميتيا كارامازوف حول قدوم كاترينا إيفانوفنا إليه للحصول على النقود من أجل إنقاذ أبيها . كان صمت القبور يخيم على الجمهور ، الذي يزيد على الألف » .

كان فيدور ميخائيلوفيتش يقرأ ببساطة ، دون اللجوء إلى أساليب الخطابة . وكان بقراءته ــ خاصة حين يقرأ قصة نيللي من (مذلون ومهانون) أو اليوشا كارامازوف عن ايليوشتشكا ، يسحر الحاضرين ، فترى الدموع تترقرق في العيون ، حتى أنني نفسي لم أكن أتمالك نفسي من البكاء ، على الرغم من أنني كنت أعرف تلك المقاطع عن ظهر قلب . وكان فيدور ميخائيلوفيتش يبدأ كل قراءة بمقدمة موجزة لتعريف المستمعين بالرواية ، أو تذكيرهم بها ، إن كانوا قد نسوها .

وبالإضافة إلى الأمسيات الأدبية كان فيدور ميخائيلوفيتش في شتاء ١٨٧٩ ــ ١٨٨٠ غالباً ما يزور المعارف والأصدقاء . ففي السبوت كان يزور إيفان بيتروفيتش كورنيلوف ، حيث كان يلتقي العلماء والمسؤولين البارزين ، كما كان يحضر الأمسيات عند يلينا أندرييفنا شتاكينشنيدر ، حيث كان يجتمع لديها ، أيام الثلاثاء ، العديد من الأدباء يقرؤون مؤلفاتهم ، وتقدم العروض المسرحية ، ولا زلت أذكر تمثيلية (دون جوان) ، التي حضرتها مع زوجي ، وقد نالت إعجاب فيدور ميخائيلوفيتش ...

وأشير هنا إلى العلاقة الوثيقة، التي كانت تربط بين زوجي وأندريان أندريفيتش، أخ يلينا أندريفنا، وهو حقوقي بارز كان زوجي يستشيره في كل الأمور التي تتعلق بالنواحي القانونية، وزوجي مدين له بأن كل تفاصيل محاكمة ميتيا كارامازوف كانت في غاية الدقة، ولم يستطع أي من النقاد، وكانوا كثيرين، أن يجد فيها ثغرة واحدة ينفذ منها للتهجم على فيدور ميخائيلوفيتش.

ولكن أكثر زيارات فيدور ميخائيلوفيتش في عامي ١٨٧٩ ـــ ١٨٨٠ كانت للدوقة صوفيا أندرييفنا تولستويا. أرملة الشاعر المرحوم الكونت ألكسي تولستوي. كانت امرأة ذات عقل راجح، وثقافة واسعة. وكان فيدور ميخائيلوفيتش يجد متعة كبيرة في الحديث معها، وإلى جانب هذا العقل الراجح كانت ذات إحساس مرهف، وقلب ينبض بالرقة والطيبة، وسأبقى مدى حياتي ممتنة لتلك اللفتة، التي أدخلت السعادة على قلب زوجي.

فذات مرة، وبينما كان يتحدث معها عن رواق اللوحات في دريسدن، أشار إلى أنه يضع لوحة عذراء سيكستينيا في مصاف الأعمال الفنية. وأشار في سياق الحديث إلى أنه حاول أكثر من مرة شراء نسخة عن هذه اللوحة، في أثناء وجوده في الخارج، ولكنه لم يتمكن، كما أن الحصول عليها هنا في روسيا مستحيل. ففي كل مرة كان يسافر فيها إلى إيمس، كان ينوي شراء نسخة جيدة عن هذه اللوحة، وفي كل مرة كان يعود خالي الوفاض. وبدوري كنت أبحث له عن نسخة جيدة في محلات العاصمة، ولكن دون جدوى. مرت ثلاثة أسابيع على هذا الحديث، وفي صباح أحد الأيام، وكان فيدور

ميخائيلوفيتش لا يزال نائماً، جاء فلاديمير سالافيوف يحمل نسخة رائعة من لوحة (العذراء) بالحجم الأصلي. ولكن العذراء لوحدها، أي بدون الأشخاص الآخرين الموجودين في اللوحة الأصلية.

وقد أخبرني فلاديمير سالافيوف، أن الدوقة، وكان صديقاً كبيراً لها، كتبت إلى أصدقائها في دريسدن، وطلبت منهم هذه الصورة، التي تقدمها لفيدور ميخائيلوفيتش (عربوناً للذكرى). كان ذلك في منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٧٩. وللحال خطرت لي فكرة وضعها في إطار، وتقديمها لفيدور ميخائيلوفيتش في يوم عيد ميلاده، الذي يصادف الثلاثين من تشرين الأول. وقد كان سالافيوف من أنصار هذه الفكرة، وطلبت منه أن ينقل شكري وامتناني للدوقة، وأن يخبرها أن فيدور ميخائيلوفيتش لن يراها قبل نهاية الشهر. وهذا ما حدث فعلاً.

ففي صباح ذلك اليوم البهيج، وبينما كان فيدور ميخائيلوفيتش يشرب الشاي في غرفة الطعام، كانت اللوحة تأخذ مكانها فوق الأريكة (سرير فيدور ميخائيلوفيتش). وبعد التهاني والأحاديث المرحة انتقلنا مع الصغار إلى المكتب. ولكم أن تتصوروا مدى دهشة فيدور ميخائيلوفيتش وذهوله وسعادته، إذ فوجىء بتلك اللوحة الساحرة، التي يكن لها كل ذلك الحب. فسألني، ظناً منه أنني اشتريتها: أين تمكنت من العثور عليها يا آنا؟ وحين أخبرته أنها هدية من الدوقة تأثر كثيراً، وقصدها في الليلة نفسها ليعرب عن شكره وامتنانه. وكم من مرة كنت أفاجأ به يقف أمام هذه اللوحة بخشوع، حتى إنه لم يكن ينتبه إلى دخولي، فأغادر المكتب بكل هدوء.

وأشير هنا إلى أن فيدور ميخائيلوفيتش كان كثير الصداقات الودية مع النساء، اللواتي كن يفتحن له قلوبهن، ويطلبن منه إسداء النصائح، ولم يكن يضن عليهن بذلك، حتى إنه لم يكن يتورع عن إعطاء رأيه وإن كان جارحاً.

السفر إلى موسكو والمشاركة في عيد بوشكين

في آذار (مارس) ١٨٨٠ بدأت الأوساط الأدبية تتناقل خبراً مفاده أن تمثال بوشكين، الذي يقام في موسكو قد أنجز، وأنه سيرفع عنه الستار في حفل مهيب. وقد أثار هذا الخبر اهتمام مثقفينا. وكان الكثيرون يريدون المشاركة في هذا الاحتفال. وقد وصلت فيدور ميخائيلوفيتش — كغيره من الأدباء البارزين — بطاقة دعوة إلى هذا الاحتفال. وفيها إشارة إلى أن بوسعه، إذا كان يريد، أن يلقي كلمة في هذا الاحتفال، مكرسة لذكرى بوشكين. وكانت الأحاديث، التي تدور في العاصمة حول الكلمات، التي سوف تلقى، والتي ستعبر عن الاتجاهين الأساسيين القائمين آنذاك — حزب الغربيين وحزب أنصار السلافية —، تثير قلق فيدور ميخائيلوفيتش. وقد أعرب عن عزمه، إذا لم يقعده المرض، على السفر إلى موسكو، والتعبير في كلمته عن بوشكين، عما يجيش في عقله وقلبه منذ سنوات. كما أعرب فيدور ميخائيلوفيتش عن رغبته في أن أكون رفيق طريقه. وهذا ما كنت أهفو إليه بالطبع.

ولكن لسوء الحظ لم نتمكن من تحقيق هذه الأمنية . فحينما بدأنا نحسب كلفة السفر اقتنعنا أنها تفوق طاقتنا . فبعد وفاة ولدنا اليوشا أصبح تعلق فيدور ميخائيلوفيتش بالصغيرين أكبر ، ولذا فقد رفض تركهما وحيدين ، وهذا يعني أن نسافر نحن الأربعة . ولكن أجور السفر ذهاباً وإياباً والإقامة في الفندق ، لم تكن تقل عن ثلاثمئة روبل ، هذا بالإضافة إلى ضرورة الظهور في الاحتفال ، بلباس فاتح ، إن لم يكن فاخراً ، فأنيقاً على الأقل ، وهذا ما يزيد في الكلفة . ولم يكن بوسعنا الحصول على المال من (البشير الروسي) نظراً لبعض البلبلة في حساباتنا مع المجلة . وبكلمة مختصرة فقد توصلنا إلى قرار مفاده أن علي التخلي عن ذلك الحلم ، الذي طالما راودني . وأشير هنا إلى أنني بقيت طيلة حياتي أشعر أنني حرمت من متعة كبيرة في حضور ذلك الاحتفال .

ولكي يتمكن فيدور ميخائيلوفيتش من كتابة كلمته في جو هادىء قررنا الانتقال إلى ستاريا روسًا . وهكذا ففي مطلع أيار كنا قد انتقلنا إلى البيت الصيفي .

في نيسان (أبريل) ١٨٨٠ علم فيدور ميخائيلوفيتش أن مجلة (بشير أوروبا) نشرت مقالة لأنينكوف بعنوان (العقد الرائع) ، يتحدث فيها عن دستويفسكي . وقد اهتم فيدور ميخائيلوفيتش بالمقالة ، وطلب مني الحصول على العدد المذكور . ولم أتمكن من الحصول عليه إلا عشية سفرنا إلى روسًا ، حيث حملناه معنا . ولم يكد زوجي ينتهي من قراءة المقالة حتى استبد به الغضب : ففي مذكراته يشير أنينكوف إلى أن دستويفسكي كان في غاية الإعجاب بموهبته الأدبية ، ويزعم أنه طلب نشر عمله الأول (المساكين) ،

بحيث تكون هناك (تمغة على جوانب الصفحات)، وقد أثار هذا التلفيق غضب زوجي وسارع يكتب إلى سوفورين، يرجوه أن يعلن في (الأزمنة الحديثة) باسمه، أن كل ما جاء في (بشير أوروبا) حول (التمغة) لا يمت للواقع بصلة. والواقع أن ما كتبه أنينكوف أثار حفيظة الكثيرين من أقران فيدور ميخائيلوفيتش.

وعلى رد فيدور ميخائيلوفيتش اعترف انينكوف بحصول خطأ، وأن المطالبة بـ (التمغة) كانت من أجل أحد أعمال دستويفسكي الأخرى، تحت عنوان (قصة بليسميلكوف)، ــ التي لم تكتب أبداً ــ. ولشدة غضب زوجي من تلفيق أنينكوف قرر أن يتجاهله إذا ما رآه في الاحتفال القادم، وأن لا يسلم عليه إذا ما اقترب منه.

حُدِّد الخامس والعشرون من أيار (مايو) موعداً لإزاحة الستار عن تمثال بوشكين. وقد سافر زوجي قبل الموعد بعدة أيام، ليتمكن بكل هدوء من الحصول على البطاقات لحضور مختلف جلسات الحفل، باعتباره رفيق رئيس الجمعية السلافية الخيرية، فقد كان فيدور ميخائيلوفيتش يمثل هذه الجمعية في الحفل. وكان عليه أن يوصي على الأكاليل، لوضعها على النصب.

كنا نعتقد أن غياب زوجي لن يستغرق سوى أسبوع واحد: يومان ذهاباً وإياباً، وخمسة أيام في الاحتفال. وقد وعدني أنه لن يتأخر يوماً واحداً في موسكو. ولكن الذي حدث أنه لم يعد من موسكو إلّا بعد اثنين وعشرين

يوماً. كانت ثقيلة الوطأة علي، على الرغم من أنه كان يكتب لي رسالة ــ اثنتين يومياً.

وأشير هنا إلى أنني طلبت من الطبيب سنيتكين، وهو قريب لي أن يفحص فيدور ميخائيلوفيتش بعد عودته من إيمس في نهاية ١٨٧٩. صحيح أنه طمأن فيدور ميخائيلوفيتش، وأكد له أن كل شيء على ما يرام. ولكنه اعترف لي أن مرضه قد تفاقم، وأنه يمكن أن يشكل خطراً على حياته. ونصح بعدم القيام بالحركات الحادة، وعدم رفع وتحريك الأشياء الثقيلة، كما نصح بالسهر على صحته، وجعله في منأى عن كل المؤثرات المفرحة والمحزنة.

ولكم أن تتصوروا وضعي خلال هذه الأسابيع الثلاثة، وكم عانيت وقاسيت. فقد تفاجئه نوبة أو أكثر فيشهِّر به خصومه، ويتهمونه بالجنون، وبدلاً من التخفيف عنه. لا يجد إلا من يزيد في الطين بلة، وكم من مرة خطر لي أن أسافر إلى موسكو، وأسهر على زوجي، بحيث لا يراني أحد. ولكن لما كنت أعرف أن ترك الصغيرين مع المربية سوف يثير هواجسه فقد تخليت عن هذه الفكرة، واكتفيت بأن طلبت من أصدقائي في موسكو أن يبرقوا لي في حال حدوث نوبة لزوجي، فأستقل أول قطار إلى موسكو. كانت الأيام تمر وموعد الاحتفال يؤجل، وكانت هواجس فيدور ميخائيلوفيتش (كما تدل رسائله) تزداد، فكان عذابي يتضاعف، وعلى الرغم من مرور هذه السنوات الطويلة فلا زلت أتألم حين أتذكر تلك الفترة.

عودة فيدور ميخائيلوفيتش من موسكو

أخيراً حل ذلك اليوم السعيد، الذي وضع حداً لعذابي الذي طال. ففي ١٣ حزيران (يونيو) وصل فيدور ميخائيلوفيتش إلى ستاريا روسّا، وهو في غاية الفرح والمرح. وقد حدثني بكل حماسة وحيوية عن انطباعاته في موسكو، وعن سعادته، لأن روسيا أدركت أخيراً قيمة هذا الشاعر العبقري بوشكين، فكرّمته.

ولكن لم تمض عشرة أيام حتى طرأ تغير حاد على مزاج فيدور ميخائيلوفيتش. وكان الذنب في ذلك ذنب الصحف، التي كان يتصفحها يومياً في المكتبة. فقد تعرض فيدور ميخائيلوفيتش لموجة عارمة من التهم والتلفيق، وحتى الشتائم على صفحات الصحف والمجلات. فأولئك الأدباء الذين أصغوا بكل إعجاب لكلمته في الحفل البوشكيني، وصفقوا له وصافحوه، لم يلبثوا أن استردوا وعيهم، وتخلصوا من التنويم، وراحوا ينتقدون كلمته، ويهينون كاتبها. وحينما تقرأ تلك التعليقات تشعر بالسخط من تلك الحقارة والفظاظة، اللتين تميزت بهما كتابات أولئك الكتاب، الذين نسوا أنهم إنما يسخرون من إنسان ذي موهبة هائلة، يعمل في المجال الأدبي منذ خمسة وثلاثين عاماً، ويتمتع باحترام عشرات الآلاف من القراء الروس وحبّهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الحملات غير اللائقة أحزنت فيدور

ميخائيلوفيتش وأهانته . وقد كانت مخاوفي في مكانها فقد أصيب بنوبتين جعلتا رأسه على مدى أسبوعين عاجزاً عن العمل . ففي رسالته إلى ميللر في ٢٦ آب (أغسطس) ١٨٨٠ كتب فيدور ميخائيلوفيتش يقول :

« إنك ترى ما لحق بي من صحافتنا ، كلها تقريباً ، بسبب كلمتي في موسكو ، لكأنني قمت بعملية سطو ، أو اختلاس ، أو تزوير في أحد البنوك . حتى يوخانتسوف[١] لم يتعرض لمثل هذه القاذورات التي تعرضت لها » .

نعم كثيرة هي المنغصات التي تحملها فيدور ميخائيلوفيتش من (أخوته في السلاح) .

ولكن فيدور ميخائيلوفيتش لم يعتبر نفسه مغلوباً . ولما لم يكن قادراً على الرد على كل التهجمات فقد قرر الرد على شخص كان بوسعه أن يعتبره نداً له في الجدل الأدبي وأقصد أ . غرادوفسكي ، البروفيسور في جامعة س . بطرسبورغ ، على مقالته (الأحلام والواقع) ، التي نشرت في العدد رقم ١٧٤ من (الصوت) لعام ١٨٨٠ . وقد نشر فيدور ميخائيلوفيتش رده في العدد الوحيد ، الذي صدر من (يوميات كاتب) لعام ١٨٨٠ وفي هذا العدد أيضاً نشر كلمته في الاحتفال البوشكيني ، التي نشرت أول ما نشرت في (الوقائع الموسكوفية) ، ولقيت رواجاً كبيراً في صفوف القراء . ومن أجل إصدار هذا العدد اضطررت للسفر إلى العاصمة لمدة ثلاثة أيام . وقد لقي هذا العدد

---

(١) بطل إحدى المحاكات المصرفية . (الكاتبة)

نجاحاً هائلاً ، ونفدت الستة آلاف نسخة في وجودي ، واضطررت إلى إصدار طبعة جديدة من العدد نفسه ، وبكمية كبيرة ، نفدت كلها في الخريف .

استرد فيدور ميخائيلوفيتش بعض الهدوء والطمأنينة ، بعد أن رد على نقاده ، وانكب على رواية (الأخوة كارامازوف) ، وكان قد بقي عليه الربع الأخير منها . أي حوالي عشرين ملزمة ، وكان عليه إنجاز ذلك قبل شهر تشرين الأول (أكتوبر) لأننا كنا ننوي إصدار الرواية في طبعة مستقلة ، ومن أجل ذلك بقينا في ستاريا روسًا حتى نهاية أيلول (سبتمبر) . والواقع أننا لم نندم على ذلك فقد كان الخريف في منتهى الروعة .

بعد عودتنا إلى بطرسبورغ بدأ فيدور ميخائيلوفيتش يشارك في الأمسيات الأدبية . وكانت تلك الأمسية التي قرأ فيها قصيدة بوشكين (النبي) من أروع تلك الأماسي وأكثرها تأثيراً في الجمهور ، حيث تركت لديه انطباعاً لا يمحى . وقد كان فيدور ميخائيلوفيتش يزداد اهتماماً بهذه الأمسيات ، وكان شديد الاعتزاز بتصفيق الجمهور له . ولكن للأسف أن تلك الأمسيات كانت تكلفه الكثير من الجهد والتوتر . ولكن قواه كانت قليلة .

وفي السنوات الأخيرة ازداد فيدور ميخائيلوفيتش حباً للشبيبة ، وكان باستمرار يتلقى بطاقات الشرف إلى الحفلات ، التي كانت تقام في مؤسسات التعليم العالي . وكان الشباب يتحلقون من حوله ، ويمطرونه بالأسئلة ، ويدخلون معه في نقاش حام ، فكان يعود من تلك الأمسيات منشرح الصدر باسم الثغر ، وإن كان مرهقاً جسدياً .

ومع مطلع كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٠ صدرت في طبعة مستقلة رواية (الأخوة كارامازوف) ثلاثة آلاف نسخة. فلقيت نجاحاً كبيراً. وخلال عدة أيام نفد نصف هذه الكمية، مما أثلج قلب فيدور ميخائيلوفيتش، ويمكن القول إن ذلك كان الحدث السعيد الأخير في حياته، الملأى بالمنغصات المختلفة.

الفصل التاسع

الوفاة ــ الدفن

كان فيدور ميخائيلوفيتش بطبعه إنساناً محباً للعمل بدرجة كبيرة جداً. وأعتقد أنه لو كان غنياً، ولم يكن مضطراً للاهتمام بكسب قوت يومه، فإنه لم يكن ليجلس مكتوف اليدين، ولعثر على المواضيع للعمل الأدبي الدؤوب.

مع مطلع ١٨٨١ تمكنا من التخلص من تلك الديون، التي أثقلت كاهلنا على مدى سنوات طويلة، لا بل وكان لدينا في هيئة تحرير (البشير الروسي) مبلغ خمسة آلاف روبل. وللوهلة الأولى كان يبدو أن ليس ثمة حاجة

ماسة للعمل، ولكن فيدور ميخائيلوفيتش لم يكن يريد الراحة. فقد قرر العودة إلى إصدار (يوميات كاتب) لأن الكثير من الأفكار حول الوضع السياسي لروسيا تراكم لديه في السنوات الأخيرة، ولم يكن بوسعه التعبير عنها بحرية إلا في مجلته. أضف إلى ذلك أن النجاح الهائل، الذي حققه العدد الوحيد من المجلة في عام ١٨٨٠، زاد من أملنا في أن يجد الإصدار الجديد رقعة انتشار أوسع. كان فيدور ميخائيلوفيتش يتطلع إلى نشر أفكاره الصريحة، وكان ينوي إصدار المجلة خلال عامين، كما كان يحلم بكتابة الجزء الثاني من (الأخوة كارامازوف)، حيث يطالعنا كل الأبطال السابقين تقريباً، ولكن بعد عشرين عاماً، أي في أيامنا هذه، بعد أن يكونوا قد حققوا الكثير، وخبروا الكثير في هذه الحياة. وقد تحدث فيدور ميخائيلوفيتش أكثر من مرة عن رواية المستقبل هذه، والتي كان من المنتظر أن تكون في غاية الروعة، وللأسف الشديد أنه لم يقدر لهذه الرواية أن ترى النور.

خلال النصف الأول من كانون الثاني (يناير) كانت صحة فيدور ميخائيلوفيتش رائعة، فكان يزور المعارف، حتى إنه وافق على المشاركة في التمثيلية، التي كان من المزمع إحياؤها لدى الدوقة تولستويا في مطلع الشهر القادم.

منذ ثلاثة أشهر لم يصب زوجي بنوبات الصرع، وأحيا مظهره المرح والنشيط الأمل لدينا في أن ينتهي هذا الشتاء على خير. ومنذ منتصف كانون الثاني (يناير) انكب فيدور ميخائيلوفيتش على عدد هذا الشهر من (اليوميات). وفيه كان ينوي التعبير عن رأيه بـ (مجمع الزيمسكي)، وهو

موضوع كان يمكن للرقابة أن تحظر نشره، مما أثار قلق فيدور ميخائيلوفيتش. ولكن رئيس لجنة الرقابة عرف، عن طريق الدوقة تولستويا، بقلق فيدور ميخائيلوفيتش، فأرسل إليه يطمئنه على مصير مقالته، وأنه سيسمح بنشرها. وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) كانت المقالة جاهزة، وأرسلت إلى المطبعة للصف. ولم يبق إلا التصحيح الأخير، وإرسالها إلى الرقيب وبدء الطبع، بحيث يكون العدد بين أيدي القراء في اليوم الأخير من الشهر.

في يوم الأحد الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) كان عندنا ضيوف كثيرون، بمن فيهم البروفيسور ميللر. وقد طلب من زوجي المشاركة في أمسية أدبية تقام في التاسع والعشرين من كانون الثاني. ذكرى وفاة بوشكين. وفي البداية رفض فيدور ميخائيلوفيتش المشاركة في الأمسية، خوفاً من أن ترفض الرقابة مقالته عن (مجمع زيمسكوي)، فيضطر إلى كتابة أخرى، ولكنه لم يلبث أن وافق. وقد اتفق جميع ضيوفنا على أن فيدور ميخائيلوفيتش في صحة جيدة، مرح ونشيط. ولم يكن ثمة من شيء يدل على ما حدث بعد ساعات.

ففي صباح السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) نهض فيدور ميخائيلوفيتش، كما هي عادته، في الواحدة ظهراً. وحينما دخلت عليه في مكتبه حدثني بما جرى له ليلاً: فقد سقطت الريشة تحت منضدة الكتب، فأزاح المنضدة يروم رفعها، ويبدو أن المنضدة كانت ثقيلة وأن فيدور ميخائيلوفيتش قد بذل جهداً كبيراً أدى إلى انقطاع الشريان الرئوي، وخروج

الدم عن طريق الحنجرة، ولكن لما كانت الكمية قليلة فإن فيدور ميخائيلوفيتش لم يول ذلك اهتماماً كبيراً، ولم يرغب في إزعاجي ليلاً.

ودون أن أقول له شيئاً أرسلت ابننا بيوتر في طلب الدكتور فون بريتسيل، الذي كان يشرف على علاجه باستمرار. ولكن لسوء الحظ أنه كان قد خرج لعيادة مرضاه، ولن يعود قبل الخامسة.

كان فيدور ميخائيلوفيتش هادئاً جداً. وكان يتحدث مع الأولاد ويمزح وإياهم، حتى إنه بدأ يقرأ (الأزمنة الحديثة). وفي حوالي الثالثة جاءنا سيد طيب القلب. وكان زوجي يكن له كل الود، ولكن عيبه الوحيد أنه من هواة النقاش والجدل. وقد دار الحديث بينهما عن المقالة الموعودة في (اليوميات). وراح الضيف يحاول البرهان على وجهة نظره. ولما كان فيدور ميخائيلوفيتش قلقاً من النزيف الليلي فقد اعترض على كلامه، وبدأ النقاش حامي الوطيس بينهما. وقد منيت محاولاتي بتهدئتهما بالفشل، على الرغم من أنني قلت للضيف مرتين أن فيدور ميخائيلوفيتش مريض، وأن الحديث بصوت عال وبكثرة يضره. أخيراً وفي حوالي الخامسة مساء انصرف الضيف، ولم نكد نستعد للذهاب لتناول طعام الغداء حتى فوجئت بفيدور ميخائيلوفيتش وقد جلس على الأريكة، وبعد عدة دقائق من الصمت رأيت ويا لهول ما رأيت، ذقن زوجي وقد صبغت بالدم، الذي كان لا يزال يجري في خط ضيق، صرخت، فجاء الأولاد والخادمة على صراخي. ولم يكن فيدور ميخائيلوفيتش خائفاً، على العكس فقد راح يهدىء خاطري، ويطلب مني ومن الأولاد التوقف عن البكاء، لا بل إنه قاد الصغيرين إلى طاولة الكتابة

وراح يطلعهما على العدد الأخير من مجلة (الجرادة)، حيث كان رسم كاريكاتوري يمثل صيادين التفت الشبكة عليهما فسقطا في الماء. حتى إنه قرأ للصغيرين القصيدة المرفقة مع الرسم بصوت مرح. فاستعاد الصغيران هدوءهما ومرحهما. ومرت ساعة أخرى على خير، وجاء الطبيب، بعد أن أرسلت في طلبه للمرة الثانية، وحينما بدأ الطبيب فحصه أصيب بالنزيف من جديد. وكان هذه المرة من القوة لدرجة أن فيدور ميخائيلوفيتش فقد وعيه. وحين استرد وعيه كانت كلماته الأولى موجهة إلي:

ـ آنيا! أرجوك أن ترسلي في طلب الخوري، إنني أريد الاعتراف والتقرب[1].

وعلى الرغم من تأكيدات الطبيب بأن كل شيء على ما يرام، وليس ثمة من خطر، فقد نزلت عند رغبة المريض. كنا نعيش قرب كنيسة فلاديمير، ولذا فلم يمض نصف ساعة حتى جاء الأب ميغورسكي. وقد رحب فيدور ميخائيلوفيتش به، وأمضى وقتاً طويلاً معه في الاعتراف والتقرب. وحينما دخلت غرفة المكتب مع الصغيرين لتهنئته بالتقرب المقدس باركنا، وطلب، منهما أن يعيشا في وئام، وأن يحبا بعضهما، ويحباني، ويسهرا علي... ودخل الطبيب ومنعه من أدنى حركة، ومن الحديث. ثم أرسل في طلب طبيبين، أحدهما من معارفه، والآخر سبق له أن أشرف على علاج فيدور ميخائيلوفيتش. وفي هذه

---

(١) يقال إن السبب الرئيسي الذي عجل في وفاة الكاتب النزف الذي أصابه نتيجة الخلاف مع شقيقتيه حول الإرث الذي تركته خالتهم أ. كومانينا، وذلك كما جاء في مذكرات ابنة الكاتب. (المترجم)

المرة لم يرهقوا المريض بالفحص، حيث رأى الأطباء أن كمية النزف قليلة نسبياً (حوالي كأسين في المرات الثلاث) تدل على احتمال تشكل (انسداد) وأن الأمور ستتحسن. وقد أمضى الطبيب فون بريتسيل الليل بطوله إلى جانب فراش المريض، ويبدو أن فيدور ميخائيلوفيتش قد نام بهدوء، أما أنا فلم أغف إلا عند الصباح.

مر يوم السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) هادئاً. فلم يتكرر النزف، وكان فيدور ميخائيلوفيتش يبدو في وضع أحسن، حتى إن مزاجه تحسن، وطلب دعوة الصغيرين وراح يحدثهما بهمس. وفي وسط النهار ساوره القلق على (اليوميات) فقد جاء عامل الصف من مطبعة سوفورين، وأخبرنا بضرورة حذف سبعة أسطر زيادة عن الملزمتين. وهذا ما زاد في قلق فيدور ميخائيلوفيتش. ولكنني طلبت منه أن آخذ مهمة حذف هذه الأسطر على عاتقي فوافق، واسترد فيدور ميخائيلوفيتش بعض الهدوء حين عرف أن المقالة عادت من الرقابة مع الموافقة.

وفي الوقت نفسه كان خبر مرض فيدور ميخائيلوفيتش قد انتشر في المدينة، ومنذ الساعة الثانية، وحتى ساعة متأخرة من الليل لم يعرف جرس الباب راحة. كان القادمون، من معارف وغرباء، يسألون عن صحة فيدور ميخائيلوفيتش. كما تلقينا العديد من الرسائل والبرقيات. ولم يكن يسمح لأي كان بالدخول على المريض، فكنت أخرج إلى المعارف لدقيقتين، وأخبرهم عن حالة المريض. وكان فيدور ميخائيلوفيتش مرتاحاً لهذا الاهتمام الكبير به، حتى إنه تحدث معي طويلاً ــ بهمس ــ بخصوص إحدى الرسائل، وجاء الطبيب

كوشلاكوف، فوجد أن حالة المريض قد تحسنت إلى حد كبير، وأكد له أنه سيكون قادراً على النهوض بعد أسبوع، وسيكون معافى تماماً بعد أسبوعين، ونصح بالنوم كثيراً، ولذا فقد أوينا كلنا إلى الفراش في وقت مبكر. وكنت قد أمضيت الهزيع الأخير من ليل البارحة جالسة في كرسي، فقد قررت قضاء هذه الليلة في فراش مد إلى جانب أريكة فيدور ميخائيلوفيتش، كي أكون قربه عن الحاجة، وبسبب أرق البارحة، وقلق النهار. لم ألبث أن رحت في سبات عميق. وخلال الليل استيقظت عدة مرات، وفي كل مرة كنت أرى مريضي العزيز يغط في نومه. استيقظت في حوالي السابعة صباحاً فوجدت زوجي ينظر ناحيتي. فسألته، وأنا أنحني عليه: كيف صحتك يا عزيزي؟

وأجابني بصوت أقرب إلى الهمس: تعرفين يا آنيا! منذ حوالي ثلاث ساعات والنوم لا يأتيني، وقد أدركت بوضوح أنني سأموت اليوم. فقلت له، وقد تملكني الخوف: لماذا تفكر هكذا يا عزيزي؟ فأنت الآن في حالة جيدة، والدم لم يعد ينزف، واضح أن (الانسداد) قد حصل كما قال الطبيب. بالله عليك لا تدع الشك يعذبك. إنك ستعيش أؤكد لك.

ـ كلا، أنا أعرف، يجب أن أموت اليوم. أوقدي الشمعة يا آنيا، وأعطني الإنجيل.

وكان هذا الإنجيل هدية من زوجات الديسمبريين(٢)، قدمنه له في

(٢) زوجات الثوريين الديمقراطيين الروس الذين شاركوا في تمرد ١٨٢٥ الفاشل، فحكم على خمسة من زعمائهم بالإعدام ونفذ الحكم بهم. كما نفي الباقون إلى سيبيريا. (المترجم)

توبولسك، وهو في طريقه لقضاء الحكم بالأشغال الشاقة، وكن قد طلبن من السجان السماح لهن بزيارة السجناء السياسيين الجدد، وقد أمضين معهم ساعات وباركنهم في طريقهم الجديد، ورسمن عليهم إشارة الصليب، وأهدين كلاً منهم نسخة من الإنجيل، الكتاب الوحيد المسموح بإدخاله السجن آنذاك. وعلى مدى السنوات الأربع، التي أمضاها فيدور ميخائيلوفيتش في الأشغال الشاقة، لم يفارقه هذا الكتاب. وفيما بعد ظل يضعه في مكان ظاهر على طاولة الكتابة. وفي كل مرة كان يخامره الشك في شيء ما، أو تنتابه الحيرة بصدد قضية ما كان يفتح الكتاب عشوائياً ويقرأ الصفحة الأولى (التي إلى يسار القارىء)، وها هو الآن يريد أن يقطع الشك باليقين مستعيناً بالإنجيل. فتح الكتاب المقدس، وطلب مني أن أقرأ له: (كان ذلك إنجيل متّى الفصل الثالث الصفحة الثانية).

ــ هل رأيت؟ إذن فسوف أموت. ــ قال زوجي ثم أطبق الكتاب.

ولم أستطع تمالك دموعي، فراح فيدور ميخائيلوفيتش يطمئنني ويشكرني بكلمات رقيقة لطيفة على تلك السنوات السعيدة، التي أمضيناها سوية، وأكد لي أنه واثق من أنه يترك الصغيرين في أيدٍ أمينة...

كان واضحاً أن فكرة الموت لا تفارق زوجي، وأنه لا يخشى الانتقال إلى العالم الجديد.

وفي حوالي التاسعة صباحاً غلبه النعاس فنام، ويدي في يده. فجلست دون حراك، خوفاً من أن يستيقظ. ولكنه استيقظ فجأة في حوالي الحادية

عشرة، ورفع رأسه عن الوسادة، وعاد النزيف. وقد استبد بي القلق إلى حد كبير. ولكنني رحت أسري عن زوجي، وأؤكد له أن كمية الدم قليلة، وأن (الانسداد) لا بد قد تم. ولكن فيدور ميخائيلوفيتش اكتفى بهز رأسه، لكأنه كان على قناعة تامة من أن تنبؤه بالموت في هذا اليوم في محله.

وفي منتصف النهار عاد الناس يتدفقون على منزلنا. وقد جاء ولده بالتبني، وكنت البارحة قد أرسلت له رسالة أخبره فيها بمرض زوجي. أصرَّ بافل الكسندروفيتش على الدخول على المريض. ولكن الطبيب رفض ذلك بشكل قاطع، وحينذاك راح يتلصص من خصاصة الباب. وقد لاحظ فيدور ميخائيلوفيتش ذلك، فطلب مني عدم السماح له بالدخول، خوفاً من أن يزعجه.

وفي هذا الوقت كان بافل الكسندروفيتش (إيسايف) في غاية الاضطراب، وكان يقول لجميع القادمين للسؤال عن صحة فيدور ميخائيلوفيتش من معارف وغرباء، أن (أباه) لم يضع وصيته الروحية، وأنه لا بد من استدعاء كاتب بالعدل إلى البيت كي يستطيع فيدور ميخائيلوفيتش التصرف بما يملك حسب رؤيته. ولكن الطبيب كوشلاكوف، الذي سمع هذا القول من بافل الكسندروفيتش، رفض هذا الطلب بشكل قاطع، مؤكداً أن ذلك من شأنه أن يزيد من وضع المريض سوءاً، وأن أي اضطراب قد يقضي على المريض.

وفي الواقع لم تكن ثمة حاجة إلى الوصية الروحية فقد سبق لفيدور ميخائيلوفيتش في عام ١٨٧٣ أن أهداني الحقوق الأدبية لمؤلفاته. وباستثناء

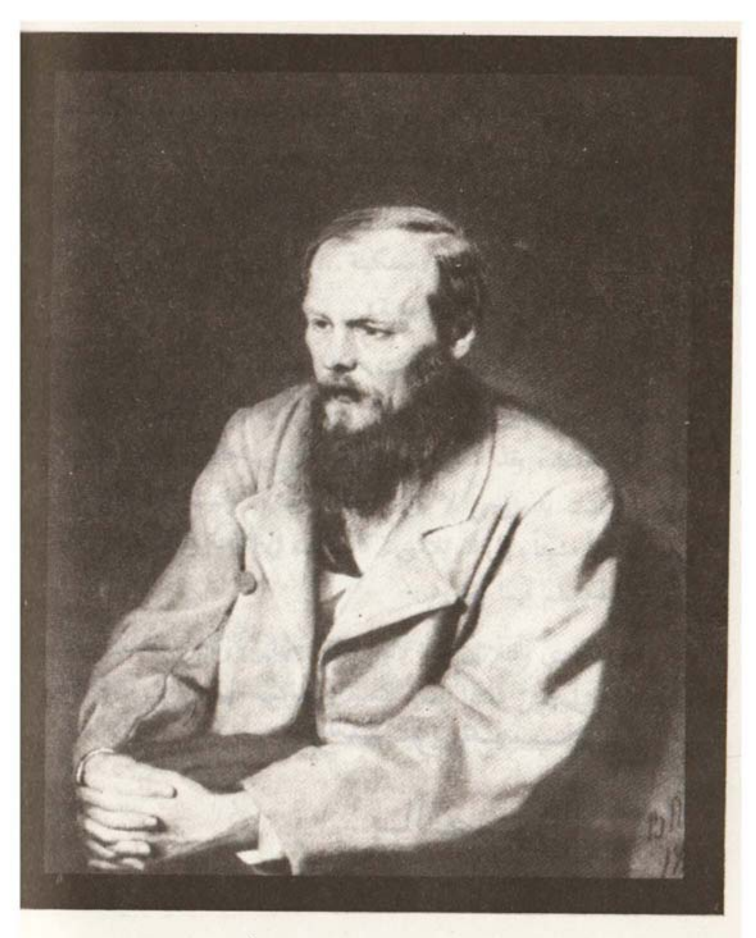
الخمسة آلاف روبل في (البشير الروسي) لم يكن لدى فيدور ميخائيلوفيتش أي شيء، وكنت أنا والأولاد ورثة هذا المبلغ الزهيد.

لم أغادر زوجي اليوم بكامله، ولو لدقيقة، كان ممسكاً بيدي، وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس: «مسكينة ... يا عزيزتي ... ماذا تركت لك .. مسكينة .. كم ستكون حياتك صعبة».

.. وفي حوالي السابعة غصت غرفة الضيوف والطعام بالزوار. وعلى حين غرة تشنج فيدور ميخائيلوفيتش، ورفع رأسه قليلاً، فبدأ الدم يصبغ وجهه من جديد، وقد سارعنا إلى إعطائه أقراص الجليد، ولكن النزف لم يتوقف. كانت يد زوجي لا تزال ممسكة بيدي. وكنت أشعر أن نبضه يضعف شيئاً فشيئاً، إلى أن تلاشى. كان ذلك في الثامنة وثمان وثلاثين دقيقة (كما ذكر أحدهم فيما بعد).

في الحادي والثلاثين من كانون الثاني (يناير) وكان يوم سبت، غادر فيدور ميخائيلوفيتش شقتنا للمرة الأخيرة في موكب مهيب، إلى مثواه الأخير في (الكسندرو نيفسكي لافرا).

دوستويفسكي
بالصور



فيدور ميخائيلوفيتش دستويفسكي

لوحة زيتية للفنان بيروف ف. ١٨٧٢

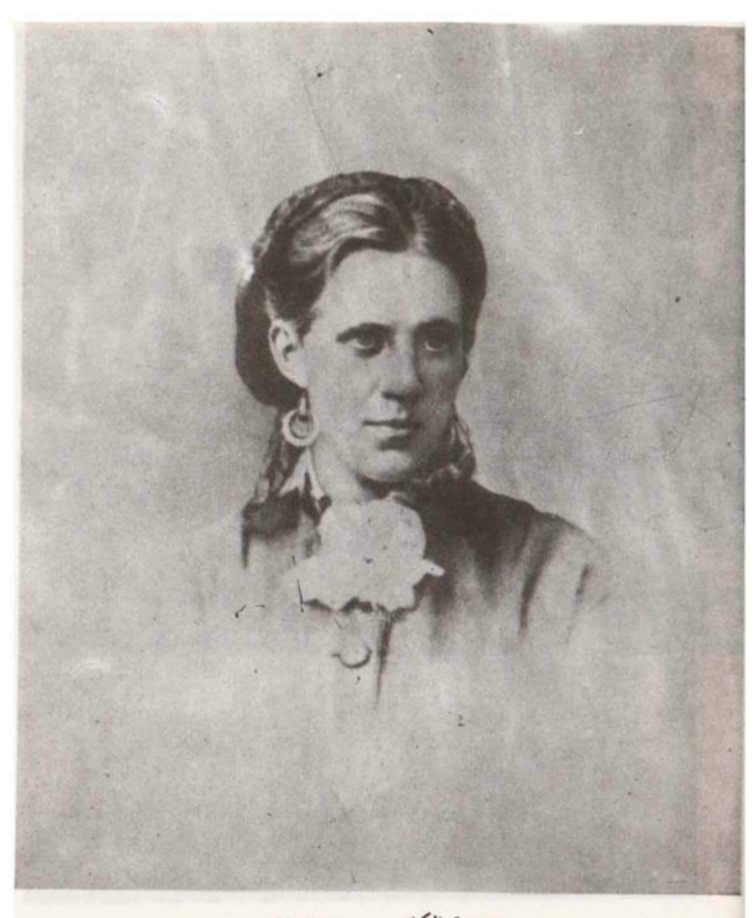


آنا غريغوريفنا دستويفسكيا (زوجة الكاتب)
صورة التقطت في ستينيات القرن الماضي



دستويفسكي ف.م.

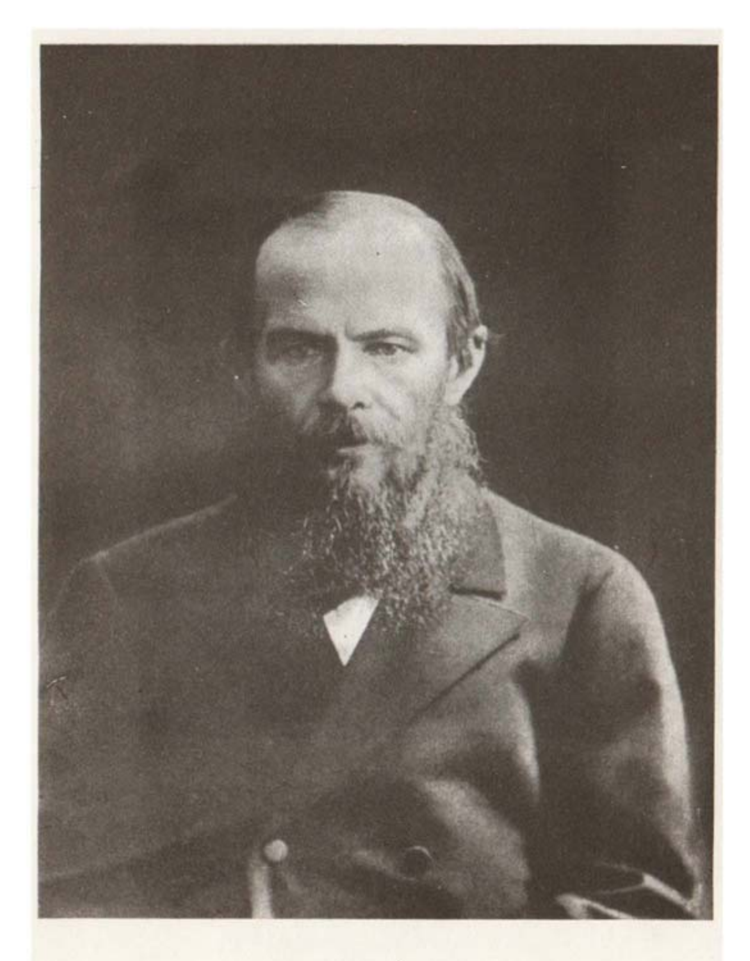
المنزل الذي سكنه الزوجان في فيينا
في عام ١٨٦٨



زوجة الكاتب صورة ١٨٧١



دار دستويفسكي في ستاريا روسًا
ثمانينيات القرن الماضي



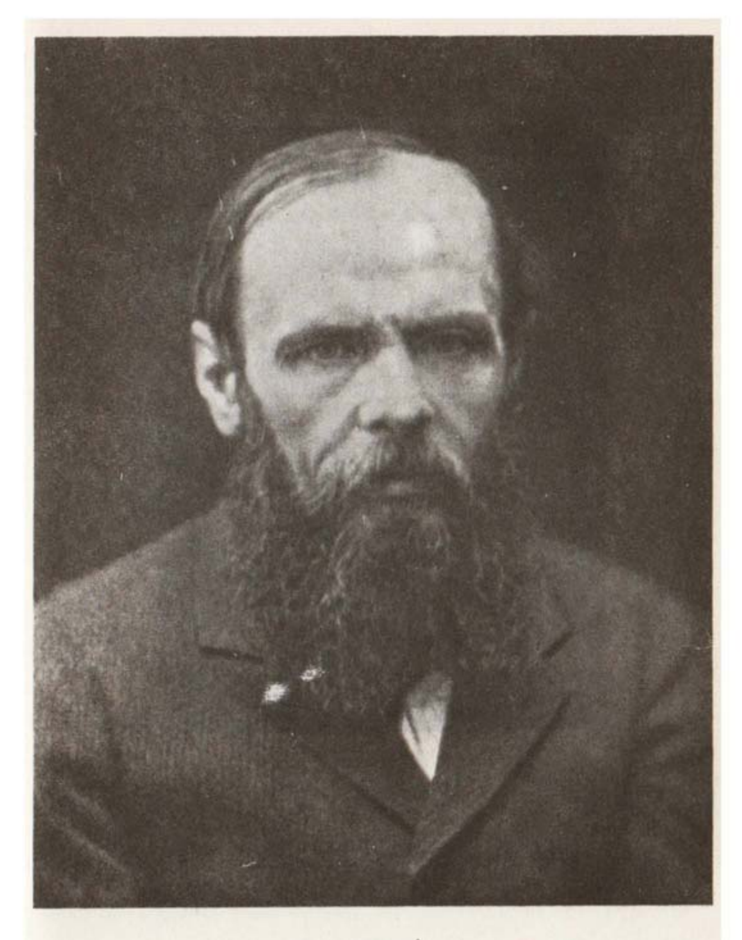
دستويفسكي صورة ١٨٧٦



البيت الذي توفي فيه الكاتب
في بطرسبورغ



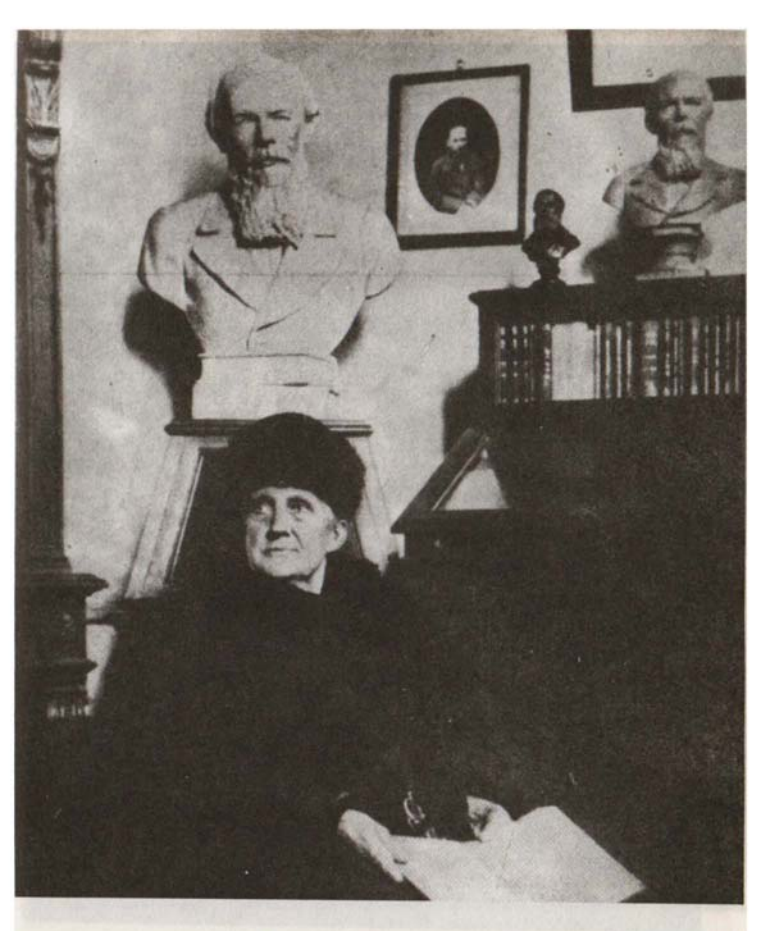
مكتب دستويفسكي حيث وافته المنية



صورة الكاتب ١٨٨٠



زوجة الكاتب وولده لوبا وفيديا
ثمانينيات القرن الماضي



زوجة الكاتب في غرفة زوجها في متحف التاريخ في موسكو
صورة ١٩١٦

المحتوى

دستويفسكي في مذكرات زوجته = Воспоминания / تأليف آنا دستويفسكايا؛ ترجمة هاشم حمادة. ــ ط. ١. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩. ــ ٣٤٤ص.؛ ١٨سم.

١ ــ ٩٢٠: دستويفسكايا، آنا ٢ ــ العنوان
٣ ــ دستويفسكايا ٤ ــ حمادة

رقم الإيداع ــ ١٩٨٩/٦/٨٣٣

رقم الإصدار ٤٤٠


@ketab_n